روايات مصرية للجيب
كتاب كوكتيل ٢٠٠٠

أرزاق

الجزء الأول

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من قلب الليل يأتى النهار ..

ومن قلب الظلم تأتى الرحمة ..

ومن المحال أن نأمل دوام الحال ..

د. نبيل فاروق

١ ــ العائلة ..

تمايلت أشجار القطن الصغيرة ، ذات الثمرات البيضاء الناصعة ، عبر مساحة شاسعة من الحقول ، وبدت فى استجابتها لنسمات الهواء أشبه بعذراء طروب ، تفتح قلبها للحياة ، وانتعشت عروقها بحب نابض حالم ، فأسبلت عينيها ، وراحت تتمايل مع خفقات قلبها ..

وفى نشوة ، راح الحاج (محمد البنهاوى) يراقب أرضه الواسعة ، وقد سرت فى نفسه نشوة نصر ، لم تفارقه منذ زمن .

إنه يمتلك كل هذه الأراضى ..

يمتلك ألف فدان دفعة واحدة ..

وأطلق الحاج (البنهاوى) من أعماق صدره تنهدة قوية ، وهو يعود بذاكرته إلى الوراء .

إلى ربع قرن مضى ..

كان آنذاك فقيرًا معدمًا ، نزح إلى تلك القرية من قرى محافظة الغربية ، باحثًا عن عمل ، أو مصدر جديد للرزق ، بعد أن انقطعت أسباب رزقه فى قريته ، القريبة من مدينة (بنها) ، إثر شجار نشب بينه وبين مأمور الناحية ..

وفى تلك القرية ، بدأ حياته ..

وفيها حمل اسم (النهاوى) ، نسبة إلى أصله

وطوال ثلاثة أعوام كاملة ، راح يدخر الملاليم والقروش ، ويحيا حياة أقرب إلى الضنك ، حتى استطاع شراء أول قطعة أرض ..

كانت قيراطين ، فى واحدة من أفضل أراضى القرية ..

وبامتلاكه القيراطين ، استطاع (النهاوى) أن يتقدم للزواج من ابنة الحاج (علام) ، شيخ القرية ..

(الزوجة)

وكانت هذه الزوجة هى قدم الخير ، كما تقول الأمثال الشعبية ، فمع زواجه منها تضاعف الرزق ، وانهالت عليه الأموال ، ومع ابنته الأولى (نعيمة) ، التى أصر على أن يطلق عليها اسم أمه ، استطاع (النهاوى) أن يمتلك فدانًا كاملًا من الأرض الزراعية الخصبة ، راح يعمل فيه بكل كد وجهد ، حتى ضاعفه إلى فدانين فى العام التالى ، مع مولد (توحيدة) ، ابنته الثانية ..

وعلى الرغم من سعادته بإنجاب (توحيدة) ، إلا أن جزءًا من نفسه راح يتمنى لو أنه أنجب ولدًا يعاونه فى عمله فيما بعد ، ويحمل اسمه إلى الأجيال المقبلة ، ويرث الأراضى التى يحلم بامتلاكها ..

وعندما أصبح (النهاوى) يمتلك خمسة أفدنة دفعة واحدة ، أنجبت له زوجته الابنة الثالثة (زينب) ، التى ورثت الكثير من جمال أمها ، بالإضافة إلى أنف والدها الطويل ..

وتضاعف الحلم فى أعماق (النهاوى) ..

حلم إنجاب الولد ..

وفى واحدة من جلساته مع شيخ الخفراء (بسيونى) ، سأله هذا الأخير ، وعيناه تحملان لمحة خبث :

— ألا تفكر فى إنجاب ولد يا حاج ؟

تنهد الحاج (محمد النهاوى) ، وغمغم فى أسى :

— وهل ينجب المرء بالتمنى والتفكير ؟.. إنها مشيئة الله (سبحانه وتعالى) .

أجابه (بسيونى) فى دهاء :

— اسع يا عبد يسع الله (سبحانه وتعالى) معك

التفت إليه الحاج (النهاوى) ، يسأله فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

أجابه فى دهاء :

— لو أن ابنة (علام) لا تنجب أولادًا ، فغيرها تفعل .

ارتد الحاج النهاوى مذعورًا ..

أيتزوج أخرى ؟!

أيطعن زوجته بلا جريرة ، سوى أنها لا تنجب أولادًا ؟!..

وماذا عن مشيئة الله (سبحانه وتعالى) ؟..

من أدراه أن الجديدة ستنجب ذكورًا ؟

وفى صرامة قال :

— لا يا (بسيونى) .. لن أتزوج أخرى .

أمسك (بسيونى) ذراعه ، وهو يقول فى لهجة الناصح :

— صدقنى يا حاج .. الذكور عزوة .. من سيرث أرضك ؟.. من سيعاونك فى شيخوختك ؟ لابد من الولد .

أربكت العبارة تفكير الحاج (النهاوى) مرة أخرى ..

نعم .. من سيرثه ؟..

لابد من الولد ..

لابد ..

وعاد الحاج (النهاوى) إلى منزله ورأسه يدور ، وكلمات (بسيونى) تملأ كيانه وأعماقه ..

هل يتزوج أخرى ؟
هل يسعى إلى الولد ؟
وفى تلك الليلة لم ينم الحاج (البنهاوى) ..
ظل ساهرًا حتى الفجر ، يقيم الصلاة ، ويكثر من صلاة الاستخارة ، حتى اهتدى قلبه إلى قرار ..
لن يتزوج أخرى ..
سينتظر ..
سينتظر رزقه ..
وبعد صلاة الفجر ، نام الحاج (البنهاوى) ملء جفنيه ..
وبعد سبعة أشهر ، رزقه الله (سبحانه وتعالى) بالولد ..
بـ (حسين) ..
وكانت فرحة الحاج (البنهاوى) لاتوصف ..
لقد أنجب الولد ..
أنجب الوريث ..
وأقام الحاج (البنهاوى) احتفالًا كبيرًا فى القرية ، امتلأت فيه البطون بالخيرات ، ونقصت فيه خزانة الحاج إلى النصف تقريبًا ..
ولكنها عادت تمتلئ ..
لم يكد (حسين) يبلغ عامه الأول ، حتى كان الحاج (البنهاوى) يمتلك عشرين فدانًا دفعة واحدة ، فى نفس الوقت الذى أنجبت فيه زوجته (شريفة) ..
وفى العام التالى ، كان يمتلك مائة فدان ، ويستطيع مصادقة عمدة القرية ، ودعوة مأمور الناحية لتناول الغذاء ، وزراعة عشرة أفدنة بالفواكه والموالح ..
وعندما أنجب ابنه الثانى (حافظ) ، كان قد صار من أثرياء القرية ، وبلغ مجموع مايمتلكه مائتى فدان ..
ومع مولد (ناهد) ، كان يمتلك مائتين وخمسين فدانًا .
وفى النهاية جاء (مفيد) ، واكتمل عدد الأفدنة ثلثمائة فدان ..

وهكذا أصبح للحاج (البنهاوى) عائلة كبيرة ، وأصبح له ثمانية أبناء ، خمس من الإناث وثلاثة من الذكور ..
وقرر الحاج (البنهاوى) أن يجعل عائلته على رأس عائلات القرية ، وراح يدرس الأمر طويلًا ، حتى توصل إلى أن أضلاع مثلث القوة هى : المال ، والنفوذ ، والعلم ..
وقرر أن يمنح أبناءه الأضلاع الثلاثة ..
كان لديه المال ، بعد أن صار يمتلك أربعمائة فدان ..
بقى أن يمنحهم العلم والنفوذ ..
انقطعت أفكاره بغتة ، مع صوت يهتف به من بعيد فى انفعال :
ـــ برقية ياحاج .. برقية من (القاهرة) .
التفت إلى صاحب الصوت فى لهفة ..
كان (عبد الحميد) ، العامل فى أرضه ، وقد راح يعدو نحوه منفرج الأسارير ، ملوحًا بالبرقية ، عبر حقول القطن ، مستطردًا :
ـــ برقية من (حسين) بك .
وعلى الرغم من لهفته الشديدة ، ظل الحاج واقفًا فى مكانه ، مكتفيًا بابتسامة هادئة ، حفاظًا على وقاره وهيبته ، حتى بلغه (عبد الحميد) ، فأطرق برأسه أرضًا ، وكأنما لايجرؤ على التطلع إلى وجه سيده ، وهو يناوله البرقية ، قائلًا فى صوت اختلط انفعاله بلهاثه :
ـــ لقد وصلت على التو ، ورأيت أن أهرع بها إليك ياحاج .
تناول منه الحاج البرقية ، وفضها فى توتر ، ولم يكد يقرؤها حتى التمعت عيناه ببريق يشف عن فرحة عارمة ، وهو يقول :
ـــ لقد نجح سيدك (حسين) فى الالتحاق بالكلية الحربية يا (عبد الحميد) .
هتف (عبد الحميد) فى فرح :

(حسين)

— نجح .. مبارك يا حاج .. سيصير سيدى (حسين) إذن من الضباط .. مبارك .. مبارك .

ابتسم الحاج ابتسامة عريضة ، وهو يقول له فى سعادة ، عجز هذه المرة عن إخفائها :

— اذهب فأخبر الجميع ، وعلق الزينات والرايات ، وليشرب الجميع شراب نجاح سيدك (حسين) .

هتف (عبد الحميد) فى سعادة غامرة :

— سأفعل يا حاج .. سأفعل .

قالها وهو يعدو عائدا إلى القرية فى سعادة ، فى حين ، تضاعف بريق الظفر فى عينى الحاج (البنهاوى) ، وهو يتطلع مرة أخرى إلى أرضه المترامية الأطراف ..

لقد نجح (حسين) ..

اقترب حلم الحاج (البنهاوى) ..

لقد أصبح يمتلك المال .. ألف فدان دفعة واحدة ..

والعلم ، بعد أن إلتحق كل أبنائه بالمدارس كأبناء الأثرياء ..

والآن النفوذ ..

أول خطوة فى طريق النفوذ ..

اليوم التحق (حسين) بالجيش ، ولن يلبث أن يصير ضابطا مهابا ..

أى نفوذ أكبر من الجيش ..

إن أمله كله معقود على أبنائه الثلاثة . (حسين) ، و(حافظ) ، و(مفيد) . فالبنات لن يكملن تعليمهن ..

تكفيهن المرحلة الابتدائية ..

وبعدها يتزوجن ..

واليوم بالذات ، مع قدوم خبر نجاح (حسين) ، سيلتقى بالشاب الذى طلب يد (نعيمة) ..

فرحتان فى يوم واحد ..

هكذا العائلة ..

عائلته ..

راح يخترق حقول القطن فى مهابة ، وعصاه تشق طريقها قبله ، عائدة معه إلى ذلك القصر الفاخر ، الذى يقيم فيه مع أبناءه ، والذى استبدله بذلك المنزل الصغير ، الذى تزوج فيه أمهم ..

أمهم التى رحلت منذ عامين أو يزيد ، وتركتهم فى رعايته ..

وعندما بلغ القصر ، كانت الرايات والزينات تملأ المكان ، وأكواب الشراب تدور على المهنئين ، الذين استقبلوا الحاج بعبارات التهنئة والدعوات الحارة ..

وفى المساء وصل (حسين) ..

واستقبلته القرية كلها استقبال الأبطال ، كأنما قد فتح الكلية الحربية ، أو استعمرها لحسابهم ..

ومع أذان العشاء قرأ الحاج (البنهاوى) الفاتحة ، مع والد زوج ابنته (نعيمة) المقبل ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح .. ومع قدوم منتصف الليل ، هدأت الأمور ، وآوت (نعيمة) إلى فراشها وابتسامة الفرح تعلو شفتيها ، وإلى جوارها شقيقاتها ، وكلهن يحلمن بأن يأتى يوم قريب ترتدين فيه ثوب العرس ..

ومع سكون الليل ، جلس (حسين) مع والده ، الذى ابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يقول له :

— مبارك يا ولدى ، أنت الآن على أول طريق القوة ، فالضباط هم القوة فى كل العصور والأزمنة .

رفع (حسين) حاجبيه فى نوع من الغطرسة والغرور ، وهو يقول :

— هذا طبيعى ، فالضباط يملكون أسلحة القوة كلها .

اتسعت ابتسامة الحاج (البنهاوى) أكثر ، وهو يقول :

ــ المهم أن تسعى دومًا إلى النفوذ والسطوة ، وما أمتلكه من مال سيجعل طريقك إلى ذلك أكثر سهولة .

أومأ (حسين) برأسه موافقًا ، وقال :

ــ بمناسبة الحديث عن السطوة والنفوذ ، أظنك تحتاج إلى إطار جديد ، يتيح لك هذا يا أبى .

غمغم الحاج فى حيرة :

ــ إطار جديد ؟! ماذا تعنى ياولدى ؟

لوح (حسين) بكفه ، وهو يقول فى لهجة نصوح :

ــ إنك على الرغم من ثرائك ، مجرد فلاح عادى ، أو إقطاعى يمتلك ألف فدان ، ولا يتجاوز نفوذه نفوذ العمدة أو مأمور الناحية .

سأله والده فى اهتمام :

ــ وماذا يمكننا أن نفعل ، للحصول على ماهو أكبر ؟

مال (حسين) نحوه ، وقال فى حزم :

ــ نحتاج إلى لقب .

تراجع الحاج (البنهاوى) مغمغمًا فى دهشة :

ــ لقب ؟!

اعتدل (حسين) ، وبرقت عيناه ببريق شهوانى ، وهو يجيب :

ــ نعم يا أبى .. نحتاج إلى لقب .

وتضاعف بريق عينيه ، وهو يستطرد :

ــ لقب (باشا) ..

* * *

٢ ــ اللقب ..

كان حفل زفاف (نعيمة) رائعًا ، تحدثت عنه القرية ، والقرى المحيطة ، طويلًا ، وحضره عمدة القرية ، وعمد القرى المجاورة ، ومأمور الناحية ، وناظر عزبة الباشا القريبة ..

ونحرت عشرات الذبائح فى ذلك اليوم ..

ودارت أقداح الشراب بلانهاية ..

وفى الحجرة المخصصة لكبار القوم ، جلس (حسين) إلى جوار والده الحاج (البنهاوى) مزهوًا ، مرفوع الرأس ، منتشيًا لكونه الابن الوحيد من أبناء (البنهاوى) ، الذى يشارك الكبار مجلسهم ، فى حين انهمك الأب مع الآخرين فى عدد من الحوارات حول أحوال الدولة والسياسة ، وقال المأمور ، وهو يلوح بيده فى غطرسة .

ــ أؤكد لكم أن البلد على حافة بركان ، فالوزارات تتبدل كل فترة وجيزة ، وهناك تلك المنشورات .

سأله (حسين) فى اهتمام :

ــ أية منشورات ؟

اعتدل المأمور فى مجلسه ، وأدار عينيه فى وجوه الجالسين ، وكأنما راق له أن يجذب حديثه الاهتمام إلى هذا الحد ، قبل أن يقول فى صوت منخفض ، ولهجة توحى بخطورة الأمر :

ــ منشورات الضباط الأحرار .

سأله الحاج (البنهاوى) فى دهشة :

ــ من ؟!

كرر المأمور :

ــ الضباط الأحرار ..

ثم قال مستطردًا فى اهتمام مسرحى :

ــ إن أمر هذه المنشورات مايزال سريا إلى حد كبير ، لايعلم به إلا كبار القوم .

ضغط حروف الكلمة الأخيرة ، وكأنما يؤكد بها انتماءه إلى فئة كبار القوم ، قبل أن يتابع ، وقد بدأ شبح ابتسامة يرتسم على شفتيه :

ــ ويقولون إنهم مجموعة من ضباط الجيش ، لاتروق لهم أحوال البلاد ، وخاصة بعد حرب (فلسطين) ، وقضية الأسلحة الفاسدة .

هز (حسين) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ــ مجرد عبث .. الجيش كله يدين بالولاء لمولانا الملك ، أسرع المأمور يقول :

ــ حفظه الله .

ثم أطلق ضحكة عصبية ، وهو يتراجع مستطردًا :

ــ إنه ليس رأيى الشخصى ، بل هو مايردده الكبار

مط ناظر عزبة الباشا شفتيه ، وهو يقول :

ــ مولانا لايتأثر بهذه التفاهات .

هتف عمدة القرية :

ــ بالطبع .

كان من الواضح أن جوًا من التوتر والحذر قد ساد المكان ، مما دفع الحاج (البنهاوى) إلى محاولة تغيير مجرى الحديث ، قائلا :

(البنهاوى)

ــ ألا يعلم أحدكم متى ينعم مولانا بالألقاب على رعيته ؟

اتجهت العيون كلها إليه فى دهشة ، قبل أن يسأله العمدة فى حذر :

ــ ولماذا تسأل يا حاج ؟.. ألديك أية أنباء فى هذا الشأن ؟

هم الحاج (البنهاوى) بالنفى ، لولا أن اندفع (حسين) يقول فى زهو :

ــ بالطبع .. لقد بلغنا نبأ سعيد ..

ثم التفت إلى والده ، مستطردًا فى فخر :

ــ لقد تضمن كشف الإنعام اسم أبى الحاج (البنهاوى) .

وانتفخت أوداجه ، وهو يستطرد :

ــ سينعم عليه مولانا بلقب ..

وصمت لحظة ، ليخلق مزيدًا من الإثارة لعبارته ، وهو يدير عينيه فى الوجوه ، قبل أن يردف فى قوة :

ــ لقب (باشا) .

انحبست أنفاس الجميع ، وهم يحدقون فى وجهى (حسين) ووالده ، وقد احتقن وجه الأخير فى توتر ، وهو يختلس النظر إلى ابنه فى ضيق ، قبل أن يشق صوت المأمور جدار الصمت ، وهو يقول فى خفوت :

ــ سيشرفنا هذا بالطبع .

ثم نهض مستطردًا :

ــ أظن أنه ينبغى أن أنصرف ، فلدى الكثير من العمل .

هب الحاج (البنهاوى) هاتفًا :

ــ محال .. سيصل الطعام بعد لحظات .

ثم هتف بابنه :

ــ تعجل الطعام يا (حسين) .

لم تمض لحظات حتى كانت الموائد متخمة بالطعام ، وراح الجميع يأكلون فى صمت ، وقد خيم جو عجيب على المكان ، حتى انتهى الطعام ، فبادر الضيوف بالانصراف على الفور ، ولم يكد الطريق يجمع بين العمدة والمأمور ، على صهوة جوادين ، حتى قال الأخير فى سخرية وعصبية :

ــ (محمد البنهاوى) باشا ؟!.. ياللسخرية !

أجابه العمدة فى حنق :

ــ إنها دولة حمقاء .. تصور ياسيدى ، إنه جاء إلى هذه القرية منذ ربع القرن تقريبًا ، ممزق الثياب ، حافى القدمين .

قال المأمور فى حدة :

ــ ولكنه يمتلك اليوم ألف فدان ، بالإضافة إلى حدائق الفاكهة والموالح ، وسراى ينافس سراى عزبة الباشا .

واختلس نظرة جانبية إلى العمدة ، قبل أن يستطرد فى خبث :

ــ لن يدهشنى أن يرشح نفسه لمنصب العمدة فى العام القادم .

انتفض العمدة ، هاتفًا فى جزع :

ــ منصب العمدة ؟!.. مستحيل !!.

ثم أضاف فى حدة عصبية :

ــ هذا المنصب تتوارثه أسرتى منذ أجداد أجدادى .

قال المأمور فى دهاء :

ــ ولكن (البنهاوى) صار أكثر ثراء ، وسيصبح ابنه ضابطًا فى الجيش ، وبعد حصوله على لقب (باشا) ، لن تكون هناك صعوبة فى ..

قاطعه العمدة :

ــ مستحيل !!

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :

ــ لن يصبح هذا التافة عمدة أبدًا .

تابع المأمور ، وكأنه لم ينتبه إلى المقاطعة :

ــ ستنقلب الأمور تمامًا ، بعد أن يحصل على لقب (باشا) ، فبدلًا من أن يتودد هو إلى ، ويتقرب منى ، سيكون على أنا أن أسعى إليه وأخطب وده .

قال العمدة فى حزم :

ــ مالم ..

التفت إليه المأمور ، مغمغمًا فى دهشة :

ــ مالم ماذا ؟

أجابه فى توتر :

ــ مالم نمنع حصوله على لقب (باشا) .

أوقف المأمور جواده ، وسأل العمدة فى دهشة :

ــ وكيف يمكننا أن نمنع هذا .. إنه إنعام ملكى .

قال العمدة فى خبث :

ــ ولو .. هل ينعم جلالته على مناهضيه بالألقاب ؟

ازدادت حيرة المأمور ، وهو يقول :

ــ كلا بالطبع ، ولكن مامعنى هذا ؟ كلنا نعلم أن الحاج (البنهاوى) لم يناهض النظام الملكى أبدًا ، بل هو من كبار مؤيديه ومناصريه .

قال العمدة فى خبث :

ــ ولكن ابنه طالب فى الكلية الحربية .

حدق المأمور فى وجه العمدة لحظات ، ثم عقد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :

ــ اسمع يارجل .. لست أحب الألغاز .. أفصح عما لديك أو أصمت .

تنهد العمدة ، وهو يقول :

ـــ رويدك ياباشا .. ألم تتحدث عن أولئك الضباط ، الذين يطلقون على أنفسهم فى منشوراتهم اسم الضباط الأحرار ؟

سأله فى اهتمام :

ـــ بلى .. ماصلتهم بالأمر ؟

رفع العمدة أحد حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ لو ورد تقرير منى ، وآخر منك ، يشيران إلى صلة الحاج (البنهاوى) وولده بتنظيم الضباط الأحرار ، وعثر رجال البوليس السياسى على رزمة من منشورات هذا التنظيم فى سراى الحاج ، سيصبح الحاج من مناهضى النظام ، وسيستحيل أن يمنحه جلالة الملك لقب (باشا) ، أو حتى (بك) .

برقت عينا المأمور ، وهو يهتف :

ـــ يالك من داهية !!

ثم عاد يعقد حاجبيه ، مستطردًا :

ـــ ولكن من أين لنا بمنشورات تنظيم الضباط الأحرار ؟

أجابه العمدة مبتسمًا :

ـــ ألا تملك بعضها ؟

تنحنح المأمور ، وقال فى ضيق :

ـــ لا .. لست أملك أيا منها .. لقد سمعت بالأمر فحسب .

صمت العمدة لحظة مفكرًا ، ثم قال :

ـــ لابأس .. سنصنعها نحن .

هتف به المأمور :

ـــ هل جننت ؟.. أنطبع منشورات تنظيم مناهض ؟

هز العمدة كتفيه ، وقال :

ـــ ولم لا ؟

ثم أضاف فى انفعال :

ـــ من أجل الورود تسقى الأشواك ، ولدينا مطبعة ابن شقيقى فى المركز ، ويمكننا كتابة منشورات ساخنة ، تضمن إلقاء الحاج وابنه فى السجن لربع قرن على الأقل .

صمت المأمور بعض الوقت مفكرًا فى الأمر ، قبل أن يهز رأسه ، قائلًا :

ـــ ولكننا تناولنا الطعام فى منزل الرجل منذ ساعة واحدة .

أجابه العمدة فى غل :

ـــ أتحب أن تنتظر حتى يأتى يوم ، يلقى إلينا فيه فتات مائدته ؟

عقد المأمور حاجبيه ، وهو يقول فى حزم :

ـــ لا .. لست أحب أن يأتى مثل هذا اليوم .

ثم مد يده إلى العمدة ، مستطردًا :

ـــ اتفقنا ياعمدة .. سننفذ خطتك .

والتقت أكفهما ..

وتصافحا ..

ونام الشيطان هانئًا تلك الليلة ..

(مفيد)

* * *

« كيف تدعى أمر اللقب هذا ؟.. »

هتف الحاج (البنهاوى) بالعبارة الساخطة فى وجه ابنه (حسين) ، الذى ابتسم فى هدوء ، وقال فى شماتة :

ـــ هل رأيت وجوههم عندما قلت هذا ياأبى ؟.. أراهنك أن أحدهم لن يذوق طعم النوم الليلة .

صاح به الحاج محنقًا :

ــ ولكنك كذبت عليهم .. أنت وأنا نعلم أن روايتك كاذبة وأن جلالة الملك لم يسمع حتى باسمى .

اتسعت ابتسامة (حسين) ، وهو يقول :

ــ ولكننى أعددت كل شىء .

تدخل (حافظ) قائلًا :

ــ أرى يا أبى أن ..

قاطعه (حسين) فى صرامة :

ــ لاتقاطعنى .

بتر (حافظ) قوله فى خوف ، وانكمش فى مقعده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وقد علمه والده أن يحترم شقيقه الأكبر ويخشاه ، فى حين عقد (مفيد) شفتيه ، وأشاح بوجهه ، وقد قرر ألا يتدخل فى النقاش قط ، وعاد (حسين) يلتفت إلى والده متابعًا :

ــ لقد التقيت بكبير أمناء مولانا الملك ، وتناقشت معه فى أمر حصولك على اللقب يا أبى .

حدق الأب فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول :

ــ تقابلت معه ؟

أجابه (حسين) فى زهو :

ــ نعم .. لقد طلبت مقابلته ، بواسطة زميل لى فى الكلية الحربية ، يمت له بصلة القربى ، ولقد استمع إلى الرجل جيدًا ، وسألنى عنك وعن ثروتك ، ثم قرر أن الأمر ليس صعبًا كما تتصور .

جف حلق (البنهاوى) ، وغمغم فى انفعال واضح :

ــ أتعنى أنه من الممكن أن أحصل على اللقب ؟

لوح (حسين) بكفه ، وهو يقول فى غرور :

ــ بالطبع .

ثم ابتسم وهو يضيف :

ــ مقابل مبلغ بسيط .

جف حلق (البنهاوى) تمامًا ، وخفق قلبه على نحو لم يحدث من قبل ، عندما أضاف ابنه فى حزم :

ــ مقابل مائة ألف جنيه .

وانهار الحلم فى أعماق (البنهاوى) ..

* * *

٣ ـــ الأرض ..

(مديحة)

لم تكد تشرق الشمس ، حتى فتح (مفيد) نافذة حجرته ، واستنشق الهواء فى عمق ؛ ليملأ صدره بعبير الريف النقى ، ثم لم يلبث أن ارتدى ثيابه ، وانطلق وسط الحقول ، وهو يشعر بنشوة جارفة تملأ عروقه ، وسط الخضرة ..

كان على عكس شقيقه (حسين) ، يعشق الريف بأرضه وخضرته ..

يعبد هذه الأرض ، التى منحتهم الخير والثروة ..

ويحب ..

يحب (مديحة) ، ابنة عم (إسماعيل) ، المسئول عن رعاية مواشى العائلة ..

لم يكد يتذكرها ، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وبدت له الحقول الممتدة أمامه أشبه بروضة من رياض الجنة ، تملأ سماؤها بوجه (مديحة) الصبوح ، وابتساماتها المشرقة ..

إنه يحبها ..

يحبها من أعمق أعماق قلبه ..

ربما كانت هى السبب الحقيقى لحبه لقريته وأرضه ..

ولكن الجميع يقولون إنه ما زال طفلًا ..

كلهم يتعاملون معه كطفل ، على الرغم من تجاوزه السادسة عشرة من عمره بضعة أشهر ..

(مديحة) وحدها تراه رجلًا بالغًا ، خاصة وأنه يكبرها بعامين كاملين ..

وهى أيضًا طالبة ..

خفق قلبه عندما رآها من بعيد ، وهى تسير وسط الحقول ، ممسكة بكتابها ، كعادتها كل صباح ، فأسرع إليها كطير فرح ، وهمس بها فى هيام :

ـــ صباح الخير يا (مديحة) .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة تجمع بين الفرحة والحياء ، وهى تجيب :

ـــ صباح الخير يا (مفيد) بك .. كيف حالك ؟

ابتسم وهو يسألها فى حنان :

ـــ كيف حالك أنت ؟ هل اقتربت امتحانات نهاية العام ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـــ ستبدأ فى أول يوليو بإذن الله .

ابتسم مغمغمًا :

ـــ أمامك شهر كامل إذن .

ران عليهما الصمت لحظات ، قبل أن تسأله هى فى حياء :

ـــ وماذا عن امتحاناتك أنت ؟

هز كتفيه قائلًا :

ـــ ستبدأ فى نفس الموعد تقريبًا .

سألته فى اهتمام :

ـــ هل تفكر فى الالتحاق بالكلية الحربية ، مثل (حسين) بك ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال فى حزم :

ـــ مطلقًا .

سألته فى دهشة :

ـــ لماذا ؟

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ ربما لأن (حسين) إلتحق بها .

لم تدر ماذا يعنيه بإجابته ، ولكن صوته ولهجته وهو ينطق العبارة ، كانا يحملان شيئًا من البغض ، جعلها تشفق عليه فى أعماقها ، فتدبر دفة الحديث ، قائلة :

ـــ كيف حال (حسين) بك ، وحال شقيقاتك ؟

أجابها وكأنما الأمر لايعنيه :

ـــ (حسين) فى الكلية الحربية كما هو ، وسيتخرج بعد عام واحد ، و(نعيمة) فى بيتها مع زوجها ، وأظنها سعيدة لمجرد أنها تزوجت ، و(توحيدة) تستعد للزواج من ابن عمدة القرية المجاورة ، و(زينب) اكتفت بشهادة مدرسية بسيطة ، وكذلك (شريفة) و(ناهد) ، وكلهن يجلسن فى انتظار العريس.

أطرق برأسها ، وهى تقول فى حياد :

ـــ كل البنات يحلمن بعرسهن .

تأملها فى حنان ، وهو يقول فى همس :

ـــ حقًا !!.. كلهن ؟

ابتسمت فى خجل ، وهى تتمتم فى خفوت شديد :

ـــ تقريبًا .

ران عليهما الصمت طويلًا بعد كلمتها الأخيرة ، و(مفيد) يملأ عينيه بوجهها فى هيام ، حتى امتلأت نفسه فجأة بالشجاعة ، وقرر أن يصارحها بحبه ، فاعتدل وهو يقول فى جدية :

ـــ (مديحة) .. إننى ..

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع صوت أخته (زينب) تهتف به :

ـــ (مفيد) .. ماذا تفعل عندك ؟

ارتبك فى شدة ، ولعن ذلك التوقيت الذى تدخلت فيه (زينب) ، ورأى وجه (مديحة) يحمر خجلًا ، وهى تقول فى ارتباك :

ـــ شقيقتك تناديك .

ثم أسرعت تبتعد فى خطا مرتبكة متعثرة ، فى حين عادت (زينب) تهتف به :

ـــ (مفيد) .. إننى أخاطبك .

التفت إليها هاتفًا فى حدة :

ـــ ماذا تريدين ؟

ابتسمت فى خبث ، وهى تقول :

ـــ هل ضايقك أن قطعت حديثكما ؟

قال فى حدة :

ـــ دعك من هذا .. ماذا تريدين ؟

ظلت ابتسامتها تحمل طابع الخبث ، وهى تقول :

ـــ الحاج يطلبك فى السراى ، فلقد وصل (حسين) ، من (القاهرة) .

هتف فى دهشة :

ـــ (حسين) ؟!.. ولكن الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد .

هزت كتفيها قائلة :

ـــ ليس هذا من شأنى .. لقد وصل مبكرًا ، ويجلس مع الحاج ، ومعهم (حافظ) ، ولقد طلب منى الحاج أن أستدعيك لتشاركهم مجلسهم .

عقد حاجبيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـــ مجلسهم ؟!.. أمجلس حرب هو ؟

ضحكت قائلة :

ــ ربما ، فلقد وصل (حسين) بالزى الرسمى .

قالتها وراحت تسرع الخطا نحو السراى ، وهو يتبعها فى ضيق ، متسائلا فى أعماقه عن سر هذه الترتيبات المعقدة ، ولم يكد يبلغ السراى ، ويرى (حسين) وهو يقف وسط حجرة الضيوف شامخا ، بزيه الرسمى ذى الأزرار اللامعة ، حتى غمره الضيق ، فغمغم فى برود :

ــ مرحبًا يا (حسين) .. صباح الخير يا أبى ..

التفت إليه (حسين) فى غطرسة ، دون أن يجيب تحيته ، فى حين قال الحاج (البنهاوى) :

ــ صباح الخير يا (مفيد) .. اتخذ أنفسك مجلسًا ، فلدينا قضية ينبغى أن يناقشها الجميع .

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

ــ لست أرى داعيًا لذلك .

ــ التفت إليه الوالد ، قائلًا فى صرامة :

ــ إنه أمر يخص الجميع ، ولابد من مشاركتهم فيه .

اتخذ (مفيد) مجلسه ، وهو يقول فى ضيق :

ــ أى أمر هذا يا أبى ؟

أجابه (حسين) فى صرامة :

ــ سيحصل أبى على لقب (باشا) .. مارأيك ؟

رفع (مفيد) عينيه إليه فى تحد ، وهو يقول :

ــ وما الثمن ؟

عقد (حسين) حاجبيه فى غضب ، وكأنما لم يرق له أن يلقى أصغر أشقائه مثل هذا السؤال ، وقال فى حزم :

ــ مائة ألف جنيه .

خفض (حافظ) عينيه ، دون أن ينبس ببنت شفة كعادته ، فى حين هتف (مفيد) مستنكرًا :

ــ مائة ألف جنيه ؟ إنه مبلغ باهظ يا (حسين) .

أجابه (حسين) فى صرامة :

ــ اللقب يساوى ماهو أكثر من ذلك .

لوح (مفيد) بذراعه فى حدة ، وهو يقول :

ــ ولكن أبى لايملك هذا المبلغ حتمًا .

أجابه الحاج (البنهاوى) :

ــ إننى أملك سبعين ألفًا تقريبًا ، بما فى ذلك ثمن بيع القطن لهذا العام ، وسيحتاج الأمر إلى بيع مائتى فدان على الأقل .

تراجع (مفيد) ، هاتفًا فى ذعر :

ــ تبيع الأرض ؟!

ثم اندفع نحو والده ، وهو يستطرد :

ــ لا يا أبى لاتفعل هذا أبدًا .. لاتبع أرضًا .. الأرض هى الخير يا أبى .. هى كل شىء ..

قاطعه (حسين) فى حدة :

ــ هراء .. اللقب يساوى أرضنا كلها ، فبه وحده نحوز القوة والنفوذ .

ثم التفت إلى والده ، مستطردًا فى انفعال :

ــ ألا تعلم ماسيفعله اللقب ؟.. إنه سيدفع العمدة إلى التزلف لك ونيل رضاك .. بل إن مأمور الناحية نفسه سيصبح رهن إشارتك ، وسيقرب إليك علية القوم ، و......

قاطعه (مفيد) هذه المرة :

ــ ويسخرون من الرجل الذى باع أرضه فى سبيل لقب تافه .
صرخ (حسين) فى غضب :
ــ لقب تافه ؟!.. لقب (الباشا) لقب تافه ؟.. إنه أنت التافه المغرور .
هب (مفيد) صائحًا :
ــ لست أسمح لك ..
قاطعه صيحة الأب الهادرة :
ــ (مفيد) .
توقف بغتة ، والتفت إلى والده بوجه محتقن ، فاستطرد هـذا الأخير فى غضب :
ــ إياك أن تتحدث إلى شقيقك الأكبر بهذا الأسلوب أبدًا .. إياك أن تفعل .. حتى بعد موتى .. إياك أن تعصى أوامره .
احتقن وجه (مفيد) فى شدة ، وهو يقول :
ــ ولكن يا أبى ..
قاطعه بصيحة أخرى هادرة :
ــ إياك يا (مفيد) .
كان هناك بركان ثائر فى أعماق (مفيد) ، إلا أنه لم يجرؤ على التفوه بحرف واحد ، فعاد إلى مجلسه ، مغمغما فى حنق :
ــ كما تأمر يا أبى .
تألقت عينا (حسين) بابتسامة ظفر ، وافتر ثغره عن ابتسامة واثقة شامتة ، وهو يدير عينيه فى الوجوه ، قبل أن يقول الحاج فى ضيق :
ــ سيقول الناس حقًا إننى قد بعت أرضى من أجل اللقب ، وهذا لن يروق لى .
ابتسم (حسين) فى غرور ، وهو يقول :

ــ لن يقول مخلوق واحد هذا ؛ لأنك لن تبيع أرضك .
سأله الحاج فى دهشة :
ــ كيف سأحصل على المبلغ إذن ؟
اتسعت ابتسامته المغرورة ، وهو يقول :
ــ لقد تناقشت فى هذا الأمر مع كبير أمناء مولانا ، وتوصلنا إلى اتفاق جيد.
ومال إلى الأمام ، وهو يتابع فى زهو :
ــ إنك لن تبيع أرضك يا أبى .. ستهب مائتى فدان للخاصة الملكية ، ولن يجرؤ مخلوق واحد على التفوه بحرف ضدك بعد هذا .
تمتم (مفيد) فى حنق :
ــ ياللعقل الشيطانى !
التفت إليه (حسين) ، قائلًا فى حدة :
ــ ماذا تقول ؟
لوح بكفه ، قائلًا فى حنق :
ــ لاشىء .. لم أقل شيئًا .
تردد الحاج (البنهاوى) لحظات ، ثم قال :
ــ أظنه حلًا معقولًا ياولدى ، ولكنه يحتاج إلى موافقة شقيقيك .
التفت (حسين) إلى (حافظ) ، قائلًا فى صرامة :
ــ ما رأيك يا (حافظ) ؟
ارتجف (حافظ) ، وغمغم فى خوف واضح :
ــ كما ترى يا (حسين) .. كما ترى .
ابتسم (حسين) فى ظفر ، واستدار إلى (مفيد) ، يسأله فى صرامة :
ــ ما رأيك أنت ؟
أجابه (مفيد) فى تحد :

ـ لست أوافق .
ثم نهض مستطردًا :
ـ ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئًا .
أجابه (حسين) فى حدة :
ـ بالطبع .
لوح (مفيد) بكفه فى يأس وضيق ، فعقد (حسين) حاجبيه ، قائلًا فى صرامة :
ـ مازلت طفلًا ، تجهل الكثير من حقائق الحياة .
التفت إليه (مفيد) ، قائلًا :
ـ أحقًا ؟!.. وأنت أتدرك حقائق الحياة ؟
انتصب (حسين) فى اعتداد ، وأشار إلى صدره فى فخر قائلًا :
ـ بالتأكيد ، ولولا هذا ما التحقت بالجيش .
سأله (مفيد) بأسلوب استفزازى :
ـ وهل تعتقد أن هذا هو الاختيار الصحيح ؟
عقد (حسين) حاجبيه ، قائلًا :
بالتأكيد .. الجيش هو سيف البلاد ودرعها .
هتف (مفيد) فى سخرية :
ـ سيف البلاد ودرعها ؟!.. وماذا فعل جيشك الهمام هذا فى حرب (فلسطين) ؟
أجابه محتدًا :
ـ كانت الأسلحة فاسدة .
سأله فى تهكم :
ـ وماذا فعلتم عندما كشفتم هذا ؟
أشاح (حسين) بوجهه ، قائلًا فى صرامة :
ـ لاتسألنى عن هذا ، فلم أتخرج من الكلية الحربية بعد .

قال (مفيد) فى مزيد من السخرية :
ـ حقًا ؟!.. ماذا فعل جيشك إذن عندما احترقت (القاهرة) ؟
هتف (حسين) فى غضب :
ـ لاتتحدث عما لاتفهمه .
صاح به :
ـ وهل تفهم أنت معنى بيع الأرض ؟
صرخ الأب فى غضب :
ـ (مفيد) .. لقد حذرتك من التحدث مع شقيقك هكذا .
هتف (مفيد) محنقًا :
ـ حسنًا .. لن أتحدث إليه أبدًا ..
واندفع خارج الحجرة ، مستطردًا :
ـ ولتذهب الأرض كلها إلى الجحيم .
ران صمت ثقيل على الحجرة ، فى الثوانى التى أعقبت انصراف (مفيد) ، ثم هتف (حسين) فى غضب :
ـ هذا الفتى يحتاج إلى التهذيب .
غمغم الحاج :
إنه مايزال صغيرًا .
ثم خفض عينيه ، مستطردًا :
ـ لكن .. ستهب الأرض للخاصة الملكية ، ونستبدل بها اللقب .
تهللت أسارير (حسين) ، وهو يهتف :
ـ نعم القول والفعل يا أبى .
ولكن الحاج (البنهاوى) لم يبتسم ، ولم يشعر بالارتياح ..
لقد تخلى عن أرض جمعها بكفاحه ، وانتزعها من عرق حياته ..
وفى موضعها من قلبه تكونت غصة ..
غصة مؤلمة ..

* * *

٤ ــ المكيدة ..

تهللت أسارير (زينب) ، وهى تستقبل شقيقتها (نعيمة) فى سراى العائلة ، وضمتها إلى صدرها فى سعادة ، وهى تهتف :

ــ مرحبًا يا (نعيمة) ، مرحبًا بك فى منزلك .

قبلتها (نعيمة) ، وهى تقول فى رصانة رأت أن تصطنعها ، لتؤكد أنها الزوجة الوحيدة وسط شقيقاتها :

ــ لم يعد منزلى يا (زينب) .

ضربت (زينب) صدرها براحتها ، وهى تهتف :

ــ محال .. سيبقى منزلك مادامت أبوابه مفتوحة .

ثم ربتت على بطنها ، مستطردة فى مرح :

ــ أم أن ولى عهدك سيغير أفكارك .

أطلقت (نعيمة) ضحكة مزهوة ، وهى تقول :

ــ من يدرى ؟.. المهم أن يستعد الحاج لاستقبال أول أحفاده .

ثم انقلبت لهجتها إلى الجدية بغتة ، وهى تردف فى اهتمام :

ــ وبمناسبة الحديث عن الحاج .. أصحيح ماسمعته ؟

سألتها (زينب) فى خبث أنثوى :

ــ وما الذى سمعته ؟

زفرت (نعيمة) ، وهى تقول فى لهجة واضحة الاصطناع :

ــ سمعت من زوجى أن الحاج قد وهب مائتى فدان من أجود أرضه إلى الخاصة الملكية .

أجابتها (زينب) فى أسف :

ــ هذا صحيح ..

ضربت (نعيمة) صدرها براحتها ، وكأنما فاجأها الخبر ، وهتفت :

ــ وكيف يفعل أبى هذا ؟

تنهدت (زينب) ، وأجابتها :

ــ إنها مشورة (حسين) .

هتفت (نعيمة) :

ولماذا ؟

تنهدت (زينب) مرة أخرى ، وقالت :

ــ ليحصل أبى على لقب (باشا) .

هتفت (نعيمة) مستنكرة :

ــ لقب (باشا) ؟!.. أيتنازل والدى عن أرضه مقابل هذا ؟

.. ولماذا لم يسألنا رأينا ؟

أجابتها ساخرة فى مرارة :

ــ ومنذ متى يسألنا أحد رأينا ؟

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ــ ولكن زوجى يستنكر هذا تمامًا .

رفعت (زينب) حاجبيها فى دهشة ، وهى تقول :

ــ وماشأن زوجك بهذا ؟

غمغمت (نعيمة) فى عصبية :

ــ أليست أرض والدى بمثابة أرضى ؟

قالت (زينب) فى حدة :

ــ أرضك أم أرضه هو ؟

هزت (نعيمة) كتفيها ، وهى تقول فى عناد :

ــ لافارق بينى وبين زوجى ..

همت (زينب) بقول شىء ما ، لولا أن بلغت مسامعها أصوات ترحاب واستحسان ، فهتفت فى جذل :

ــ اصمتى .. لقد وصل عريس (توحيدة) ..

هتف (نعيمة) فى شغف :

ــ ابن العمدة ؟!

ثم أضافت فى لهفة :

ــ أريد رؤيته .

أسرعتا إلى باب حجرة صغيرة ، تصل مابين حجرتهن وحجرة استقبال الضيوف ، وانحنيتا تختلسان النظر عبر ثقب الباب فى صعوبة ، وتناهى إلى مسامعهما صوت الأب ، وهو يسأل العريس :

ــ كيف حالك ياولدى ؟.. وكيف حال زراعتك ؟

أجابه الشاب فى خجل :

ــ فى خير حال ياحاج .. شكرًا لك .

ثم تجرأ قليلًا ، وسأله :

ــ وكيف حال (توحيدة) ؟

ابتسم الأب ، وهو يقول :

ــ إنها بخير .. اطمئن .

اتسعت ابتسامة العمدة ، والد العريس ، وهو يسأل الحاج (البنهاوى) :

ــ ماقولك ياحاج .. ابنى يتعجل الزفاف .

ابتسم الحاج (البنهاوى) ، وقال :

ــ لامانع عندى ، فكل شىء على مايرام ، ولكن ..

هتف به العمدة فى استنكار :

ــ ولكن ماذا ياحاج ؟.. ألم تقل إن كل شىء على مايرام ؟

أجابه الحاج (البنهاوى) :

ــ بلى أيها العمدة ، ولكن من الضرورى أن نسأل (حسين) رأيه .

قال العريس معترضًا :

ــ وماشأن (حسين) ؟

انعقد حاجبا الحاج (البنهاوى) فى غضب ، وهو يقول فى صرامة :

ــ (حسين) هو ابنى الأكبر ، وهو صاحب الكلمة من بعدى .

قال العمدة ملطفًا الجو :

ــ فليمنحك الله (سبحانه وتعالى) طول العمر ياحاج ، ولكن رأيك هو الأول ، خاصة وأنه لايصح أن أنتظر أنا رأى (حسين) .

تردد الحاج (البنهاوى) لحظات ، ثم غمغم :

ــ صدقت .

واعتدل مستطردًا فى حزم :

ــ فليكن .. سيتم الزفاف يوم الخميس القادم بإذن الله .

ابتسمت (توحيدة) من خلف الباب فى سعادة وحياء ، على حين نسيت (زينب) أنها إنما تستمع إلى مايحدث خلسة ، فأطلقت زغرودة قوية ، تعبر بها عن سعادتها ..

وعمت الفرحة فى السراى ، حتى وصل (حسين) فى المساء ، ولم يكد يسمع بالأمر ، حتى عقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ــ كان ينبغى أن تستشيرنى أولًا ياأبى .

هتف الحاج (البنهاوى) مستنكرًا :

ــ أستشيرك ؟!.. أى قول هذا ياولدى ؟.. لقد كان العمدة بنفسه هنا ، وكان معه عمدة قريتنا ، ولم يكن من اللائق أن ننتظر مشورتك .

قال (حسين) فى صرامة :
ــ ربما لا يروق لى العريس يا أبى ..
أجابه والده فى حزم :
ــ لماذا ؟.. لقد وافقت عليه مسبقًا ، وهو ابن عمدة القرية المجاورة ، و.....
قاطعه (حسين) :
ــ لقد اختلفت الظروف يا أبى ..
كان (مفيد) يجلس صامتًا ، رافضًا التدخل فى الأمر ، إلا أن العبارة الأخيرة استفزته ، فقال ساخرًا :
ــ كيف ؟.. هل أصبحت الشمس تشرق من المغرب ؟
التفت إليه (حسين) قائلًا فى تحد :
ــ أكثر .
ثم عاد يلتفت إلى والده ، مستطردًا فى حزم :
ــ لقد أصبح لقب الباشا قيد خطوة واحدة منك يا أبى .. لقد التقيت اليوم بكبير الأمناء ، ونقدته مبلغ السبعين ألف جنيه ، ومستند هبة المائتى فدان للخاصة الملكية ، ولقد أدرج اسم (محمد البنهاوى) فى كشف الانعامات الملكية ، وسيصدر المرسوم الملكى بالإنعام عليك برتبة الباشوية فى أول أغسطس القادم ، وعندئذ ستتزوج ابنتك ابن وزير ، لا مجرد ابن عمدة قرية صغيرة .
تردد الحاج البنهاوى لحظات ، ثم قال فى حزم :
ــ ولكننى أعطيت العمدة كلمتى ، ولن أتراجع عنها أبدًا .
دلفت (شريفة) إلى الحجرة فى هذه اللحظة ، وهى واضحة التوتر والارتباك ، وقالت لوالدها ، وهى تفرك كفيها :
ــ أبى .. هناك بعض الرجال يريدون مقابلتك .

سألها فى دهشة :
ــ بعض الرجال ؟!.. من هم ؟
قبل أن تجيبه ابنته ، اقتحم الحجرة رجل ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، تشف ملامحه عن صرامة واضحة ، وخلفه عدد من الرجال قساة الملامح والوجوه ، فارتفع حاجبا الحاج فى دهشة ، وقفز (مفيد) من مقعده فى توتر ، فى حين انكمش (حافظ) فى مقعده خوفًا ، وهتف (حسين) فى غضب .
ــ ما هذا ؟.. كيف تقتحمون المكان هكذا ؟
سأله الرجل الصارم :
ــ أأنت (حسين البنهاوى) ، الطالب بالكلية الحربية ؟
أجابه فى حدة :
ــ هو أنا ، وهذا منزلى .. من أنتم ؟
تجاهل الرجل قوله ، وهو يشير للرجال المصاحبين له ، قائلًا فى حزم :
ــ فتشوا المكان .
اندفع الرجال يعيثون فى المكان فسادًا ، قبل أن يدرك (البنهاوى) أو أبناؤه ما يحدث ، وأسرعت (شريفة) تغادر المكان فى ذعر ، فى حين هتف (مفيد) فى غضب :
ــ إنك لم تجب عن السؤال ، من أنتم ؟
اعتدل الرجل ، وهو يقول فى صرامة :
ــ أنا الصاغ (إبراهيم مكى) من البوليس السياسى .
ازداد إنكماش (حافظ) فى مقعده ، وتجلى الرعب على وجهه ، وهتف (مفيد) فى ذهول :
ــ البوليس السياسى ؟!
أما (البنهاوى) ، فقد شحب وجهه فى شدة ، وسمع ابنه (حسين) يقول فى اضطراب واضح :

— وماشأن البوليس السياسى بنا ؟
أجابه الصاغ (إبراهيم) فى صرامة :
— ستعرف بعد لحظات .
اندفع إليه أحد رجاله ، فى اللحظة ذاتها ، وناوله رزمة أوراق ، وهو يقول :
— وجدنا هذه المنشورات ياسيدى .
شحب وجه الحاج فى شدة ، وغمغم (حسين) فى ارتياع :
— منشورات ؟!!
أما الصاغ (إبراهيم مكى) ، فقد تألقت عيناه فى ظفر ، والتفت إلى الحاج (البنهاوى) و(حسين) ، قائلًا فى صرامة شديدة :
— الحاج (محمد البنهاوى) ، وابنه (حسين البنهاوى) .. إننى ألقى القبض عليكما بتهمة التآمر على مولانا الملك .
وانطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى ..

* * *

٥ ـ الشَّماتة ..

أوقف العمدة والمأمور جواديهما ، أمام سراى (البنهاوى) ، وغمغم المأمور ، وهو يهبط عن صهوة جواده :
— أخف ابتسامتك يا عمدة ، فالحزن الذى تحاول رسمه على وجهك لم ينجح فى سترها .
أجابه العمدة فى خفوت :
— قلبي يعجز عن حجبها ياباشا .
قال المأمور فى صرامة ، وهو يتجه نحو باب السراى :
— حاول .
استقبلهما (عبد الحميد) ، العامل فى أرض (البنهاوى) ، وعيناه تسبحان فى بحر من الدموع ، وأسرع يفسح لهما الطريق إلى حجرة الضيوف ، حيث جلس (مفيد) واجمًا ، دامع العينين ، وإلى جواره شقيقه (حافظ) ، وقد انخرط فى بكاء حار ، ومعهما عدد من رجال القرية ، يواسونهما فى مصابهما ، ونهض (مفيد) يستقبل المأمور والعمدة ، فقال الأول ، وهو يصافحه فى قوة ، متظاهرًا بالجزع :
— ماذا حدث بالضبط ؟.. النبأ الذى بلغنى لم يحو الكثير من التفاصيل .
أجابه (مفيد) فى مرارة :
— لقد ألقى البوليس السياسى القبض على أبى و(حسين) .
هتف العمدة ، وهو يبذل أقصى جهده لرسم كمية هائلة من الدهشة على وجهه :
— البوليس السياسى ؟!.. لماذا ؟

كان صوت بكاء النسوة يصل إلى حجرة الضيوف عاليًا ، مما اضطر (مفيد) إلى رفع صوته بدوره ، وهو يجيب :

ـــ يتهمونهما بتأييد حركة الضباط الأحرار ، ولقد عثروا هنا على بعض منشورات هؤلاء الأحرار .

هتف المأمور :

ـــ عثروا على منشورات ؟!.. إذن فالتهمة صحيحة .

عقد (مفيد) حاجبيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـــ مستحيل ؟.. لقد كان أبى يسعى للحصول على رتبة الباشاوية ، فكيف يعادى نظامًا ، وهو يسعى ليصبح أحد أركانه .

هز العمدة كتفيه ، وهو يقول :

ـــ من يدرى ؟

كان قناع الحزن الذى يرسمه على وجهه قد سقط ، فبدت شماتته واضحة فى صوته وملامحه ، مما دفع (مفيد) إلى أن يقول فى صرامة :

ـــ هناك شىء يحيرنى ياعمدة .. لقد عثروا على المنشورات أسفل ذلك المقعد ، الذى كنت أنت تجلس عليه .

انتفض العمدة ، وهو يهتف :

ـــ ماذا تعنى ؟

قال (مفيد) فى برود :

ـــ ما الذى تتصور أننى أعنيه ؟

ارتسم غضب هائل على وجه العمدة ، وهتف فى ثورة :

ـــ هل تتهمنى بتلفيق التهمة لأبيك وشقيقك ؟

قال (مفيد) فى حدة :

ـــ من يدرى ؟

احتقن وجه العمدة ، وراح يرغى ويزبد ، ويسب (مفيد) فى ثورة غضب ، فصاح به المأمور فى صرامة :

ـــ كفى ياعمدة .

هتف العمدة :

ـــ ألم تسمع ما قاله ياباشا ؟

قال (مفيد) ساخرًا :

ـــ باشا ؟!.. ومتى حصل مأمورنا العظيم على رتبة الباشاوية ؟

احتقن وجه المأمور بدوره ، وهو يقول :

ـــ ماذا تقصد ياولد ؟

صاح به (مفيد) فى غضب :

ـــ لاتخاطبنى بكلمة (ولد) هذه .

بات من الواضح أن الموقف قد بلغ ذروة التوتر ، مما دفع الحاج (سعفان) أحد كبار القرية إلى التدخل ، هاتفًا :

ـــ كفى يا (مفيد) .. لاتغضب ياعمدة .. إهدأ ياسيادة البك المأمور .. لاأحد يقصد ما قاله الليلة .. إنها الأعصاب الثائرة فحسب .

اعتدل المأمور فى حدة ، وهو يقول :

ـــ إننى أكره التواجد مع من لايقيمون وزنًا لاعتبارات السن والمقام ؛ ولذلك فسأغادر المكان ، ولن أعود إليه حتى يعود صاحبه سالمًا بإذن الله .

ثم التفت إلى العمدة هاتفًا :

ـــ هيا ياعمدة .

هب العمدة ، قائلًا فى حنق :

ـــ هيا ياباشا .

قال (مفيد) مستفزًا :

ـ باشا مرة أخرى ؟

احتقن وجه المأمور غضبًا ، وهتف مرة أخرى :

ـ هيا يا عمدة .

ولم يكد يصل مع العمدة إلى باب السراى ، حتى التفت إلى (مفيد) ، وقال فى غضب صارم :

ـ ستدفع ثمن هذا .

أجابته نظرات (مفيد) الصارمة ، فاندفع يغادر المكان محنقًا ، وسمع الجميع وقع حوافر جواده وجواد العمدة يبتعدان ، فغمغم الحاج (سعفان) :

ـ كان ينبغى أن تتحكم فى أعصابك يا ولدى .

قال (مفيد) فى صرامة :

ـ كانا يستحقان هذا ، فهما شامتان فيما أصاب أبى وشقيقى .

غمغم الحاج (سعفان) :

ـ خيالك هو الذى صور لك هذا .

بدت له عبارته خاوية ، خالية من الحماس ، حتى أنها عجزت عن إقناعه هو نفسه ، فأضاف فى خفوت ، وهو يتنهد فى أسف :

ـ لقد أصبح الزمن رديئًا .

التفت (مفيد) إلى شقيقه (حافظ) ، الذى مازال يبكى فى حرارة ، وهتف به محنقًا :

ـ كفى يا (حافظ) .. إنك تولول كالنساء .

انحدرت كلمات (حافظ) مع دموعه ، وهو يقول :

ـ لقد أخذوا أبى يا (مفيد) .. أبى و (حسين) .

أجابه فى صرامة :

ـ إنها ليست نهاية العالم .

ربت الحاج (سعفان) على كتف (مفيد) ، وكأنما يعبر له عن إعجابه بصلابته ، التى تفوق سنوات عمره القليلة ، وقال :

ـ أظن أنه من الضرورى أن نذهب ـ أنت وأنا ـ غدًا إلى المديرية ، لنعرف ماذا حدث لوالدك وشقيقك .

غمغم (مفيد) :

ـ بل إلى (القاهرة) ، ما دام الأمر يتعلق بالبوليس السياسى ، فلست أظن المديرية كلها تعلم أين أبى و (حسين) الآن .

وتنهد فى عمق ، قبل أن يضيف :

ـ معذرة يا عماه .. سأذهب لحظات للاطمئنان على شقيقاتى .

هتف الحاج (سعفان) :

ـ بالطبع .. اذهب يا ولدى .. اذهب .

التفت (مفيد) إلى (حافظ) ، وقال فى صرامة :

ـ قلت لك كفى .

ولكن (حافظ) ظل يبكى بنفس الحرارة ، مما أثار حنق (مفيد) ، وهو يغادر حجرة الضيوف إلى جناح شقيقاته ، فغمغم :

ـ يا لها من عائلة !!.. شقيق متغطرس ، وآخر كالنساء .

لم يكد يدلف إلى جناح شقيقاته ، حتى رآهن وقد انخرطن جميعًا فى بكاء حار ، وعلى الأخص (شريفة) ، التى بدت أقرب إلى الانهيار ، فجلس على طرف فراشها ، وربت على كتفها فى حنان ، مغمغمًا :

ـ كفى يا (شريفة) .. سيعود الاثنان سالمين بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

رفعت عينيها الدامعتين إليه ، ثم عادت تنخرط فى بكاء شديد ، وهى تسند رأسها إلى يده ، فى حين هتفت (نعيمة) :

ـ ولكن زوجى يؤكد أنه ما من أحد يعود سالمًا ، ما دام الأمر يتعلق بالبوليس السياسى .

التفت إليها ، قائلًا فى غيظ :

ـ وأين هو زوجك ؟.. لماذا لم يأت ليزيدنا من خبرته وشجاعته ؟

توقفت دموعها بغتة ، وقالت فى غضب :

ـ هل تسخر فى مثل هذه الظروف يا (مفيد) ؟

قال فى حدة :

ـ بل أتساءل فحسب ، لماذا يكتفى هذا الهمام دومًا بمتابعة الأمور من الخارج ؟ لماذا خشى المجىء إلى هنا ؟.. أتحبين أن أخبرك أنا لماذا ؟.. لأن فارسك الهمام خاف أن يتهموه بأنه أيضًا يؤيد حركة الضباط الأحرار ، لو أنه أتى إلى هنا ، فى مثل هذه الظروف .

هتفت (نعيمة) فى غضب :

ـ (مفيد) .. احترم شقيقتك الكبرى .

صاح ثائرًا :

ـ لماذا ؟.. لمجرد أنها أكبرنا سنًا ؟

هتفت بهما (توحيدة) :

ـ كفى .. كفى شجارًا .. الأجدى أن نبحث عن وسيلة لاستعادة أبينا و (حسين) .

زفر (مفيد) فى قوة ، وهو يقول :

ـ صدقت .

ثم رفع عينيه إليها ، وغمغم مشفقًا :

ـ لقد تأجل زواجك بسبب هذا .

تفجرت الدموع فى عينيها ، وهى تهتف :

ـ فلأبق عانسًا عمرى كله ، ولا يقضى أبى ليلة واحدة فى سجنه .

تنهد فى يأس ، وهو يقول :

ـ سيعود الاثنان يا (توحيدة) .. سيعودان بإذن الله .

ولكنه فى أعماقه كان يشعر بالشك فى عبارته .. بالشك إلى حد اليأس ..

* * *

راح المأمور ينهال بالسباب على رأس (مفيد) ، طيلة الطريق من سراى (البنهاوى) إلى نقطة الشرطة ، حتى هتف به العمدة :

ـ كفى يا باشا .. إنه مجرد ولد صغير .

صاح المأمور فى غضب :

ـ ولكنه يحتاج إلى التهذيب .

رفع العمدة أحد حاجبيه فى خبث ، وهو يقول :

ـ ولم لا ؟

أدار المأمور عينيه إليه بنصف التفاتة ، ثم عاد يعتدل ، وهو يقول :

ـ ماذا يدور فى رأسك يا عمدة ؟

قال العمدة فى لهجة تقطر حروفها كلها دهاء :

ـ عملية تأديب بسيطة يا باشا .

ابتسم المأمور فى شغف ، وهو يقول :

ـ وهل ستحتاج إلى مطبعة ابن شقيقك أيضًا ؟

قال العمدة فى زهو :

ـ لا يا باشا .. إننى رجل أحب التجديد .

سأله المأمور فى اهتمام :

ـ ماذا تقترح هذه المرة إذن ؟

خفض العمدة صوته ، وهو يقول :

ـ سرقة مواش .

رفع المأمور حاجبيه ، وهو يكرر فى دهشة :

ـ سرقة مواش ؟!..

ثم التفت إليه مستطردًا :

ـ ومن سيصدق أن ابن (البنهاوى) يسرق المواشى ؟!

لوح العمدة بكفه ، قائلًا :

ـ كل الأبناء ينحرفون .

سأله فى حدة :

ـ ولكن لماذا ينحرف ؟.. لابد من سبب منطقى .

اتسعت ابتسامة العمدة ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا باشا .. اترك لى هذا ، وسيكون لديك سبب منطقى .

تطلع إليه المأمور لحظات فى صمت ، ثم غمغم :

ـ أتعلم أننى أصبحت أخشاك يا عمدة

هتف العمدة فى فخر ، وقد بدت له العبارة تقريظًا مناسبًا :

ـ حاشى لله يا باشا .. محال أن تمتد أناملى إلى التراب الذى تطؤه بقدمك .

غمغم المأمور فى حذر :

ـ ليست أناملك مايخيفنى يا عمدة ، فلقد برزت أنيابك فى عملية (البنهاوى) ، ويبدو أن نجاحك فيها قد حفز عقلك ، وأثار شهيتك لمزيد من الدماء ، فصرت تتفنن فى إيجاد وسائل التدمير وابتكارها .

غمغم العمدة فى خبث :

ـ تلميذك يا باشا .

ابتسم المأمور ، وفتل شاربه الضخم ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك تكره (البنهاوى) كثيرًا يا عمدة .

قال العمدة فى حقد واضح :

ـ لقد دخل قريتنا فقيرًا معدمًا ، ولن يغادرها إلا وهو كذلك يا باشا .

والتمعت عيناه ببريق الشر ، وهو يستطرد :

ـ هذا وعد منى ..

* * *

٦ — السجن ..

ارتجف (حسين) فى شدة ، وراح يقاوم رغبته فى البكاء ، وهو يجلس فى ركن تلك الزنزانة الرطبة الضيقة ، التى ألقاه فيها رجال البوليس السياسى مع والده ، وانهارت كل الآمال العريضة ، التى رسمها لحياته ، فى أعماقه ، وراح يندب ذلك الحظ السيئ ، الذى ألقاه فى هذا المكان ، بعد أن صار قاب قوسين أو أدنى من القوة والسطوة ..

وانطلق عقله يبحث عن تفسير لما حدث ..

إنه بالتأكيد لايؤيد حركة الضباط الأحرار هذه ..

ليس لأنه يرفضها ، أو لأنه يؤيد النظام الحالى ، بل لأنه — وبكل بساطة — لايدرى عنها أكثر مما سمعه من المأمور ، ليلة زفاف (نعيمة) ..

إنه حتى يجهل تمامًا كيف وصلت تلك المنشورات إلى السراى !!..

إن والده لايؤيد الضباط حتمًا ..

ولا (حافظ) بالتأكيد ..

أيحتمل إذن أن يكون (مفيد) هو صاحب المنشورات ؟!

بدا له ذلك الخاطر فجأة منطقيًا ، متناسبًا مع شخصية (مفيد) الثائرة ، وعناده التقليدى ، فانتابه شعور بالحنق الشديد ، مع تصوره أن (مفيد) صاحب تلك المنشورات ، وأنه تركه ووالده يدفعان ثمن وجوده ..

والده ..

ترى كيف هو الآن ؟..

رفع عينيه إلى حيث انكمش والده ، فى الركن المقابل للزنزانة ، وهاله أن يرى كل هذا الشحوب والامتقاع على وجه الرجل ، فنهض من مكانه ، واتجه إليه ، مغمغمًا :

— سينتهى كل شىء على مايرام ياأبى ، بإذن الله ، إننا أبرياء ، ولن يلبث رجال البوليس السياسى أن يتبينوا هذا .

رفع إليه الحاج (النهاوى) عينين زائغتين ، وهو يغمغم فى انهيار :

— بعد كم من السنين ؟

ثم ظفرت من عينيه دمعة يأس ، وهو يستطرد :

— كل شىء ضاع : الأرض ، والأموال ، واللقب .. حتى العمر والحرية .. كل شىء ضاع .

هتف (حسين) فى مرارة :

— لاتقل هذا ياأبى .. لاتقل هذا .. سنغادر هذا المكان ، وسنعود إلى الأرض والمال ، و......

قاطعه صوت ساخر يقول :

— كم يروق لى أن أرى شخصًا متفائلًا هنا .

اقترن الصوت بفتح باب الزنزانة ، وظهور جندى على عتبته ، استطرد بنفس اللهجة الساخرة :

— هيا لنختبر دقة تفاؤلك أيها الهمام ، فسيادة الصاغ (إبراهيم مكى) يطلب رؤيتك .

نهض (حسين) فى توتر ، وبدا جسده يرتجف بالفعل ، وهو يغمغم :

— وماذا عن أبى ؟

ألقى الجندى نظرة سريعة على الأب المسكين ، الذى انكمش فى ركن الزنزانة ، واكتفى ببكاء صامت يائس ، ثم قال فى سخرية :

— لاتقلق .. سيأتى دوره عما قريب .

ودفع (حسين) أمامه فى عنف ، مستطردًا :

— هيا .. سيادة الصاغ لايحب الانتظار طويلًا .

راح يدفعه فى قسوة وامتهان ، عبر ممر طويل ، حتى وصلا إلى مكتب ضخم ، طرق الجندى بابه ، ثم دخل إليه وأمامه (حسين) ، وأدى التحية العسكرية للصاغ (إبراهيم مكى) الذى يجلس خلف مكتبه فى عظمة ، وقال :

ــ السجين (حسين البنهاوى) ياسيدى .

قال الصاغ (إبراهيم) فى برود :

ــ أتركه واذهب .

أدى الجندى التحية العسكرية مرة أخرى ، فى مزيد من الصخب ، وهو يدق كعبيه بعضهما ببعض فى قوة ، قبل أن يغادر الحجرة فى سرعة ، ويغلق بابها خلفه فى إحكام ، فى نفس اللحظة التى غمغم فيها (حسين) :

ــ السجين ؟!

ابتسم الصاغ (إبراهيم) فى سخرية ، وهو يقول :

ــ ألم يرق لك اللقب ؟

أجابه (حسين) فى خفوت :

ــ كنت أفضل لقب (المتهم) بالتأكيد ، فهو يمنح شعورًا بالأمل فى البراءة ، أما لقب (السجين) ، فيوحى بأن الحكم قد صدر بالفعل .

تأمله (إبراهيم) فى صمت لحظات ، ثم قال :

ــ اجلس يا (حسين) .

تردد (حسين) فى شك ، فكرر (إبراهيم) فى حزم :

ــ اجلس .

جلس (حسين) على المقعد المواجه للمكتب ، وراح يتطلع إلى (إبراهيم) فى حذر ، فابتسم هذا الأخير ، وكأنما يحاول أن يبث فى نفس (حسين) بعض الاطمئنان ، قبل أن يقول :

ــ أنت طالب بالكلية الحربية .. أليس كذلك ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا ، وازدرد لعابه فى صوت مسموع ، قبل أن يجيب :

ـ بلى .

مال (إبراهيم) نحوه ، وسأله بغتة :

ـ ما معلوماتك عن الضباط الأحرار ؟

هتف (حسين) ، وكأنما كان يتوقع هذا السؤال وينتظره :

ـ أقسم بالله إننى لا أعلم عنهم شيئًا ، أكثر مما يردده البعض ، وأقسم بكل عزيز لدى ، إننى وأبى من مؤيدى مولانا الملك المعظم ، وأن تلك المنشورات ، التى وجدتموها فى السراى مدسوسة علينا ، و.....

قاطعه (إبراهيم) :

ـ إنها منشورات زائفة .

حدق (حسين) فى وجهه فى ذهول ، قبل أن يهتف بكل ما دفعته العبارة فى نفسه من أمل :

ـ زائفة ؟!

أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابًا ، وقال فى هدوء :

ـ كل شىء فيها زائف على نحو واضح للغاية ، فلم يلتزم مزيفها بنوع الورق ولا الأسلوب ، ولا حتى شكل الحروف .. إنها مزيفة من أولها إلى آخرها .

هتف (حسين) فى فرحة :

ـ إذن فأنتم تعلمون أننى وأبى بريئان .. حمدًا لله .

ابتسم (إبراهيم مكى) فى سخرية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، واكتفى بمراقبة فرحة (حسين) ، الذى استطرد فى لهفة :

ـ ستطلقون سراحنا إذن .. أليس كذلك ؟

أجابه (إبراهيم) فى هدوء :

ـ الأمر ليس بمثل هذه السهولة .

تهاوى الأمل فى أعماق (حسين) بغتة ، وشحب وجهه ، وهو يسأل :

ـ لماذا ؟.. ألم تتأكدوا من أننا بريئان ؟

مط (إبراهيم) شفتيه ، وقال :

ـ فى مهنتنا هذه لا تسير الأمور بتلك البساطة يا (حسين) ، فمن السهل على أى منا أن يصدر قرارًا باعتقال شخص ما ، ولكن من العسير أن تصدر قرارًا بالإفراج عنه ، حتى ولو ثبتت براءته .

ازداد شحوب (حسين) ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟.. أليس من المنطقى أن ..

قاطعه (إبراهيم) فى صرامة :

ـ الفارق الوحيد بالنسبة لك ولوالدك هو أننا لن نستجوبكما ، وصدقنى .. سيوفر لكما هذا الكثير .. من كرامتكما على الأقل .

ثم ابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يستطرد :

ـ الواقع أنكما محظوظان يا (حسين) .

ردد (حسين) فى ذهول :

ـ محظوظان !!

وتجمعت فى عينيه دمعة كبيرة ، عجز عن كبتها هذه المرة ، وهو يقول :

ـ ماذا سيكون مصيرى ومصير أبى إذن ؟!

هز (إبراهيم) كتفيه ، قائلًا :

ـ ستبقيان معنا بعض الوقت .

سأله فى انهيار :

ـ إلى متى ؟

هز كتفيه مرة أخرى ، وابتسم ابتسامة أقرب إلى الجذل ، وهو يغمغم :

ـ من يدرى ؟

وخيل لـ (حسين) أنه يهوى فى حفرة ..

حفرة عميقة ..

رهيبة ..

فى بئر لا قرار لها ..
ولا أمل فى النجاة منها ..

* * *

لم يكن (مفيد) أبدًا ممن ينبهرون بـ (القاهرة) ، مثلما يفعل سكان الريف عادة ، ومثلما بدا الحاج (سعفان) ، الذى يرافقه فى رحلته ، منذ توقف بهما القطار القادم من (طنطا) ، فى محطة (مصر) ..

فـ (مفيد) مازال كما هو ، يعشق الريف بأرضه وخضرته ..

وبـ (مديحة) ..

ثم إن ضخامة (القاهرة) لم تكن الشىء الذى يشغل بال (مفيد) ..

بل كان كل مايفكر فيه هو البحث عن والده وشقيقه ..

ولهذا لم يضع لحظة واحدة ، فاستقل واحدة من سيارات الأجرة ، وهتف بسائقها :

ــ البوليس السياسى .

بسمل السائق وحوقل ، واستعاذ بالله (سبحانه وتعالى) من شياطين الإنس والجن ، وانطلق فى طريقه لاعنا حظه السيئ ، الذى سيذهب به إلى ذلك المكان ، الذى يخشى كل مصرى مجرد المرور من أمامه ، فى حين راح (مفيد) يسأل الحاج (سعفان) فى المقعد الخلفى للسيارة :

ــ أتظننا سنجدهما يا حاج ؟

تردد الحاج (سعفان) لحظة ، ثم أجاب فى خفوت :

ــ فليفعل الله مافيه الخير يا ولدى .

قال (مفيد) فى أمل :

ــ سيرشدوننا إلى مكانهما على الأقل :

سأله السائق فى حذر :

ــ هل اعتقل البوليس السياسى أحد أقاربك ؟

أجابه (مفيد) :

ــ نعم .. أبى وشقيقى .

زفر السائق فى أسف ، وهو يقول :

ــ لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .. شد حيلك يا ولدى .

شحب وجه (مفيد) ، وهو يغمغم :

ــ هل تعلم شيئًا عن مثل هذه الأمور ؟

هتف السائق ، وكأنما ينفى عن نفسه تهمة بغيضة :

ــ لا .. لست أعلم شيئًا .

سأله (مفيد) مرة أخرى :

أتظننا سنجدهما ؟

كرر السائق فى رعب :

ــ لست أدرى .. لست أدرى .. لست أعلم شيئًا .

وأطبق شفتيه بعدها ، فلم ينبس بحرف واحد ، حتى وصلت السيارة إلى المبنى المنشود ، فراح يرمقه فى خوف ، حتى هبط (مفيد) والحاج (سعفان) من السيارة ، ونقده (مفيد) أجره ، فانطلق بالسيارة وكأنما يفر من شياطين الدنيا كلها ..

واتجه (مفيد) فى ثبات إلى حارس البوابة ، وقال :

ــ أريد مقابلة الصاغ (إبراهيم مكى) .

تطلع الحارس فى استهتار وسخرية إلى ذلك الفتى اليافع ، الذى يقف أمامه فى ثبات ، وسأله :

ــ تريد مقابلته ؟!.. أأنت قريب له ؟

أجابه (مفيد) بنفس الثبات :

ـ بل أريد أن أسأله عن أبى وشقيقى .

سأله الحارس :

ـ وما شأنه بهما ؟

أجابه فى حزم :

ـ لقد اعتقلهما أمس ، و.....

هتف الحارس مقاطعًا :

ـ اعتقلهما ؟! وتريد أن تسأله عنهما ؟!

قال (مفيد) :

ـ نعم .. وماذا فى هذا ؟

دفعه الحارس بكعب بندقيته ، وهو يقول فى غلظة :

ـ اذهب يافتى .. اذهب .

هتف به (مفيد) :

ـ كيف أذهب ؟.. لقد أتيت أسأل عن أبى وشقيقى ، و.....

صاح به الحارس فى خشونة ، وهو يدفعه مرة أخرى بعيدًا :

ـ قلت لك اذهب .

قال (مفيد) فى عناء :

ـ وماذا لو لم أفعل ؟

أدهشه أن صوب الحارس فوهة بندقيته إلى صدره ، وهو يقول فى قسوة :

ـ حاول ، وستخترق رصاصتى قلبك ، فالأوامر لدى تحتم اتخاذ هذا الأسلوب ، مع كل من يحاول الدخول إلى هنا عنوة .

أمسك الحاج (سعفان) كتفى (مفيد) ، وجذبه إلى الخلف ، وهو يقول فى مرارة :

ـ تعال ياولدى .. من الواضح أن هذا الطريق مسدود فى وجوهنا ، وأننا قد فقدنا أثر والدك وشقيقك .

غمغم (مفيد) ، وهو يبتعد عن المبنى فى ألم :

ـ نعم .. لقد فقدناهما .. فقدناهما .

وسالت من عينيه الدموع ..

* * *

٧ – الاتهام ..

كان قرص القمر يتوسط سماء صافية، انتشرت فيها نجوم لامعة كالدرر، عندما تسللت (مديحة) من منزلها، وراحت تحث الخطا وسط الحقول الخضراء، فى طريقها إلى حيث شجرة الصفصاف الكبيرة، على حافة أرض (البنهاوى)..

لم تكن أول مرة تتسلل فيها من منزلها فى مثل هذا الوقت ..

ولا أول مرة تذهب فيها إلى حيث شجرة الصفصاف ..

وفى أعماقها كانت تشعر بسعادة كبيرة ..

سعادة عاشقة صغيرة، لم تتجاوز منتصف سن المراهقة بعد ..

وعند جذع شجرة الصفصاف، كان (مفيد) ينتظرها ..

ولقد استقبلها فى لهفة وحب حقيقيين ..

وعندما تشابكت أصابعهما، كان قلباهما يخفقان فى حنان وهيام، وكانت حمرة الخجل تكسو وجه (مديحة) كله، وهى تغمغم :

– كيف حالك ؟

همس (مفيد) :

– كيف حالك أنت ؟

لم يجب أيهما السؤال، فقد كانا يعلمان أنه مدخل لتهدئة لواذع قلبيهما الصغيرين، ومفتاح لبدء الحديث بينهما ..

ولقد عاونها (مفيد) على الجلوس عند جذع الشجرة، وسألها فى حنان :

– هل أنهيت امتحاناتك ؟

أومأت برأسها إيجابًا، وهى تقول :

– نعم .. لقد انتهيت منها اليوم .

ثم سألته فى لهفة :

– وماذا عنك ؟

ابتسم مجيبًا :

– بقى أمامى اختبار واحد .

غلفهما الصمت لحظات بغلافه الرقيق، الذى يبدو فى قلوب العاشقين أبلغ من قصائد شعر ودواوين غزل، وراح هو يتأمل وجهها الصبوح، وقد غلفه ضوء القمر بغلالة فضية صافية، زادت من بهائه وحسنه، فاحمرت وجنتاها خجلًا، وزادها هذا فتنة، فخفضت عينيها فى حياء، مغمغمة :

– أما من أخبار عن الحاج و(حسين) بك ؟

لم تكد تنطق بسؤالها، حتى شملتها موجة قوية من الندم، فقد ارتسم الحزن على ملامحه كلها، وغمغم فى مرارة :

– لا.. لقد حاولنا أن نعثر على أثر لهما، ولكننا عجزنا .

ربتت على كتفه متعاطفة، وسألته :

– ألا يعلم أى مخلوق أين ذهبا ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ الجميع يؤكدون أنه ما من وسيلة لمعرفة مكانهما ، سوى البوليس السياسى نفسه ، ولقد عجزت عن الوصول إلى الصاغ (إبراهيم مكى) ، الذى اعتقلهما من السراى ، ويقينى أنه الوحيد الذى يمكنه إرشادى إليهما .

تمتمت مشفقة :

ـــ وما وقع هذا على السراى ؟

زفر فى مرارة ، وأجاب :

ـــ كل الأمور مقلوبة ، فـ (حافظ) يكاد يكون منهارًا ، إذ أنك تعلمين شدة ارتباطه بأبى ، و (نعيمة) تركت منزلها تقريبًا لتقيم معنا ، وهى تشارك أخواتى الأخريات فى بكائهن المتواصل ليل نهار ، أما زوج (نعيمة) فما زال يتحاشى زيارتنا ، على عكس خطيب (توحيدة) ، الذى يهتم بأحوالنا كثيرًا .

سألته فى حنان :

ـــ وماذا عنك أنت ؟

رمقها بنظرة امتنان ، وكأنما يشكر لها سؤالها عنه ، وغمغم :

ـــ أحاول احتمال الموقف .

غمغمت وهى تربت على كتفه مرة أخرى فى حنان :

ـــ أنت دائمًا قادر على الاحتمال .

تطلع إلى عينيها فى حب ، وتسللت أصابعه تحتضن أصابعها الرقيقة ، و.....

وفجأة ، دوى طلق نارى بعيد ، ارتجف له جسداهما ، وهتفت هى فى رعب :

ـــ ما هذا ؟

عقد حاجبيه ، وهو يتطلع إلى حيث دوى الطلق النارى ، وقال :

ـــ لست أدرى .

تعاقبت الأعيرة النارية فى الهواء ، على نحو يوحى بحدوث أمر جلل ، مما جعل (مديحة) تهتف مذعورة :

ـــ رباه !.. ماذا يحدث ؟

أجابها فى صلابة ، تفوق سنوات عمره بكثير :

ـــ لا تقلقى .. عودى إلى منزلك على الفور ، ولا تغادريه .

أسرعت تعدو عائدة إلى منزلها القريب ، وسط أرض (البنهاوى) ، وتابعها هو ببصره فى اهتمام ، حتى اطمأن إلى وصولها إلى المنزل ، على ضوء القمر المكتمل الاستدارة ، ثم أسرع نحو السراى ، ولم يكد يبلغها ، حتى استقبلته (شريفة) ، وهى تسأله فى خوف :

ـــ ماذا هناك ؟

هز رأسه ، مغمغمًا :

ـــ لست أدرى .. ربما هى محاولة سرقة ، أو شىء من هذا القبيل .

أسرعت إليهما (ناهد) من الداخل ، تقول فى قلق :

ـــ ادخلا إلى المنزل ، فقد يصيبكما عيار طائش .

أسرع الثلاثة إلى داخل السراى ، وران الصمت فى الخارج ، بعد أن توقفت الأعيرة النارية ، فقالت (توحيدة) فى خفوت :

ـــ ترى من يسرق من ؟

أجابها (مفيد) :

ـــ لن نلبث أن نعلم كل التفاصيل ، عندما تشرق شمس الغد ، فالأخبار تنتشر فى قريتنا فى سرعة .

هتفت (ناهد) فى ضيق :

ـــ هل سننتظر حتى الغد ؟

رمقها (مفيد) بنظرة استنكار ، ثم التفت إلى (توحيدة) يسألها :

— كيف حال (حافظ) ؟

أجابته وهى تتنهد فى عمق :

— حاله تقلقنى .. فهو لايتناول سوى النذر اليسير من الطعام ، ويبكى طيلة الوقت تقريبا .

قال فى ضيق :

— كم يضايقنى ضعفه هذا !.. ينبغى أن يتماسك قليلًا كرجل .

قالت محاولة إيجاد مبرر :

— أنت تعلم شدة تعلقه بأبى .

قال معترضًا :

— هذا ليس مبررًا .

تناهى إلى مسامعهما — فى تلك اللحظة — وقع حوافر عدد من الخيول ، يقترب من السراى ، فقالت (شريفة) فى قلق :

— يارب خيرًا .

وهتفت (ناهد) :

— ترى هل يتعلق قدومهم بطلقات النيران ؟

سمع الجميع الخيول تتوقف أمام باب السراى مباشرة ، فهتف (مفيد) :

— (عبد الحميد) .

أسرع إليه (عبد الحميد) ، بزيه الرث ، ونحوله الشديد ، فاستطرد :

— فلتر من بالباب .

غاب (عبد الحميد) لحظات ، ثم عاد يقول :

— البك المأمور يطلب رؤيتك ياسيدى (مفيد) .

قال (مفيد) فى قلق :

— رؤيتى أنا ؟

واتجه إلى حجرة الضيوف معقود الحاجبين ، ولم يكد يلجها ، حتى رأى العمدة والمأمور وبعض جنود الشرطة والخفراء ، وقد بدت الصرامة فى وجوههم جميعًا ، فقال :

— مرحبًا بكم .. خيرًا .

أجابه المأمور فى صوت صارم :

— جرت منذ لحظات محاولة لسرقة مواشى العمدة .

سأله (مفيد) فى هدوء :

— أكان هذا سبب تلك الأعيرة النارية ، التى انطلقت منذ قليل ؟

أجابه العمدة بابتسامة غامضة :

— نعم .. هو السبب طبعًا .

رمقه (مفيد) بنظرة باردة ، وقال :

— وماشأنى أنا بهذا ياسيادة المأمور ؟

قال المأمور بنفس الصرامة :

— لقد طارد خفراء العمدة السارقين ، ونجحوا فى إلقاء القبض على أحدهم.

عاد (مفيد) يسأله بنفس البرود :

— وماشأنى بهذا أيضًا ؟

رماه المأمور بنظرة طويلة أشد برودًا ، قبل أن يلتفت إلى أحد جنوده ، قائلًا فى صرامة :

أحضر اللص .

ظل (مفيد) ثابتًا هادئًا ، محتفظًا بكل قلقه وتساؤلاته فى أعماقه ، حتى عاد الجندى باللص ، ودفعه داخل الحجرة ، فتطلع إليه (مفيد) فى حيرة ، وأيقن من أنه لم ير وجهه قط من قبل ، ولهذا كانت دهشته عارمة ، عندما رفع اللص عينيه إليه ، وهتف :

ــ (مفيد) بك .. أنقذنى .

هتف (مفيد) فى دهشة :

ــ أنقذك ؟!.. هل أعرفك يارجل ؟

صاح اللص :

ــ تعرفنى ؟!.. هل تريد التخلى عنى يا (مفيد) بك ؟.. ألست أنت من أمرنا بسرقة المواشى ؟

تراجع (مفيد) كالمصعوق ، وهو يهتف :

ــ أنا ؟

ارتسمت على شفتى العمدة ابتسامة متشفية ، وهو يقول :

ــ لقد اعترف الرجل يا (مفيد) .

رفع (مفيد) عينيه إلى وجهى العمدة والمأمور ، وفهم اللعبة كلها من ابتسامتهما على الفور ، فعقد حاجبيه ، هاتفًا :

ــ يالكما من لعينين !! ولكن خطتكما لن تفلح أبدًا !

هتف اللص :

ــ ولكن لماذا تنكر يا (مفيد) بك ؟.. لقد اعترفت أنا لأريح ضميرى .. أنت كنت معنا فى أثناء السرقة .

صاح به (مفيد) فى غضب :

ــ كذبت أيها اللعين !!

سأله المأمور فى صرامة :

ــ أين كنت إذن ، عندما انطلقت الأعيرة النارية ؟

لم ينبس (مفيد) ببنت شفة لحظات ..

لقد استعاد ذهنه الموقف فى سرعة ..

لقد كان مع (مديحة) عندما انطلقت الأعيرة النارية ..

كان معها عند جذع شجرة الصفصاف ..

ولكن من المستحيل أن يذكر ذلك للمأمور ..

لن يفضح الإنسانة التى أحبها أبدًا ..

وبكل صلابة ، قال :

ــ كنت أتنزه وحدى وسط الحقول .

هتف اللص :

ــ بل كنت معنا نسرق المواشى ، بناء على خطة وضعتها أنت .

صاح به (مفيد) :

ــ خسئت أيها الحقير !! كيف تتهمنى باتهام وضيع كهذا ؟!.. لماذا ألجأ إلى سرقة مواشى العمدة ، ووالدى يمتلك أضعاف أضعافها ؟

أجابه المأمور بابتسامة ساخرة شامتة :

ــ حتى لايعلم والدك كم تنفق على لعب القمار .

هتف (مفيد) :

ــ القمار ؟!.. أى قمار ؟

أجابه العمدة فى دهاء :

ــ القمار .. الميسر يافتى .. إن لدينا شهودًا على أنك تدمنه ، وتتسلل من منزلك يوميًا ؛ تمارسه مع شلة من أدنى فئات المجتمع ، ومن بينهم هذا اللص ، وأنك تخشى أن يدرك والدك ماتفعله ، عندما تطالبه بنقود لتغطية خسائرك الباهظة ؛ لذا فلم يكن لديك سوى سرقة المواشى وبيعها ، لتغطية نفقاتك .

قلب (مفيد) شفتيه فى امتعاض ، وهو يقول :

ــ شهود وخطة ودوافع .. لقد تحالفتما مع الشيطان حقًا هذه المرة .

ابتسم المأمور فى سخرية ، وهو يقول :

ــ كف عن تلك السفسطة يافتى .. لقد وقعت هذه المرة ، وأنا ألقى القبض عليك بتهمة السرقة ..

ومرة أخرى ، انطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى ..

* * *

٨ ــ الانهيار ..

« لماذا يارب ؟.. لماذا ؟.. » .

هتف الحاج (البنهاوى) بهذه العبارة ، بكل مايملأ نفسه من ألم ويأس ومرارة وإحباط ، ثم لم تلبث الدموع أن تفجرت فى عينيه ، وغمرت وجهه ، الذى كسته لحية نمت مع قلة العناية والاهتمام ، فاقترب منه ابنه (حسين) ، وغمغم فى تعاطف مرير :

ــ رويدك يا أبى .. إننا مظلومان .. الجميع هنا يعلمون هذا .

هتف الحاج (البنهاوى) فى ألم :

ــ لافائدة ياولدى .. لافائدة .

وعادت الدموع تغرق وجهه ، وهو يستطرد :

ــ لقد خسرت كل شىء .. خسرت كل ماربحته ، وكل ماحلمت به طيلة عمرى .. إننا هنا فى جحيم أرضى ياولدى .. فى قبر يدفن فيه الأحياء .

قال (حسين) محاولاً تهدئته :

ــ لا يا والدى .. إننا سنخرج من هنا قريبًا .. قريبًا جدًا .

هز الحاج (البنهاوى) رأسه فى يأس ، وهو يقول :

ــ لاتحاول خداع نفسك بهذا ياولدى .. أنت تعلم مثلى أن من يدخل إلى هنا لايخرج أبدًا .. أنت تعلم هذا .

تراجع (حسين) مغمغمًا فى ارتياع :

ــ لا يا أبى .. لاتقل هذا .. لاتقل هذا .

والتصق بجدار الزنزانة ، مستطردًا :

ــ لاتحطم أحلام عمرى كلها بهذه البساطة .

غمغم (البنهاوى) فى مرارة :

ــ أحلام عمرك ؟!

ثم رفع عينيه إليه ، مستطردًا فى انهيار :

ــ حتى الأحلام صارت سجينة هنا ياولدى .. حتى الأحلام .

* * *

أطلق المأمور ضحكة ظافرة عالية ، وهو يدق بيده على فخده ، هاتفًا :

ــ رائع ياعمدة !! أنت فعلاً عبقرى .. عبقرى كبير .. على الرغم من أنك تعجز عن كتابة اسمك فى وضوح .

لوح العمدة بكفه ، وهو يبتسم فى دهاء ، قائلاً :

ــ وماذا فعل المتعلمون ؟

أطلق المأمور ضحكة مجلجلة أخرى ، قبل أن يقول :

ــ صدقت .. وماذا فعل المتعلمون ؟

ثم ابتسم فى جذل ، مستطردًا :

ــ ولكن خطتك كانت عبقرية بحق ، فأنت دفعت رجالك لمراقبة الفتى طيلة الأسبوع الماضى ، وعلمت أنه يتسلل من منزله كل ليلة ؛ ليلتقى بحبيبة قلبه عند جذع شجرة الصفصاف ، واستغللت ذلك ، واثقًا من أن شهامته ستمنعه من ذكر الحقيقة ، ومن تبرئة نفسه على حساب سمعة الفتاة ، مما يسهل إدانته فى قضية السرقة .

قال العمدة مبتسمًا فى ظفر :

ــ لقد ساعدنا (مرزوق) كثيرًا أيضًا ، فعلى الرغم من أنه لص كبير ، إلا أنه أوفى بوعده تمامًا ، واتهم (مفيد) بأنه المحرض على السرقة ، والمشارك فيها .

وانخفض صوته ، وهو يستطرد :

— ومن الضرورى أن توفى بوعدنا له بدورنا .

لوح المأمور بكفه هاتفًا فى مرح :

— بالطبع .. سنوفى بما وعدناه به .

ثم تنهد فى ارتياح ، وقال :

— المهم أننا مازلنا نواصل تحطيم عائلة (البنهاوى) .

قال العمدة فى ثقة :

— لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك .. صدقنى ، فلقد أشعت فى القرية كلها أن (حسين) ووالده يؤيدان تنظيم الضباط الأحرار ، وأن (حسين) بالذات أحد كبار التنظيم ، ونشرت خبر إلقاء القبض على (مفيد) بتهمة السرقة .

وأطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يستطرد :

— والبقية فى الطريق .

تألقت عينا المأمور ، وهو يقول :

— نعم .. البقية فى الطريق .

وازداد بريق عينيه ، وهو يستطرد :

— لقد انتهت عائلة (البنهاوى) .. انتهت تمامًا .

* * *

جلس (مفيد) فى زنزانته شاردًا ، يفكر فيما آل إليه أمر العائلة فى الآونة الأخيرة ، فلقد انهالت المصائب عليهم بغتة من كل صوب ، وراح الجميع يدسون لهم التهم والأباطيل ، كما لو أن سنوات المودة بينهم وبين أهل القرية قد انتهت بغتة بلا رجعة ..

ولكن لماذا ؟..

لماذا كرههم الجميع فجأة ، وعلى رأسهم العمدة والمأمور ؟..

ما الذى تبدل فى حياتهم ؟..

الآن (حسين) قد التحق بالكلية الحربية ؟..

أم لأن والده كان قاب قوسين أو أدنى من الحصول على رتبة الباشاوية ؟..

بدت له النقطة الأخيرة أكثر منطقية ؛ لأنها كانت ستصنع فجوة مباغتة بين والده والآخرين ..

فجوة تجعله يعلو العمدة والمأمور معًا ، بعد أن كان يسعى دومًا لخطب ودهما ..

وفى مرارة ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وهو يغمغم :

— قر عينا إذن يا (حسين) ، هاهو ذا ما جلبه لنا سعيك وراء اللقب ..

انتفض جسده بغتة ، عندما تناهى إلى مسامعه صوت هامس حنون ، يهتف باسمه ، فهب واقفًا ، وتعلق بقضبان نافذة الحجز ، وهو يهتف فى صوت خافت :

— (مديحة) .. أهو أنت ؟

أتاه صوتها الحنون مفعمًا باللوعة ، وهى تقول :

— نعم يا (مفيد) .. هو أنا .. كيف أنت ؟.. ماذا فعلوا بك ؟

— أجابها فى مرارة :

— بل قولى ماذا فعلوا بأسرتى يا (مديحة) .. إنهم يسعون لتدميرنا جميعًا .

قالت فى صوت حمل لمحة من الدموع التى تغرق وجهها :

— ولكنك برىء يا (مفيد) .. لقد كنت معى عندما سمعنا الأعيرة النارية ، وكنا .....

قاطعها فى حزم صارم :

— إياك أن تذكرى هذا الأمر لمخلوق يا (مديحة) .. إياك .

هتفت فى ألم :

— ولكن يا (مفيد) .

صاح فى صرامة لاتقبل الجدل :

ــ إياك يا (مديحة) .

سمع صوتها وهى تبكى ، وهو يعجز عن رؤيتها لارتفاع قضبان الحجز ، فقال مشفقًا :

ــ عودى إلى منزلك يا (مديحة) .. عودى قبل أن ينتبه عم (إسماعيل) إلى غيابك .

قالت باكية :

ــ يؤلمنى أن أتركك وحدك يا (مفيد) .

أجابها محاولا التسرية عنها :

ــ لست وحدى .. فذلك اللص الذى شهد ضدى فى الحجرة المجاورة .

قالت وهى تنتحب :

ــ ماذا سيفعلون بك يا (مفيد) ؟

تنهد فى مرارة ، وقال :

ــ لست أستبعد أن يفعلوا بى أى شىء .. حتى أن يقتلونى .

صرخت فى رعب :

ــ يقتلونك ؟!

أجابها :

ــ نعم .. يدعون محاولة فرارى ، ويطلقون على النار .

هتفت ملتاعة :

ــ لاتقل هذا يا (مفيد) .. لاتقل هذا .

تنهد فى عمق ، وقال :

ــ لاتشغلى عقلك بدناءاتهم يا (مديحة) .. هيا .. عودى إلى منزلك .

بللت دموعها وجهها كله ، وهى تقول :

ــ كم أحبك يا (مفيد) !!

اختلج قلبه ، على الرغم من القضبان المحيطة به ، وتشبثت قبضتاه بأسوار سجنه ، وهو يهتف :

ــ تحبيننى ؟!

وانطلقت عواطفه كلها مع صوته ، وهو يتابع :

ــ يالعجائب هذه الدنيا !!.. إننى أتمنى منذ عرفتك أن أسمع منك هذه الكلمة ، ويشاء الله (سبحانه وتعالى) ألا أسمعها منك إلا وأنا محاط بهذه القضبان ، وأصابعى تعجز عن احتضان أصابعك .

هتفت :

ــ لا يا (مفيد) .. لن تعجز أبدًا .

راحت ترفع قامتها الضئيلة ، بأقصى مايمكنها ، وتمد يدها إلى أعلى فى شدة ، وامتدت أصابعه هو خارج قضبان النافذة ..

وتلامست أصابعهما ..

لم تنجح يده فى أحتضان كفها الرقيقة ..

ولكن الأصابع تلامست ..

وسرى تيار الحب بينها ..

وهتف (مفيد) من أعمق أعماق قلبه :

ــ أحبك يا (مديحة) .. أحبك .

سالت الدموع من عينيها مرة أخرى ، وهى تهتف :

ــ أنا أيضًا أحبك .

كان القلبان الصغيران يعرفان الحب لأول مرة ..

يعرفان حبا صافيًا نقيًا ..

وفى حنان الدنيا كلها ، قال (مفيد) :

ـ هيا يا (مديحة) .. اذهبى .

غمغمت فى أسى :

ـ أذهب ؟

قال :

ـ نعم .. عودى إلى منزلك .

هتفت وهى تجفف دموعها :

ـ اهتم بنفسك كثيرًا .

قال فى قلق :

ـ سأفعل ، ولكن اذهبى بسرعة ، فأنا أسمع وقع أقدام تقترب .. اذهبى .

تركت موقعها ، وراحت تبتعد عن المكان فى سرعة ، إلا أنها لم تلبث أن توقفت ، وغمغمت :

ـ ترى ماذا يريدون منه ، فى مثل هذا الوقت ؟..

وفجأة ، تناهى إلى مسامعها صوت أحد الجنود يهتف :

ـ السجين يحاول الهرب .

سقط قلبها بين قدميها ، وهى تتذكر حديث (مفيد) عن اغتياله فى أثناء محاولة فرار ملفقة ، وهتفت فى ذعر :

ـ (مفيد) .

وفجأة انطلق دوى الرصاصات فى حجرة الحجز ، وصرخت (مديحة) فى لوعة لا مثيل لها :

ـ (مفيد) .. لا..

* * *

٩ ـ التحول ..

هب عم (إسماعيل) من فراشه فزعًا ، وهتف بزوجته ملتاعًا :

ـ أين (مديحة) ؟

نهضت الزوجة من الفراش ، وهى تسأله فى حيرة وقلق :

ـ فى فراشها حتمًا .. لماذا تسأل ؟

غادر الفراش ، وهو يضع يده على صدره ، قائلًا فى صوت لاهث ، من شدة الانفعال :

ـ يخيل إلى أننى قد سمعتها تصرخ فى الخارج .

غمغمت زوجته ، وقد سرى قلقه إلى صدرها :

ـ فى الخارج ؟!.. وماذا تفعل (مديحة) فى الخارج الآن ؟

لم يكد بصر الرجل يقع على فراش ابنته الكبرى الخالى ، حتى أطلق شهقة ذعر ، وهتف وهو يختطف جلبابه :

ـ (مديحة) ؟!.. ابنتى ؟

ارتدى جلبابه ، وهو يعدو خارج منزله الصغير ، عبر الحقول ، إلى حيث انطلقت صرخة ابنته ، حتى لمح جسدها الصغير ، ملقى بين أعواد النباتات ، فهرع إليها يحملها بين ذراعيه ، هاتفًا فى لوعة :

ـ (مديحة) .. ابنتى !!.

فتحت (مديحة) عينين مغرورقتين بالدموع ، وهى تنتحب قائلة :

ــ لقد قتلوه يا أبى .. قتلوا (مفيد) .

اتسعت عينا الرجل فى رعب ، وهو يهتف :

ــ قتلوه ؟!

انتحبت هاتفة :

ــ نعم يا أبى .. قتلوه .. العمدة والمأمور قتلاه .. ادعيا أنه حاول الفرار ، وأمرا رجالهما بقتله .

حدق فى وجهها فى ذهول وذعر لحظات ، قبل أن يعقد حاجبيه ، قائلا فى صرامة :

ــ اذهبى إلى البيت .

هتفت :

ــ لقد قتلاه يا أبى .

صاح بها فى حدة :

ــ اذهبى إلى البيت .

وقفت ترتجف أمامه ، فأضاف فى صرامة قاسية :

ــ سنتحدث عن سبب وجودك هنا ، فى هذه الساعة المتأخرة ، عندما أعود إلى المنزل .

وعلى الرغم من ألمها وحزنها على (مفيد) ، شحب وجهها رعبًا لصرامة أبيها ، وانطلقت تعدو نحو المنزل ، فى حين اتجه (إسماعيل) إلى نقطة الشرطة ، وهو يغمغم فى توتر ذاهل :

ــ مستحيل أن يكونا قد قتلاه !!. إن (مفيد) بك هو أكثر أبناء الحاج (البنهاوى) عقلا ورصانة ، على الرغم من صغر سنه ، حتى أننى أجزم بأن عملية سرقة المواشى هذه ملفقة .. سترك يارب الكون .. سترك .

راح يتقدم من نقطة الشرطة فى قلق وتوتر ، حتى بلغها وقد امتقع وجهه كثيرا ، وسأل أحد جنود الحراسة فى توتر :

ــ ماذا حدث ؟

أجابه الجندى فى هدوء ، وكأنما الأمر لايعنيه :

ــ لقد حاول أحد اللصوص الفرار ، فأطلق عليه خفير الحراسة النار ، وأرداه قتيلا .

جف لعاب (إسماعيل) ، وهو يغمغم :

ــ ومن هذا اللص ؟

رمقه الجندى بنظرة طويلة ، قبل أن يجيب فى بساطة :

ــ (مرزوق) ..

وخفق قلب عم (إسماعيل) فى ارتياح ..

* * *

كان (حسين) فى حالة يرثى لها حقًا ، عندما تم استدعاؤه إلى مكتب الصاغ (إبراهيم مكى) ، فى الخامسة صباحًا ، فقد نمت لحيته فى شدة ، واتسخت ثيابه كثيرا ، وتحطم الكبرياء فى نفسه تمامًا ، حتى أن الدهشة قد رجته من أعماقه ، عندما استقبله (إبراهيم) بابتسامة عريضة ، ونهض من خلف مكتبه يستقبله فى حرارة ، ويصافحه فى قوة ، هاتفا :

ــ مرحبا يا (حسين) .. كيف حالك ؟.. وكيف حال الحاج ؟

غمغم (حسين) فى شك :

ــ فى أسوأ حال كما ترى .

هتف (إبراهيم) فى حرارة :

ــ لاتقل هذا يارجل .. إنك كأخى .. والحاج كوالدى تمامًا .

رمقه (حسين) فى حيرة شديدة ، وقد أدهشه ذلك التحول الكبير فى شخصية الصاغ (إبراهيم مكى) ، وغمغم فى حذر :

— أهى وسيلة استجواب جديدة ؟

هتف (إبراهيم) مستنكرًا :

— استجواب ؟!.. ولماذا استجوبك يارجل ؟.. إنك لم ترتكب جريمة .

— وأسرع ينادى حارس مكتبه الخاص ، وهو يغمز لـ (حسين) فى مودة ، مستطردًا :

— لاريب أنك ترغب فى ارتداء زى نظيف ، وحلاقة ذقنك .. أليس كذلك ؟

غمغم (حسين) فى شك وحذر :

— بلى .

التفت (إبراهيم) إلى حارسه ، وقال فى حزم :

— أحضر شفرة حلاقة نظيفة لـ (حسين) بك ، وحلة من صوانى الخاص ، وأحضر للحاج (البنهاوى) شفرة أخرى جديدة ، وثوبًا يليق به .

وربت على كتف (حسين) فى حرارة ، هاتفًا :

— اجلس يارجل .. اجلس .. مارأيك فى قدح من القهوة .

جلس (حسين) ، وهو يسأله فى حذر :

— ماذا حدث بالضبط ؟

أجابه (إبراهيم) بابتسامة عريضة :

— لم يحدث شىء .. أنت والحاج بريئان ، ولايوجد أى داع لاحتجازكما هنا .. ومن الضرورى أن نطلق سراحكما على الفور .

سأله فى دهشة :

— ولكنك قلت إن أحدًا لايجرؤ على إطلاق سراحنا .

أشار (إبراهيم) إلى صدره ، قائلًا فى حزم :

— أنا أجرؤ .

وعاد يبتسم بتلك الابتسامة العريضة ، مستطردًا :

— من الضرورى أن يتخذ الإنسان موقفًا حازمًا ، فى الوقت المناسب .. أليس كذلك ؟

غمغم (حسين) ، وقد تضاعف حيرته :

— بلى .

اعتدل (إبراهيم) ، وهو يقول مبتسمًا :

— أتعلم أننى أحترم الشخص ، الذى يجيد اختيار طريقه يا(حسين) بك؟

رمقه (حسين) بنظرة صامتة ، وقد تضاعف التساؤل الحائر فى أعماقه ، عما يقصده الصاغ (إبراهيم) من هذا التحول المفاجئ ، قبل أن يميل هذا الأخير نحوه ، ويستطرد :

— مثلك أنت والحاج .

ردد (حسين) خلفه ، فى دهشة وحيرة :

— مثلى أنا والحاج ؟!

قال (إبراهيم) ، وقد بدت ابتسامته وكأنها نحتت على شفتيه نحتًا :

— بالتأكيد .. لقد كان تأييدكما للضباط الأحرار منتهى الحكمة .

تطلع إليه (حسين) طويلًا ، قبل أن يقول :

— ألم أقل لك إنه استجواب جديد ؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وهو يقول :

— بل تأييد يا (حسين) بك .. تأييد وتهنئة .

غمغم (حسين) ، وقد بلغت حيرته ذروتها :

— تهنئة بماذا ؟

تراجع (إبراهيم) ، وازدادت ابتسامته اتساعًا ، حتى بلغت أقصاها ، وهو يقول :

— لقد قام أصدقاؤك بانقلاب فى صفوف الجيش ، ومن الواضح أنهم سيربحون اللعبة كلها .. تهانئ أيها البطل .. تهانئ على نجاح حركة الضباط الأحرار ..

* * *

هب العمدة من فراشه وجلا ، على صوت دقات عالية على باب منزله ، فهتف ينادى خفيره الخاص :

— ماذا حدث أيها الخفير ؟.. ماذا حدث ؟

أسرع إليه الخفير ، وعيناه تحملان أثر نوم لم يتلاش بعد ، وهو يقول :

— البك المأمور يا جناب العمدة .

هتف العمدة فى دهشة بالغة :

— البك المأمور ؟!.. وما الذى أتى به فى هذه الساعة المبكرة ؟

ثم أسرع يرتدى جلبابه ، مستطردًا :

— ادخله إلى حجرة الضيوف يارجل ، وسأهرع إليه على الفور .

قال الخفير :

— لقد دخل إليها يا جناب العمدة ، ويطلب رؤيتك على الفور .

أسرع العمدة إلى حجرة الضيوف ، وهو يردد :

— خيرًا بإذن الله .. خيرًا بإذن الله ..

ولكنه لم يكد يلج حجرة استقبال الضيوف ، ويشاهد وجه المأمور الممتقع ، حتى تخاذلت قدماه ، فترك جسده يسقط فوق أريكة قريبة ، وهو يقول فى شحوب :

— خيرًا ياسعادة البك المأمور .

هتف المأمور فى لهجة تشف عن توتره وذعره :

— مصيبة ياعمدة .. مصيبة

سأله العمدة فى صوت متحشرج ، من شدة جفاف حلقه :

— مصيبة لمن ؟

ضرب المأمور كفا بكف ، وهو يهتف فى مرارة :

— نحن فعلناها ياعمدة .. نحن لفقنا لـ (البنهاوى) وابنه تهمة التضامن مع الضباط الأحرار ، ونحن لفقنا لـ (مفيد) تهمة سرقة المواشى ، وجعلنا (مرزوق) يعترف أمام الجميع ، ويؤكد التهمة على (مفيد) ، ثم تخلصنا من (مرزوق) ، حتى لايتراجع فى أقواله ، ويكشف أمرنا .. نحن فعلناها ياعمدة .

غمغم العمدة فى شحوب تام ، وقد زاده ذعر المأمور وهلعه انهيارًا :

— وماذا حدث ؟.. هل كشف أحدهم أمرنا ؟

هتف المأمور :

— بل حدثت مصيبة ياعمدة .. مصيبة كبيرة .

ثم أمسك كتفى العمدة فى قوة ، مستطردًا :

— لقد قام الضباط الأحرار بانقلاب ناجح ، وعلى رأسهم اللواء (محمد نجيب) ، وأذاعوا بيانًا بذلك فى الإذاعة .. أتدرى من أذاعه ياعمدة ؟.. إنه (أنور السادات) ، ذلك الضابط الذى اتهم فى قضية مقتل (أمين عثمان) .. لقد ميزت صوته جيدًا .

ظل العمدة يتطلع إليه فى ذهول ، وهو يهتف بهذا ، ثم لم يلبث أن غمغم :

— قاموا بانقلاب ؟!

وعلى عكس ماتوقع المأمور ، أطلق العمدة تنهدة ارتياح قوية ، وهو يقول :

— أهذا هو كل شىء ؟

حدق المأمور فى وجهه فى ذهول ، قبل أن يهتف مستنكرًا :

— أى برود هذا ياعمدة ؟.. أقول لك إن الضباط الأحرار قد قاموا بانقلاب ، فتستهين بالأمر إلى هذا الحد ؟

لوح العمدة بذراعه ، قائلا :

ـ الأمر هين بالفعل ، ياسعادة البك المأمور ، فما الذى يعنيه قيام الجيش بانقلاب ؟.. إنها مجرد حركة تمرد ، وغضب ينطلق فى صورة مسلحة ، تمامًا مثلما حدث أيام (عرابى) .. ثورة وهياج ، ثم ينتهى الأمر بإعلان المطالب ، والاستجابة لها ، ويذهب قادة الانقلاب للتوقيع فى سجل التشريفات بالسراى ، وينتهى كل شىء .

ألقى المأمور جسده ، الذى هده الانفعال ، فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم فى دهشة :

ـ أهذا كل ماتتوقعه ؟

أجابه العمدة فى ثقة :

ـ بالتأكيد .. إنه مجرد انقلاب عسكرى ، ربما ينتهى بتولى (نجيب) وزارة الحربية ، أو منصب قائد القوات .. مجرد تغيرات عسكرية لاشأن لنا بها ..

وابتسم فى دهاء ، وهو يستطرد :

ـ ثم إنه لاشأن لنا ـ رسميًا ـ بإلقاء القبض على (البنهاوى) وولده ، أما عن (مفيد) فشهادة (مرزوق) هى التى دفعتنا لإلقاء القبض عليه .. كل خطواتنا قانونية تمامًا .. اطمئن .

بدأ بعض الهدوء يتسلل إلى نفس المأمور ، وهو يتمتم :

ـ أتظن هذا حقًا ؟

هتف العمدة فى حماس :

ـ دون أدنى شك .

ثم ابتسم مستطردًا :

ـ والآن ماذا تحب أن تتناول على الإفطار ؟

ابتسم المأمور بدوره ، وهو يقول :

ـ فطائر بالجبن والعسل بالطبع .

قال العمدة فى حماس :

ـ فليكن .

ثم استطرد وهو يستعيد ابتسامته :

ـ سأهدى إليك طنًا من الفطائر ، عندما ينتهى هذا الانقلاب ، وأقسم بشرفى إنه لن يستمر لأكثر من أسبوع .. أسبوع واحد على الأكثر .

* * *

١٠ — العودة ..

أطلقت (شريفة) زغرودة قوية ، تحمل كل سعادتها وفرحتها ، قبل أن تندفع نحو والدها الحاج (البنهاوى) ، وهو يدلف إلى السراى ، هاتفة :

— أبى .. مرحبًا بك فى بيتك يا أبى .

التفت الفتيات حول والدهن ، الذى بدا شديد الشحوب والنحول ، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات ، فى حين أجهش (حافظ) ببكاء حار ، وغمغم (حسين) بابتسامة مرتبكة :

— هل ستكتفين بالترحاب بأبينا فقط ؟

أسرعت شقيقاته إليه ، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات بدوره ، فى حين اتجه الحاج (البنهاوى) نحو ابنه (حافظ) ، وربت على رأسه فى حنان ، مغمغمًا :

— كيف حالك يا (حافظ) ؟

انهار (حافظ) على كف أبيه ، يغمرها بقبلاته ودموعه ، وهو يهتف :

— كيف حالك أنت يا أبى . حمدًا لله على عودتك سالمًا .

قال (البنهاوى) فى صرامة :

— لاتبك ياولدى .. البكاء ليس للرجال .

انهمرت دموع (حافظ) فى غزارة أكثر ، وهو يقول :

— لن أبكى يا أبى .. لن أبكى .

هتفت (زينب) ، وكأنما تحاول تغيير دفة الحديث :

— هل استمعت إلى بيان الانقلاب يا أبى ؟.. من الواضح أنها حركة جادة بالفعل .

غمغم الأب :

— يبدو هذا يابنيتى .. يبدو هذا .

ثم تلفت حوله ، مغمغمًا :

— ولكن أين (مفيد) ؟

لم يكد يلقى سؤاله ، حتى ساد المكان صمت رهيب ، على نحو أقلقه ، فعاد يسأل فى توتر وجزع :

— أين (مفيد) ؟.. ماذا أصابه ؟

انهمرت دموع صامتة من عين (شريفة) ، وأشاحت (ناهد) بوجهها ، وأخفت (توحيدة) عينيها بدموعها ، فهتف بهن ، وقد بلغ به الذعر مبلغه :

— ماذا أصاب شقيقكن الأصغر ؟.. أجبن ؟

قالت (زينب) ، فى لهجة من حسمت أمرها :

— سأخبرك أنا يا أبى .

وترددت لحظة ، بدت له كالدهر ، قبل أن تضيف :

— لقد ألقى المأمور القبض على (مفيد) .. بتهمة السرقة .

اتسعت عينا (البنهاوى) فى ذعر ، وهو يهتف :

— السرقة ؟!.. مستحيل !!

أسرعت (زينب) تقول :

— كلنا نعلم أنها تهمة ملفقة يا أبى ، وسيتم عرض (مفيد) على النيابة اليوم .

ردد الأب الملتاع :

— على النيابة ؟

ثم التفت إلى ابنه الأكبر ، مستطردًا :

— هيا بنا يا (حسين) .. هيا نهب لنجدة شقيقك .

قال (حسين) فى حزم :

— هيا يا أبى .

ثم التفت إلى شقيقاته ، مستطردًا فى صلابة :

ـــ سنعود بـ (مفيد) .. هذا وعد ..

❊ ❊ ❊

انكمشت (مديحة) فى فراشها الصغير ، وراحت تذرف الدمع بلا حدود ، وقد انقسم قلبها بين نوعين من المشاعر ، اهترأت لهما نفسها الصغيرة ، وانكسرت لهما روحها الحالمة ..

كانت تخشىٰ والدها ، بعد عثوره عليها خارج المنزل أمس ، وتحاول تفاديه ، بعد أن آوت إلى فراشها فور عودتها ، وتظاهرت بالنوم عند عودته ، خشية عقابه واستجوابه لها ..

وكانت فى الوقت ذاته تشعر بالحزن من أجل (مفيد) ..

صحيح أنها علمت من حديث والدها ، عند عودته أمس ، أن (مفيد) لم يكن القتيل ..

لقد سمعته يخبر أمها ذلك ، فاختلج قلبها فرحًا ، وإن لم تغادر فراشها ، خشية العقاب ..

ومن العجيب أن والدها لم يخبر أمها بأمرها هى ..

صحيح أن أمها قد استقبلتها أمس فى ذعر ، وأنها قد حاولت معرفة سبب خروجها ، فى هذه الساعة المتأخرة ، إلا أنها لم تلبث أن تركتها ، عندما شعرت ـــ بغريزة الأمومة فى أعماقها ـــ أن ابنتها على وشك الانهيار ..

وعندما عاد الأب ، لم يناقش هذا الأمر أبدًا ..

لا مع زوجته ، ولا مع (مديحة) نفسها ..

وكانت هى واثقة من أنه يعلم بأمر تظاهرها بالنوم ، إلا أنه كان ـــ على الرغم من أميته ـــ رجلًا متفتح العقل ، لين العريكة ..

ولكن (مديحة) كانت تشعر بحزن من أجل (مفيد) ؛ لأنه سيدفع ثمن جريمة لم يرتكبها ..

هى وحدها تعلم أن (مفيد) لم يكن يسرق المواشى ، فى الوقت الذى اتهم فيه بذلك ؛ لأنه كان معها ..

ولكن (مفيد) نفسه يمنعها من ذكر هذا ..

هو نفسه يئد الدليل الوحيد على براءته ، حتى لا يسىء إلى سمعتها بحرف واحد ..

يا لشهامته !..

يا لرجولته المبكرة !..

لحظتها أدركت كم تحبه ..

وأدركت كم تعشقه ..

وفجأة انتزعها من أفكارها صوت والدها ، وهو ينطق اسمها فى هدوء ، على بعد خطوة واحدة من رأسها ، فانتفض جسدها الصغير فى خوف ورهبة ، وأرادت أن تتظاهر بأنها ما تزال نائمة ، إلا أنها وجدت نفسها تجيب فى خفوت :

ـــ نعم يا أبى .

قال أبوها فى هدوء :

ـــ انهضى .

نهضت جالسة على طرف الفراش ، وجسدها الصغير يرتجف فى قوة ، ولكن والدها نظر إليها فى إشفاق وحنان ، وهو يقول :

ـــ لا تخافى يا صغيرتى .. لن يؤذيك أحد .

خفت ارتجافها ، مع تربيته الحنون على رأسها ، فسمرت عينيها بوجهه ، وهى تنكمش فى مجلسها ، حتى سألها :

ـــ ماذا كنت تفعلين فى الخارج يا (مديحة) ؟

أجابته على نحو مباشر :

ـــ كنت أزور (مفيد) يا أبى .

تطلع إليها فى دهشة ، وهو يغمغم :

ــ تزورينه ؟!.. أين ؟

أجابته منكمشة :

ــ فى التخشيبة يا أبى .

هتف مستنكرًا :

ــ فى هذه الساعة المتأخرة ؟!

خفضت عينيها وكأنها تعترف بذنبها ، وقالت مبررة :

ــ كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لزيارته يا أبى ، فأنا أتسلل عبر الحقول ، لأراه من نافذة التخشيبة الخلفية ، وأخشى أن يرانى أحد .

تطلع إليها والدها طويلًا فى صمت ، قبل أن يزدرد لعابه فى مرارة ، ويقول :

ــ وهل فعلت هذا من قبل ؟

غمغمت :

ــ فعلت ماذا ؟

سألها فى مرارة :

ــ هل التقيت بـ (مفيد) بك قبل ذلك ، فى أوقات متأخرة من الليل ؟

كان يمكنها أن تنفى وتنكر ، إلا أنها أجابت فى استسلام :

ــ نعم .

اختلج قلب الأب بين ضلوعه ، وهو يسألها فى خفوت ورهبة :

ــ وماذا كنتما تفعلان ؟

أجابته :

ــ نتحدث .

سألها فى حذر :

ــ فقط ؟!

رفعت عينيها إليه ، وأجابت فى استكانة مست شغاف قلبه :

ــ فقط يا أبى .. أقسم لك .

تنهد فى ارتياح ، وأغلق عينيه ، وهو يغمغم :

ــ حمدًا لله .

سالت دموعها فى صمت ، وشاركها هو صمتها لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ــ اسمعى يا (مديحة) .. أنا أعلم أن (مفيد) بك شاب ملتزم شهم ، وأنه لم ولن يسىء إليك أبدًا ، ولكننى أريد منك وعدًا بعدم مقابلته مرة أخرى .

ارتجف قلبها فى لوعة ..

كيف يطلب منها الابتعاد عنه ؟..

كيف يطالبها بانتزاع جزء من قلبها ؟..

وعلى الرغم من لوعتها ، غمغمت مستسلمة :

ــ كما تأمر يا أبى .

اعتدل فى ارتياح ، وهو يقول :

ــ كنت أعلم أنك ستطيعيننى !

سالت دموعها فى غزارة ، وهى تقول :

ــ ولكن يا أبى ..

بترت عبارتها ، مما أعاد إليه قلقه ، وهو يسألها :

ــ ولكن ماذا ؟

أجابته فى تردد :

ــ ولكن (مفيد) برىء من تلك التهمة .

عقد حاجبيه ، وهو يسألها :

ــ وكيف يمكن الجزم بذلك ؟

خفضت عينيها فى حياء ، وهى تقول :

ــ لقد كان معى ، فى ذلك الوقت ، الذى اتهموه فيه بالسرقة .

اتسعت عينا الرجل ، وهو يهتف :

ــ كان معك ؟!

أجابته باكية :

ــ نعم .. وهو يمنعنى من ذكر ذلك ، ويصر على أنه لن يقبل اعترافى لإنقاذه .

صمت (إسماعيل) ، وهو يتأمل ابنته ، ذات الخمسة عشر ربيعًا ، وأدهشه أنها قد نضجت هكذا ، دون أن يشعر بذلك ، وراح يجول بعينيه فى تضاريس أنوثتها المبكرة ، قبل أن يتنهد فى عمق ، متمتمًا :

ــ ياله من شهم !

تشبثت به ابنته ، وهى تقول ضارعة :

ــ من الضرورى أن أدلى بشهادتى يا أبى .. سيدينونه ظلمًا لو لم أفعل .

هتف مستنكرًا :

ــ ولكن هذا مستحيل !.. لن يمكننى أن أواجه أهل القرية ، عندما تعترفين بأنك كنت معه وحدكما ، فى هذه الساعة المتأخرة ، ولن يصدق مخلوق واحد أنكما كنتما تتحدثان فحسب .. مستحيل .

بكت فى حرارة ، وهى تقول :

ــ أرجوك يا أبى .. إنه مستقبله .. مستقبل ابن الرجل الذى يرعانا ، والذى نعمل فى أرضه .. مستقبل من رفض البراءة ، لو أن ثمنها هو سمعة ابنتك .

حار (إسماعيل) فيما يسمعه من ابنته ، وغمغم :

ــ ولكن هذا مستحيل !.. إنك حتى تفسدين ما يسعى إليه باعترافك .

اتسعت عيناها فى ذعر ، وهى تهتف :

ــ هل ستتخلى عنه إذن ؟.. هل ستتركه يدان ؟

زفر مرة أخرى فى عمق ، ونهض من مكانه ، مغمغمًا :

ــ لا .. لن نتركه .

واتجه نحو نافذة الحجرة الصغيرة ، وراح يطل منها على أرض (البنهاوى) ، التى تحيط بمنزله الصغير من كل جانب ، وهو يدرس الأمر ، ويديره فى رأسه ، ثم لم يلبث أن التفت إلى ابنته ، وهو يقول :

ــ لا يابنيتى .. لن يدان (مفيد) بك .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد فى حزم :

ــ لقد وجدت الحل ..

* * *

١١ ــ بطولة بلا بطل ..

لم يكد الحاج (البنهاوى) وولده (حسين) يخطوان فى شوارع القرية الضيقة ، فى طريقهما إلى نقطة الشرطة ، حتى أحاط بهما أهل القرية من كل جانب ، وراحوا يصافحون الحاج (البنهاوى) فى حرارة ، ويهنئونه بالبراءة ، والبشر والحبور يملآن وجوههم ، مع ابتسامات عريضة ، ثم التفوا حول (حسين) ، وراحوا يهتفون به :

ــ مبروك يابطل .. زملاؤك الأبطال هزموا الحكومة .. أنت وهم أعظم من أنجبتهم (مصر) .

حاول الحاج (البنهاوى) أن يشرح لهم الأمر ، إلا أن (حسين) أمسك كفه فى قوة ، وهو يهمس فى أذنه فى حسم :

ــ لاتقل شيئًا ياأبى .. أرجوك .

غمغم (البنهاوى) فى دهشة وحيرة :

ــ ولكننا لاننتمى بالفعل لأولئك الضباط الأحرار ..

قاطعه فى حدة :

ــ ليس الآن ياأبى .. سنتحدث عن هذا فيما بعد .. أرجوك .

صمت (البنهاوى) مرغمًا ، وقد وجد الوقت غير ملائم لمناقشة ابنه فى هذا الأمر ، واكتفى برد تحية أهل القرية ، وشكرهم على حسن استقبالهم ، حتى أصبح هو وولده يسيران على رأس موكب كبير ، أثار دهشة المأمور وذعره ، عندما رآه يتجه نحو نقطة الشرطة ، فأسرع يستقبل (البنهاوى) وولده ، فاتحًا ذراعيه ، هاتفًا :

— مبروك يا حاج .. مبروك يا (حسين) .. إنه لأسعد أيام قريتنا .. ألف ألف مبروك .

صافحه الحاج (البنهاوى) فى استسلام ، فى حين استقبله (حسين) فى مزيج من البرود والتعالى ، وهو يقول :

— كانت مسألة وقت فحسب أيها المأمور .

امتقع وجه المأمور ، وخيل إليه أنه يفهم مايعنيه (حسين) ، غمغم وهو يقودهما إلى الداخل :

— بالطبع .. بالطبع .. كنت أعلم أنكما ستخرجان حتمًا .

قال (البنهاوى) فى خفوت :

— الواقع أننا لم ..

قاطعه (حسين) ، مكملًا فى حزم :

— الواقع أننا لم نفهم سر عثور رجال البوليس السياسى على تلك المنشورات ، فلقد كنا نخفى المنشورات الحقيقية فى مكان سرى للغاية .

التفت إليه والده فى دهشة ، فى حين امتقع وجه المأمور ، وهو يغمغم :

— المنشورات الحقيقية ؟!.. أيعنى هذا أنكما ..

قاطعه (حسين) فى حزم :

— نؤيد الضباط الأحرار منذ البداية بالتأكيد ، وأنا مندوبهم فى الكلية الحربية .

شحب وجه المأمور ، وهو يلقى جسده فوق مقعده ، فى حين ضغط (حسين) كتف أبيه فى قوة ، حتى لايفسد خطته بدهشة واضحة ، أو استفسار مفاجئ ..

لقد كان (حسين) يعلم أن حركة الضباط الأحرار ناجحة تمامًا ، بدليل ذلك التحول العجيب فى موقف الصاغ (إبراهيم مكى) منه ومن والده ، بعد نجاح الانقلاب .

وكان يرغب فى استثمار الموقف لصالحه تمامًا ..

وفى تلك اللحظة بالذات ، كان يدرك أنه على حق فى أسلوبه هذا ، فقد بدا المأمور شديد الارتباك والتوتر ، وهو يقول فى لهجة تخالف لهجته المعتادة ، وتحمل الكثير من الاحترام والتوقير :

— لقد كان انقلابًا مباركا بالفعل يا (حسين) بك .. لقد أحسنت اختيار الجانب الرابح .

تجاهل (حسين) هذا القول ، وهو يسأله فى غطرسة :

— أين (مفيد) ؟

أجابه المأمور ، وقد سقط قلبه بين ساقيه :

— فى النيابة .. أنا آسف .. كنت أؤدى واجبى فحسب .. لقد اتهمه لص محترف ، و.....

قاطعه (حسين) فى حزم :

— لابأس .. سنذهب إليه ..

شحب وجه المأمور أكثر وهو يقول :

— سأسرج لكما جوادين ، فالمسافة بعيدة ..

قال (حسين) فى برود :

— هذا أفضل بالطبع .

وياله من تحول !!..

لقد غادر (حسين) وأبوه نقطة الشرطة على صهوة جوادين ، وخلفهما موكب رائع مهيب ، من أبناء القرية ، الذين صار (حسين) بالنسبة لهم رمزًا للقوة والثورة ..

وهمس (البنهاوى) فى ضيق :

ــ ما الذى تفعله يا ولدى ؟

أجابه (حسين) فى حزم :

ــ أعتلى الموجة الرابحة يا أبى .

همس الوالد فى ضيق أشد :

ــ وماذا لو فشلت الموجة ، وتم إحباط الانقلاب ؟

أجابه فى ثقة :

ــ ومن سيحبطه ؟.. لقد قلتها أنت قديمًا يا أبى .. الجيش هو القوة ، ولقد هب ذلك الجيش ليفوز بالغنيمة ، وأسر كل الضباط الكبار ، الموالين للملك ، ومن الواضح أنه قد قام بانقلاب ناجح للغاية ، إلى الحد الذى دفع (إبراهيم مكى) إلى المخاطرة بإطلاق سراحنا ، بمجرد تأكيد اعترافه وولائه لقادة الانقلاب الجديد .. ونحن نملك فرصة ذهبية ، وهى أن الجميع يتصورون أننا ننتمى إلى القادة الجدد ، وليس من مصلحتنا أن نعارض ذلك .. دعهم يؤمنون بنا ، ودعنا نحن نبلغ القمة على أكتافهم .

ــ لم يعترض (البنهاوى) على كلام ابنه الأكبر ، الذى يعقد عليه جل آماله ، بل اكتفى بأن غمغم مستسلمًا :

ــ كما ترى يا ولدى .. كما ترى .

انعشت اللهجة (حسين) ، فانتصبت قامته فى اعتدال ، فوق صهوة جواد المأمور ، وقال فى حزم ، وهو يتجه مع والده إلى حيث مكتب وكيل النيابة :

ــ سترى أننى على حق يا أبى .. سترى أننى الرابح دومًا .

وبينما يقول هذا ، كانت عيناه تبرقان بوميض قوى ..

وميض شره ..

* * *

تطلع وكيل النيابة الشاب إلى (مفيد) فى هدوء ، وهو يسأله :

ــ كم تبلغ من العمر ؟

أجابه (مفيد) :

ــ سبعة عشر عامًا .

رفع وكيل النيابة حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ــ فقط ؟!.. عجبًا !!.. تصورتك فى العشرينات .

ثم لانت لهجته ، وهو يضيف :

ــ أتعلم أن هذا يجعلك ــ قانونًا ــ مجرد حدث يا (مفيد) ؟.

غمغم (مفيد) فى ضيق :

ــ وما الفارق ؟

ابتسم وكيل النيابة مشفقًا ، وهو يقول :

ــ الفارق أضخم مما تتصور ، فأنت غير مسئول عن أفعالك ، من الوجهة القانونية ، حتى تبلغ الثامنة عشرة من عمرك ، وهذا يعنى أنه يمكن لقاضى الأحداث إطلاق سراحك ، مع أخذ التعهدات اللازمة على والدك ، و.....

قاطعه (مفيد) فى حزم :

ــ ولكننى برىء .

تطلع إليه وكيل النيابة فى صمت لحظات ثم سأله بنفس الابتسامة المشفقة :

ــ هل يمكنك أن تثبت هذا ؟

قال فى حدة :

ــ عليكم أنتم إثبات أننى مذنب .

هز وكيل النيابة كتفيه ، وقال :

ــ هناك إثبات على ذلك بالفعل ، فلقد اعترف شريكك بذلك ، قبل أن يلقى مصرعه ، ولقد سمعه العمدة والمأمور ، و.....

قاطعه (مفيد) مرة أخرى :

ــ اعترافه لايعنى شيئًا ، فربما أدلى به تحت ضغوط شديدة .

سأله فى هدوء :

ــ مثل ماذا ؟

أجابه محتدًا :

ــ التعذيب مثلًا ، أو التهديد ، أو حتى مقابل المادة .

مط وكيل النيابة شفتيه ، وقال :

ــ ربما .

ثم اعتدل ، ومال نحو (مفيد) ، مستطردًا فى حزم :

ــ سأسألك سؤالًا مباشرًا إذن .. هل ارتكبت السرقة ؟

أجابه فى حزم :

ــ لا .

سأله فى سرعة :

ــ أين كنت إذن وقت ارتكابها ؟

حدق (مفيد) فى وجهه لحظة ، ثم عقد حاجبيه ، قائلًا :

ــ هذا شأنى وحدى .

هز وكيل النيابة رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ــ لا .. لم يعد شأنك وحدك يا (مفيد) .. إننا نحقق فى أمر حادث سرقة ، ولابد لك من تبرئة نفسك ، مادام هناك أمر يدينك .

تردد (مفيد) لحظة ، ثم قال :

ــ كنت أجلس وسط حقول أبى ؟

سأله فى اهتمام :

(مفيد)

ــ وحدك ؟!

هم (مفيد) بقول شىء ما فى تردد ، ولكن قبل أن ينبس بحرف واحد ، انفتح الباب بغتة ، وظهر على عتبته (حسين) ، فعقد وكيل النيابة حاجبيه فى غضب واستنكار ، فى حين هتف (مفيد) فى سعادة :

ــ (حسين) ؟!.. حمدًا لله على سلامتك ، أين أبى ؟

سمع من خلف (حسين) صوت أبيه يقول بقلب كسير :

ــ هأنذا ياولدى .

ألقى نفسه بين ذراعى والده الحانيتين ، وهو يهتف :

ــ حمدًا لله على سلامتك يا أبى .. حمدًا لله على عودتك .

هتف وكيل النيابة فى غضب :

ــ ما الذى يحدث هنا ؟.. كيف تقتحمان الحجرة هكذا ، فى أثناء تحقيق رسمى ؟

اتجه إليه (حسين) ، وقال فى استعلاء :

ــ أنا (حسين البنهاوى) ، مندوب الضباط الأحرار .

قال وكيل النيابة فى حدة :

ــ وماذا تريد يامندوب الأحرار ؟

قال (حسين) فى حزم ، وقد ضايقه أن عبارته لم تترك التأثير المنشود ، فى نفس وكيل النيابة :

ــ إننى شقيق (مفيد) .

أشار وكيل النيابة إلى الخارج ، مجيبًا فى حزم أشد :

ــ انتظر بالخارج إذن ، حتى انتهى من استجوابه .

هتف (حسين) :

ــ قلت لك إننى مندوب الضباط الأحرار .

صاح به وكيل النيابة فى صرامة غاضبة :

ـــ وأنا أمرتك أن تنتظر خارجًا .

تدخل (مفيد) مربتًا على كتف شقيقه ، وهو يقول لتهدئة الموقف :

ـــ انتظر خارجًا يا (حسين) ، أرجوك .

التفت إليه (حسين) فى غضب ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها (إسماعيل) عند باب حجرة وكيل النيابة ، وهو يقول فى خفوت :

ـــ لدى ما أدلى به فى قضية (مفيد) بك ياسيادة وكيل النيابة .

أدار الجميع عيونهم إليه ، على الرغم من الخفوت الشديد ، الذى نطق به عبارته ، وتطلع إليه (مفيد) فى دهشة ، فى حين هتف (حسين) :

ـــ عم (إسماعيل) ؟!.. ماذا لديك هنا ؟

هب وكيل النيابة من مقعده ، هاتفًا فى غضب :

ـــ ألم آمرك بالانتظار خارجًا ، يامندوب الأحرار ؟

كاد (حسين) ينفجر ثائرًا مرة أخرى ، إلا أن الحاج (البنهاوى) أمسك كفه فى قوة ، قائلا :

ـــ كفى يا ولدى .. كفى .

ثم التفت إلى وكيل النيابة ، مستطردًا :

ـــ سننتظر خارجًا .

وجذب ابنه فى رفق إلى الخارج ، فى حين ردد (إسماعيل) مرة أخرى :

ـــ لدى ما أدلى به .

أشار إليه وكيل النيابة ، قائلا :

ادخل وأغلق الباب خلفك .

نفذ (إسماعيل) الأمر فى هدوء ، و(مفيد) مازال يتطلع إليه فى دهشة ، فى حين سأله وكيل النيابة فى اهتمام :

ـــ ماذا لديك ؟

أجابه (إسماعيل) ، وهو يتحاشى النظر فى وجه (مفيد) :

ـــ إننى واثق من أن (مفيد) بك برىء .

قال وكيل النيابة :

ـــ مجرد ثقة ؟

أجابه (إسماعيل) :

ـــ لدى دليل قاطع .

سأله وكيل النيابة فى اهتمام :

ـــ ما هو ؟

تردد (إسماعيل) لحظة ، ثم حسم أمره بغتة ، ليقول فى حزم :

ـــ إننى أعلم أن (مفيد) بك لم يكن يسرق المواشى ، عندما حدثت السرقة ، فقد كان فى هذه اللحظة وسط حقول والده .

عقد وكيل النيابة حاجبيه ، وهو يتطلع إلى (إسماعيل) ، فقد أثار انتباهه أن يتطابق قوله هذا مع آخر كلمات (مفيد) ، على الرغم من أن وكيل النيابة يشعر ، منذ دخل (إسماعيل) إلى مكتبه ، أن الرجل سيدلى بشهادة كاذبة ، يهدف إلى تبرئة (مفيد) فحسب ، وعلى الرغم من شعوره هذا ، فقد سأل (إسماعيل) :

ـــ وكيف عرفت ؟

أجابه :

ـــ إنه لم يكن وحده .

سأله وكيل النيابة فى حزم :

ـــ من كان معه ؟

خفق قلب (مفيد) فى عنف ، وأنبأه قلبه بأن أمره مع (مديحة) قد انكشف ، وأنبأته محاولات (إسماعيل) لتحاشى النظر إليه بصحة هذا الاستنتاج ، وكاد يهتف مانعًا (إسماعيل) من مواصلة الحديث ، قبل أن يهوى جواب هذا الأخير على أذنه كالقنبلة ، وهو يقول فى حزم :

ـ أنا .. أنا كنت معه ..

* * *

١٢ ـ انقلاب ..

استيقظ (مفيد) مع شروق الشمس كعادته ، إلا أنه لم يغادر فراشه هذه المرة ، وإنما ظل مستلقيا فيه ، يستعيد ما حدث له فى الأيام الماضية ، وقد اختنقت فى حلقه غصة مريرة ، كادت تدفعه إلى بصق روحه من بين شفتيه ..

لقد أنقذته شهادة عم (إسماعيل) من الإدانة ، ولكنها لم تعفه من الحيرة ..

مازال يذكر دهشة وكيل النيابة ، التى فاقت دهشته ، وهما يحدقان فى وجه (إسماعيل) ، بعد أن أدلى بشهادته ، واستعاد فى ذاكرته صوت وكيل النيابة ، وهو يسأل عم (إسماعيل) :

ـ هل أنت واثق من صحة قولك هذا ؟

أجابه (إسماعيل) لحظتها فى اعتداد :

ـ وأصر عليه .

ران الصمت ـ آنذاك ـ على حجرة وكيل النيابة ، قبل أن يسأل (إسماعيل) فى خفوت :

ـ هل تعلم عقوبة شهادة الزور ؟

أجابه (إسماعيل) فى حزم :

ـ نعم .

سأله وكيل النيابة :

ـ ومازلت تصر على أقوالك ؟

أجابه فى صلابة :

ـ نعم ..

ولم يناقش (مفيد) أو يجادل ..

لقد صمت مستسلمًا .. حائرًا .. قلقًا ..

كانت شهادة (إسماعيل) تشير إلى احتمالين ، لاثالث لهما ..

إما أنه يحاول إنقاذه ، وفاء لوالده ..

أو أنه يعلم الحقيقة ..

وكان الاحتمال الثانى هو الذى يرجف قلب (مفيد) ..

إنه لم يناقش عم (إسماعيل) فى الأمر ..

لم يجد حتى الفرصة لذلك ..

لقد غادر حجرة وكيل النيابة ، بعد أن أصدر هذا الأخير قراره بالإفراج عنه ، بناء على شهادة عم (إسماعيل) ، ليستقبله والده وشقيقه فى سعادة وحرارة ، أنستهما حتى أن يوجها الشكر إلى (إسماعيل) ، الذى انصرف فى خطوات مسرعة ، تشف عن عدم انتظاره أو تقبله لهذا الشكر ..

ومنذ تلك اللحظة ، لم ير (مفيد) (مديحة) .

(مديحة)

لم يجرؤ حتى أن يفعل ..

لقد اكتفى بالبقاء فى منزله ، منتظرًا اللحظة المناسبة ليهرع إليها ..

وهو لايدرى متى تأتى تلك اللحظة المناسبة ..

غرق فى أفكاره طويلا ، وهو يسترجع لحظاته الحلوة معها ، دون أن يدرى كم مر به من الوقت ، حتى أيقظه من شريط ذكرياته صوت طرقات على باب حجرته ، جعله يهب من فراشه فى جزع لامبرر له ، ويهتف فى توتر :

ـ من بالباب ؟

انفتح الباب فى هدوء ، وظهرت على عتبته أخته (زينب) ، وهى تقول مشفقة :

ـ لاداعى لهذا التوتر .. إنه أنا .

زفر فى قوة ، وجلس على فراشه مغمغمًا :

ـ ماذا تريدين يا (زينب) ؟

جلست إلى جواره ، وهى تقول :

ـ أريد منك أن تهبط إلى حجرة استقبال الضيوف ، حيث يجلس والدنا .

سألها فى بساطة :

ـ لماذا ؟

أجابته فى صوت يحمل رنة حزن :

ـ لأن والدنا يحتاج إلى وجودنا جميعًا إلى جواره ، فى هذا اللحظة .

التفت إليها بحركة حادة ، وهتف :

ـ لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

تنهدت فى أسف واضح ، وهى تجيب :

ـ إنها قرارات هؤلاء الضباط الأحرار .. لقد أنذروا الملك بضرورة مغادرة البلاد ، و.....

بترت عبارتها لحظة ، جعلته يهتف بها فى توتر :

ـ وماذا ؟

أجابته فى خفوت حزين :

ـ وأصدروا قرارًا بإلغاء الألقاب .

اتسعت عيناه ، وهو يتراجع مرددًا :

ـ إلغاء الألقاب .

ثم لم تلبث ملامحه ولهجته أن أصبحتا مثالًا للغضب الحانق ، وهو يستطرد

— كنت أعلم أن هذا سيحدث .. كنت أعلم أن سعينا خلف هذا اللقب السخيف لن يربح شيئًا .. كنت أعلم أننا لن نجنى منه سوى الخسارة .

قالت (زينب) فى حزم :

— ادخر مشاعرك الشخصية لما بعد .. المهم الآن أن تمنع والدنا من أى انهيار قد يصيبه ، بشأن هذا القرار .

نهض مغمغمًا فى حنق :

— أنت على حق ..

هبط إلى الطابق الأسفل ، حيث يجلس والده صامتًا ، وقد جلس إلى جواره كل أبنائه وبناته ، والصمت يلفهم جميعًا ، فتقدم هو نحو والده ، وانحنى يقبل يده كعادته ، قائلًا :

— صباح الخير يا أبى .

رفع إليه والده عينين حزينتين ، وهو يجيب :

— صباح الخير يا ولدى .

جلس إلى جواره صامتًا بدوره ، باحثًا عن وسيلة لبدء حوار ما ، ينتزع الوالد من حزنه وصمته ، إلا أن (حسين) سبقه إلى الحديث ، وإن لم يتجاوز حديثه الأزمة ، وهو يهتف فى سخط :

— الأمر لا يستحق كل هذا .. النقود تأتى وتذهب .

رفع الوالد عينيه الحزينتين إلى (حسين) ، وهو يقول :

— ضياع النقود لا يحزننى يا (حسين) ، وإنما يحزننى ضياع الأرض .. الأرض التى أفنيت عمرى لجمعها .. الأرض هى كل ما يؤلمنى يا ولدى ..

وزفر فى مرارة ، قبل أن يستطرد :

— كانت حماقة حقيقية منى أن أوافقك على فكرة اللقب هذه .

احتقن وجه (حسين) فى شدة ، وهب من مجلسه هاتفًا :

— لم تكن هناك أية حماقات .. إنها تلك المتغيرات المفاجئة فحسب ، فمن كان يتصور أن يحدث انقلاب كهذا ، تنقلب فيه أمور (مصر) كلها ؟!.. إن ما حدث خارج عن إرادتنا جميعًا ، ولو لم يحدث هذا الانقلاب ، لكنا فى طريقنا للحصول على اللقب الآن .

لم ينبس (حافظ) ببنت شفة ، وهو يتطلع إلى شقيقه فى خوف ، فى حين غمغم (مفيد) فى حنق يحمل رنة سخرية مريرة :

— نعم .. ربما .

التفت إليه (حسين) فى حدة ، ورماه بنظرة نارية صارمة ، قبل أن يتابع فى عصبية :

— لقد حدث ما حدث ، ولا سبيل لرده .. المهم الآن أن نواصل سعينا للحصول على القوة .

سألته (شريفة) فى شغف :

— كيف ؟

التفت إليها ، وكأنه يتحدث لها وحدها ، وقال فى حماس :

— من الواضح الآن أن الضباط الأحرار هم القوة الفعلية فى البلاد ، فلقد تجاوزوا كل الأحزاب ، حتى حزب الوفد ، ذى الشعبية الضخمة ، ونجحوا فى فرض سيطرتهم على الملك نفسه ، وصار من العسير أن يتوقفوا ، بعد أن ذاقوا طعم السطوة والقوة ، وهم سيواصلون تقدمهم ، حتى يملكوا الدنيا كلها فى قبضتهم .

سألها (مفيد) فى حدة :

— وماذا يعنيك فى هذا الأمر ؟

قال (حسين) فى حزم ، دون أن يلتفت إليه :

ــ لقد أدركت قوتهم منذ اللحظة التى أطلق الصاغ (إبراهيم مكى) فيها سراحى وسراح والدى ، خشية أن يعاقب على الإساءة إلى أحد أصدقائهم ؛ ولهذا ، أرسلت لهم برقية تأييد باسمى ، فور مغادرتنا سجن البوليس السياسى .

حدق الجميع فى وجهه بدهشة ، وغمغم والده :

ــ أكانت هذه البرقية لهم ؟!.. ولكن لماذا لم تخبرنى لحظتها ؟

أجابه فى سرعة :

ــ خشيت أن تعترض ، أو أن يقلقك الأمر .

هتف الوالد مستنكرًا :

ــ ولكن كان من الضرورى أن تخبرنى ، وأن تستشيرنى فى الأمر ، فلقد كانت مخاطرة كبيرة أن ترسل تلك البرقية .

ابتسم (حسين) فى زهو ، وهو يقول :

ــ كانت مخاطرة محسوبة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف وعيناه تلتمعان :

ــ وناجحة .

ثم عاد يبتسم ، مستطردًا :

ــ وهذا ما شجعنى على إرسال برقية تأييد أخرى منذ ساعة واحدة .

حدق الجميع فى وجهه فى ذهول ، قبل أن يغمغم والده ، وكأنه لا يصدق أذنيه :

ــ تأييد لماذا ؟!

عقد (حسين) حاجبيه فى شدة ، وكأنما يعلن موقفه ، قبل أن يدلى بدلوه ، قائلًا فى حسم :

ــ تأييد لقرار إلغاء الألقاب .

تبادل الجميع نظرات ذاهلة ، قبل أن يهتف (البنهاوى) :

ــ أترسل لهم برقية تأييد ، لقرار انتزع منا مائتى فدان ، وسبعين ألفًا من الجنيهات ، بلا طائل .

اندفع (حسين) يقول فى صرامة :

ــ لقد ضاعت الأرض والنقود ، سواء أرسلنا برقية التأييد أم لا ، ولكننا الآن نربح موقفًا .. ها أنتم أولاء ترون أن الضباط الأحرار قد أدركوا حقيقة قوتهم ، وأنهم قد انطلقوا إلى نهاية الشوط ، فطالبوا الملك بالتنازل عن عرشه ، وألغوا الألقاب ، ولن يتوقفوا عند هذا .. لن يتوقفوا قبل أن ينالوا القوة المطلقة .

هتف الأب :

ــ وما شأننا بذلك ؟

صاح ملوحًا بذراعيه فى حدة :

ــ إننا نختار الطريق الصحيح .. طريق القوة .

قال (البنهاوى) فى مرارة :

ــ القوة بأن نخسر مائتى فدان ؟!

هتف (حسين) فى حزم :

ــ لا.. بألا نخسر إلى جوارها موقفنا .

ران صمت ذاهل عجيب على المكان ، استمر لحظات طوالًا ، قبل أن يغمغم (مفيد) :

ــ موقف ثعالب .

التفت إليه (حسين) فى غضب ، وهو يقول محتدًا :

ــ بل موقف الأذكياء .

ثم أدار عينيه فى وجوه الجميع ، مستطردًا :

ــ ستروْن أننى على حق .

زفر (البنهاوى) فى قوة ، وهو يقول :

ـ لافارق .. لم تعد هناك فائدة حتى لذلك .

ران الصمت مرة أخرى على المكان ، وطال فى هذه المرة كثيرًا ، وكأنما فرغ الكلام من كل الأفواه ، ثم اعتدل الحاج (البنهاوى) بغتة ، وقال فى حزم :

ـ ينبغى أن نتم زواج (توحيدة) .

تطلع إليه الجميع فى دهشة ، وغمغم (حافظ) :

ـ زواج (توحيدة) يا أبى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ نعم .. زواج (توحيدة) لقد تقدم لها زوج مناسب ، ولست أدرى ما إذا كنت سأحيا لأراها عروسًا أم لا ، والأفضل أن يحدث هذا الآن .

وخفت صوته ، وهو يستطرد فى مرارة :

ـ قبل أن يصدر الضباط الأحرار قرارًا بمنع الزواج .

بدا الغضب على وجه (حسين) ، وكأنما تهينه العبارة على نحو مباشر ، فى حين قال (مفيد) :

ـ لابأس يا أبى .. فلنتم زواجها ..

وكان قوله ـ لأول مرة ـ هو فصل الختام ..

* * *

١٣ ـ المفاجأة ..

جرت الاستعدادات على قدم وساق ، داخل السراى ، لحفل زفاف (توحيدة) ، وعادت الابتسامة ترتسم على الوجوه ، بعد أن غابت عنها طويلًا ، والجميع يتسابقون لإعداد المكان ، وتعليق الزينات ، أو طهو كميات الأطعمة الهائلة ، المعدة لضيوف الحفل ..

الحاج (البنهاوى) وحده كان يحمل على شفتيه ابتسامة باهتة ..

ابتسامة لها طعم المرارة ..

كان من العسير جدًا عليه أن ينسى أمر أرضه ، التى ضاعت سدى ..

لقد عاش عمره كله من أجل هذه الأرض ..

عاش يصنع بكفاحه كل متر منها ..

كل حفنة تراب ..

كل قطرة ماء ..

لقد تمزق قلبه حقًا ، وهو يوقع وثيقة التنازل عنها للخاصة الملكية ، إلا أن اللقب المنتظر ، ولهفة ابنه (حسين) إليه ، جعلاه يقنع نفسه قليلًا ، بأن ذلك التنازل كان ضروريًا ..

أما الآن ، وقد خسر الأرض واللقب ، فالمرارة تسكن قلبه ، وتحفر بصماتها على جدرانه ، حتى ليستحيل أن تفارقه فى يسر ..

لقد وضع فكرة التعجيل بزواج ابنته الثانية ، لينتزع نفسه من تلك المرارة ..

ولكن هيهات ..

يبدو أنه لن ينسى أبدًا ..

ليس من الهين أن ينسى المرء ضياع ثمرة كفاح عمره ..
من المستحيل أن يفعل ..
وعلى الرغم من آلامه ، كان يحافظ على ابتسامته فوق شفتيه ..
وكان واثقا من أن أحدا من أبنائه لايشعر به ..
وكان هذا صحيحًا نسبيًا ..
لقد انشغلت بناته كلهن فى إعداد العروس للزفاف ، والاستعداد لاستقبال المدعوين ، فى حين راح (حسين) يشرف على إعداد المكان فى استعلاء كعادته ، وكأنما هو قائد حربى خطير ، أما (حافظ) ، فأخذ ينفذ أوامر شقيقه الأكبر فى استسلام تام ، يحمل لمسة من الخوف والرهبة ..
و (مفيد) اختفى فى ركن ما ..
هذا دأبه ..
ولم يكن الحاج (البنهاوى) يدرى أن (مفيد) لم يكن متهربًا من العمل ..
لقد كان يسعى خلف (إسماعيل) ..
كان يحتاج إلى التحدث معه فى شدة ..
وكان (إسماعيل) يتهرب من ذلك اللقاء فى استماتة ..
وأخيرًا التقى به (مفيد) وحدهما ، فاتجه إليه فى سرعة ، وقال :
— عم (إسماعيل) .. لماذا تتهرب منى ؟
تطلع إليه الرجل بنظرة غامضة ، قبل أن يشيح بوجهه ، قائلًا :
— ولماذا أتهرب منك ياولدى ؟
قال (مفيد) :
— إننى أنتظر الجواب منك .
صمت (إسماعيل) طويلًا ، وارتسمت الصلابة على ملامحه ، وهو يبعد عينيه عن (مفيد) ، الذى تابع فى حزم :

— لماذا أدليت بشهادة زور ياعم (إسماعيل) ؟
قال الرجل فى مرارة :
— ألم تكن حقًا وسط الحقول ، لحظة السرقة ؟
أدرك (مفيد) على الفور مايعنيه ذلك ، فأجاب فى سرعة وحسم :
— نعم .. كنت مع (مديحة) .. ابنتك .
أدار الرجل عينيه إليه فى دهشة ، ثم لم تلبث الدموع أن ترقرقت فى العينين ، دون أن ينبس اللسان بحرف واحد ، حتى أضاف (مفيد) فى صلابة :
— إننى احترم (مديحة) ياعم (إسماعيل) ، وأطلب يدها منك .
حدق الرجل فى وجهه بدهشة بالغة ، ثم أشاح بوجهه ، مغمغمًا فى اضطراب رجل سمع على التو مالم يتوقعه أبدًا :
— ماذا تقول ياولدى ؟
كرر (مفيد) فى حزم :
— أقول إننى احترم (مديحة) ابنتك ، وإنه ليشرفنى أن أطلب يدها منك .
بقى الصمت بينهما لحظات ، ثم أدار الرجل عينيه إلى (مفيد) ، يتفرس فى ملامحه فى توتر ، وكأنما أراد أن يستشف منها صدق الفتى وجديته ، قبل أن يغمغم فى إنكسار :
— ولكن (مديحة) لاتصلح لك ياولدى .
قال (مفيد) فى حدة :
— من قال هذا ؟.. إنها فتاة رائعة ، و.....
قاطعه مكملًا :
— ووالدها أجير لدى والدك .
عقد (مفيد) حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :
— وماذا فى هذا ؟.. ألم يبدأ عهد جديد ؟.. ألم تلغ الألقاب ، لتنتشر المساواة بين الناس ؟!

غمغم (إسماعيل) :

ــ هذا مبدأ نظرى بحت ياولدى ، فالناس درجات ، منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين .

هتف (مفيد) :

ــ بل هم على قدم المساواة .. كلهم بشر .. كلهم من نسل (آدم) و (حواء) .

تمتم (إسماعيل) مستسلمًا :

ــ ربما ياولدى .. ربما ..

ثم أضف فى انكسار :

ــ ولكن والدك وأشقاءك لن يقبلوا زواجك منها .

قال (مفيد) فى حرارة :

ــ دع هذا لى ياعم (إسماعيل) ، وعدنى أن توافق أنت على زواجى منها ، لو وافق والدى وأشقائى .. عدنى بذلك .

ارتسمت ابتسامة حانية فرحة على شفتى (إسماعيل) ، وهو يقول :

ــ لن أجد لابنتى من هو أفضل منك ياولدى .

تهللت أسارير (مفيد) ، وهو يهتف :

ــ أشكرك ياعم (إسماعيل) .. أشكرك ..

وترك الرجل ، وانطلق مسرعًا إلى حيث يجلس والده ، إلا أن حماسه لم يلبث أن أحبط بغتة بموجة من العقل ..

هل يصلح هذا الوقت ، لمناقشة والده فى مثل هذا الأمر ؟..

ألا ينبغى أن يحصل على (البكالوريا) أولا ؟..

بدا له أنه من الأفضل تأجيل مناقشة الأمر ، حتى انتهاء حفل زفاف (توحيدة) على الأقل ، وعلى الرغم من أن هذا القرار قد ضايقه ، إلا أن رجاحة

عقله المبكرة جعلته يتقبله ، لما ينطوى عليه من حكمة ورصانة ، فعاد أدراجه إلى حيث وقف شقيقه (حسين) ، يلقى أوامره إلى العاملين ، ووقف إلى جواره صامتًا ، فالتفت إليه (حسين) ، وقال فى مزيج من السخرية والصرامة :

ــ أين أنت ؟.. إننى أبحث عنك منذ زمن .

تمتم (مفيد) :

ــ كنت أؤدى بعض الأعمال .

قال (حسين) فى لهجة أقرب إلى السخرية :

ــ أعمال ؟!..

وهم بإضافة عبارة أخرى ، لولا أن ارتفع صوت يهتف :

ــ (حسين) بك .. (حسين) بك .. هناك برقية عاجلة لك .

كان هذا هو عامل مكتب بريد القرية ، وقد انطلق يعدو نحو السراى ، والفرحة تملأ وجهه كله ، حتى أن الأمر قد دفع الجميع إلى التوقف بغتة عن العمل ، و (حسين) يسأله فى لهفة وقلق :

ــ أية برقية تلك ؟

بلغ الرجل موقع (حسين) فى هذه اللحظة ، فدفع إليه البرقية ، وهتف وهو يلهث ، ووجهه يحمل ابتسامة عريضة :

ــ إنها برقية من زملائك الأبطال .

هتف (حسين) ، وهو يختطف البرقية :

ــ من زملائى ؟

وراح يلتهم كلمات البرقية فى سرعة ، وعيناه تلتمعان ببريق ظافر قوى ، قبل أن يندفع بغتة إلى حيث يجلس والده ، هاتفًا :

ــ ألم أقل لك إننى على حق ؟!.. لقد ربحنا الموقف كله .

سأله والده فى دهشة :

— أى موقف ؟.. وماذا تعنى ؟

فرد البرقية أمام والده ، وهو يهتف فى سعادة رائعة :

— انظر يا أبى .. إنهم يستدعوننى للقائهم .. يدعوننى لأصبح واحدًا منهم .

غمغم والده فى دهشة وحيرة :

— من هم ؟

أجابه والفرحة تتقافز من كل حرف من حروف كلماته :

— الضباط يا أبى .. الضباط الأحرار ..

.. وكانت مفاجأة حقًا ..

* * *

١٤ — استثناء ..

ارتبك (حسين) كثيرًا ، وهو يقف أمام مكتب البكباشى (رفعت كساب) ، الذى أرسل إليه برقية تحمل توقيع (الضباط الأحرار) ، وراح (حسين) يهندم زيه الرسمى للمرة الألف ، ويتحسس أكتافه فى توتر ، وقد آلمه — لأول مرة — أنه لايحمل على كتفيه رتبة رسمية ، بل يحمل فقط تلك العلامة التى تشير إلى كونه طالبًا بالكلية الحربية ..

ولم يطل انتظاره ، فلم تمض دقائق على وصوله ، حتى خرج إليه جندى المراسلة الخاص بالبكباشى (رفعت) ، وقال فى احترام :

— تفضل يا سيدى .

ازدرد (حسين) لعابه فى توتر ، وخطا داخل حجرة (رفعت كساب) ، الذى بدا له أكثر شبابًا مما كان يتوقع ، وهو يرفع عينيه إليه ، قائلًا بابتسامة عريضة :

— إذن فأنت (حسين البنهاوى) !..

غمغم (حسين) ، وقد عجز عن السيطرة على توتره :

— نعم يا سيدى .. هو أنا .

راح (رفعت) يتأمله فى صمت بضع لحظات ، ثم لوح بكفه ، قائلًا :

— أتعلم أنك صاحب أول برقية تأييد تلقتها حركتنا يا (حسين) ؟

قال (حسين) فى سعادة :

— ولى كل الشرف يا سيدى .

عاد (رفعت) يبتسم ، وهو يقول :

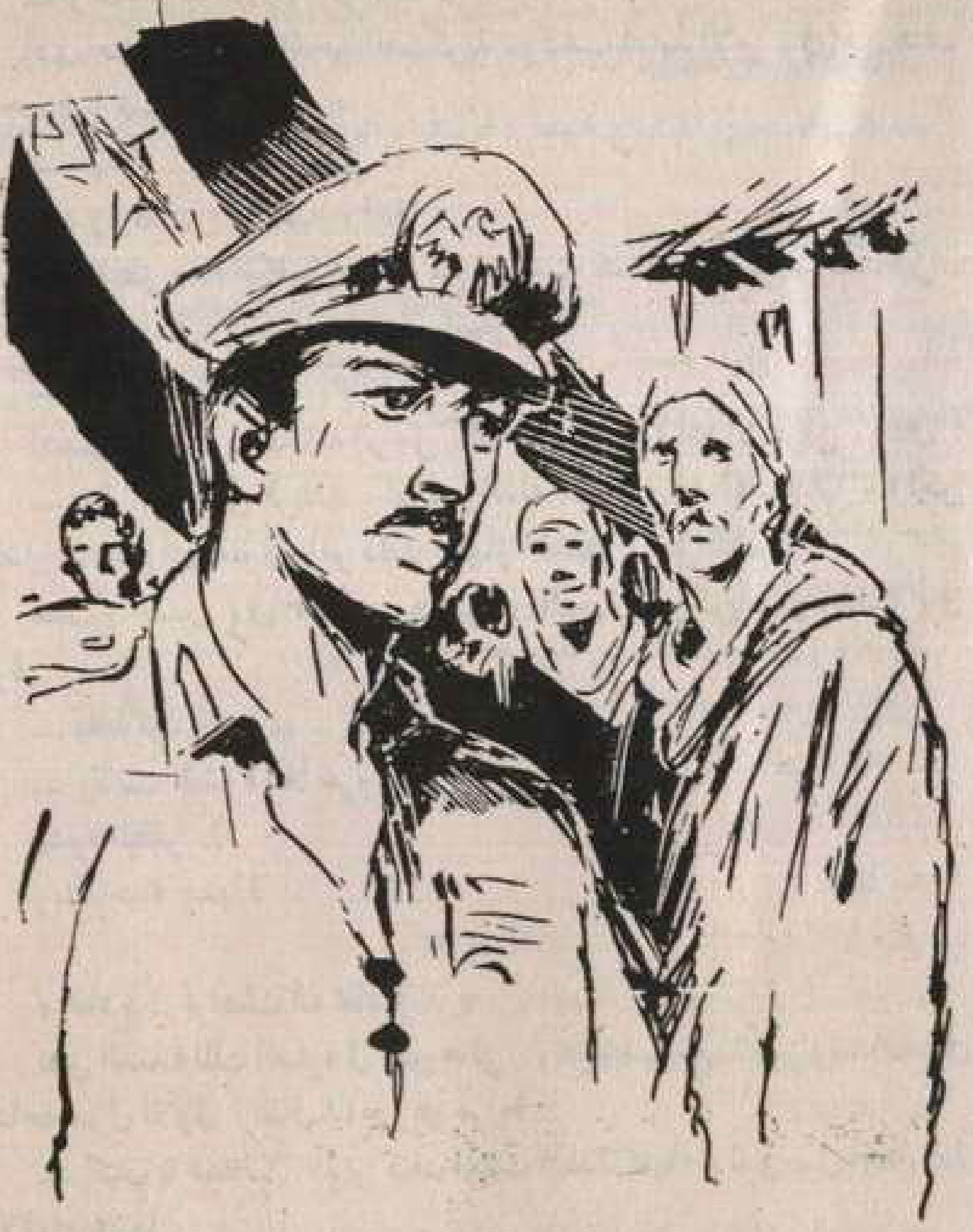

ـ كانت شجاعة حقيقية منك أن تبادر بتأييد حركة لم يتضح مصيرها بعد .
قال (حسين) فى حزم :
ـ لم أكن لأتردد فى ذلك ياسيدى ، فلقد فعلنا ماحلمنا به كلنا .
أومأ (رفعت) برأسه موافقًا ومستحسنًا ، ثم سأل (حسين) فجأة :
ـ هل كان حفل زفاف شقيقتك جيدًا أمس ؟
حدق (حسين) فى وجهه فى دهشة ، وغمغم :
ـ حفل زفافها ؟
ابتسم (رفعت) فى زهو وكأنما أسعدته دهشة (حسين) ، وقال فى تلذذ :
ـ لقد تزوجت ابن عمدة القرية المجاورة لكم .. أليس كذلك ؟
تمتم (حسين) فى ذهول :

ـ بلى ياسيدى ، ولكن كيف ..
قاطعه (رفعت) :
ـ لاتسألنى كيف عرفت ، فهذه طبيعتى .. أحب أن أعلم دومًا كل شىء عمن أعمل معهم .
غمغم (حسين) فى حيرة :
ـ تعمل معهم ؟ .
اعتدل (رفعت) ، ومال نحو (حسين) ، وهو يقول فى لهجة تشف عن خطورة الأمر : (حسين)
ـ اسمعنى جيدًا يا (حسين) .. إننا بصدد إنشاء جهاز أمنى جديد ، على غرار جهاز المخابرات البريطانى ، مهمته هى أن يعلم كل شىء عن كل شىء ، ومثل هذا الجهاز يحتاج إلى رجال مخلصين ، لايترددون فى الإبلاغ عن أقرب أقربائهم ، لو اشتموا فى حديثه وأسلوبه رائحة كراهية حركتنا ، أو محاولة تسفيهها .. إننا بداية عهد جديد يا (حسين) ، ولكل عهد أعداء .. هل تفهم؟

قالها والتفت إلى (حسين) ، الذى كان يحدق فيه فى ذهول ، ثم ابتسم فى زهو ، وأضاف :

— ومنحه رتبة ملازم أول أيضًا .

أدى جندى المراسلة التحية العسكرية ، وذهب لتنفيذ الأمر ، فى حين هتف (حسين) مبهورًا :

— سيدى .. هذا مستحيل !!

عقد (رفعت) حاجبيه ، قائلًا :

— لاتنطق هذه الكلمة أبدًا .. مع (رفعت كساب) لايوجد مستحيل .

هتف (حسين) ، وقد تضاعف انبهاره :

— بالتأكيد ياسيدى .. بالتأكيد .

ابتسم (رفعت) ابتسامة الرجل ، الذى يروق له قيادة الآخرين ، وقال :

— هيا .. عد إلى قريتك ، لتبلغ والدك خبر ترقيتك الاستثنائية ، ولكن حذار أن تبلغ أى مخلوق بأمر ذلك الجهاز الجديد .. هل تفهم ؟

هتف (حسين) فى حماس : وهو يؤدى التحية العسكرية لـ (رفعت) فى قوة :

— بالتأكيد ياسيدى .. بالتأكيد .

— وكانت النشوة تملأ عروقه عن آخرها ..

نشوة الظفر ..

وبدء حياة جديدة ..

* * *

« مخادع .. أراهنك أنه مخادع .. » .

نطق العمدة تلك العبارة فى حنق هائل ، وهو يجلس مع المأمور وحدهما ، فى ساحة منزل الأول ، فقال المأمور فى مرارة :

— كيف ياعمدة ؟.. ألم تر كيف التفت البلدة كلها حوله وحول أبيه ، بعد الإفراج عنهما .

هتف العمدة :

— القرية كلها كانت تتفاعل مع شائعة أطلقناها نحن ، وكل مافعله ذلك الثعلب (حسين) ، هو أنه أحسن استغلال الموقف بكل دهاء وخبث .

سأله المأمور فى عصبية :

— هل تجد مبررًا للإفراج عنهما ، فور قيام حركة الضباط الأحرار ونجاحها إذن ؟

هز العمدة كتفيه ، وقال :

— إنها الفكرة نفسها .. لقد تصور ضابط البوليس السياسى ، الذى ألقى القبض عليهما ، أنهما ينتميان حقًا إلى تنظيم الضباط الأحرار ، ولم يشأ جلب غضب هذا التنظيم على نفسه ، فأفرج عنهما :

قال المأمور متوترًا :

— ولكن (حسين) قال لى .....

قاطعه العمدة :

— مخادع يابك .. إنك لن تفهم اللعين أكثر منى ..

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

— هل تحب أن أثبت لك هذا ؟

سأله المأمور فى دهشة :

— كيف ؟

نهض قائلًا فى حزم :

— سنسأل (البنهاوى) نفسه على نحو مباشر .

هتف المأمور :

— تسأله ؟!

أجابه فى حسم :

— بالطبع .. إنه لن يكذب أبدًا .. هيا .

امتطى الاثنان جواديهما ، واتجها إلى سراى (البنهاوى) ، ولقد استقبلهما الحاج فى حرارة حقيقية ، وقد تصور أنهما إنما أتيا لتهنئته بزفاف ابنته ، وقادهما إلى حجرة استقبال الضيوف ، وهو يردد :

ــ شكرًا لكما .. شكرًا لك ياسعادة البك المأمور ، وشكرًا لك ياعمدة ..

جلس العمدة وهو يسأله فى خبث :

ــ كيف حالك الآن ياحاج ؟

أجابه (البنهاوى) ، وابتسامته العريضة تملأ وجهه :

ــ فى خير حال والحمد لله ياعمدة .. كيف تتصور حالى ، وقد تم زفاف ابنتى الثانية أمس فقط ؟

قال المأمور بغتة ، وكأنما لم يطق صبرًا على الانتظار :

ــ هل سمعت مايردده الناس فى القرية ياحاج ؟

سأله (البنهاوى) ، وابتسامته ماتزال تملأ وجهه :

ــ ماذا يقولون ؟

تبادل المأمور نظرة عصبية مع العمدة ، ثم قال :

ــ يقولون إن انتماءك و (حسين) إلى الضباط الأحرار مجرد شائعة .

بهت الحاج (البنهاوى) ، وتطلع إلى ضيفيه فى حيرة ، ثم غمغم :

ــ الواقع أن .....

قاطعه صوت (حسين) ، وهو يقول فى صرامة :

ــ سأقطع لسان كل من يقول هذا .

وعندما التفت الجميع إليه ، كان يحمل على كتفيه دليلًا لايقبل الشك ، على انتمائه للضباط الأحرار ..

كان يحمل رتبته الاستشائية الجديدة ..

* * *

١٥ ــ إلى المجد ..

لم يشعر الحاج (البنهاوى) فى حياته كلها بالسعادة ، مثلما شعر وهو يتحسس الرتبة الجديدة ، على كتفى ابنه ، بعد انصراف المأمور والعمدة ، قبل أن يهتف ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع :

ــ أخيرًا .. أخيرًا يا (حسين) .. أخيرًا رأيتك ضابطًا يابنى .

قال (حسين) فى زهو :

ــ وليس مجرد ضابط عادى ياأبى .. إننى أحد رجال الضباط الأحرار ، وأحمل رتبة لن يحملها رفاق دفعتى ، إلا بعد سنوات .

سأله (مفيد) فى دهشة :

ــ وكيف حدث هذا ؟

أجابه (حسين) مزهوًا :

ــ ألم أقل لك إننى أجيد قواعد اللعبة ؟.. كل هذا بسبب البرقيات التى أرسلتها .

سألته أخته (زينب) ، فى مزيج من الدهشة والفرح :

ــ كيف ؟

راح يقص عليهم كل ماحدث بالتفصيل ، وكلهم يستمعون إليه فى انبهار ، حتى انتهى من روايته ، فهتف زوج (نعيمة) :

ــ مبارك يا (حسين) بك .. هكذا يفخر المرء بمصاهرة عائلة (البنهاوى) .

عقد (مفيد) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

— ألم تكن تفخر بذلك من قبل ؟

أدار الرجل عينيه إليه فى استنكار ، وغمغم :

— بالطبع .. بالطبع .

أما (حافظ) ، فقد سأل (حسين) فى اهتمام :

— أيعنى هذا أنك قد أصبحت أقوى من المأمور ؟

أجابه (حسين) :

— بالطبع .

أطلقت (شريفة) زغرودة طويلة ، واحتضنت (ناهد) شقيقتها فى سعادة وهى تهتف :

— إنك تستحق هذا يا (حسين) .

شعر (حسين) بالفخر ، لهذا الاهتمام والتبجيل ، الذى أحاطته بهما أسرته ، والتفت إلى (مفيد) ، يسأله فى لهجة أشبه بالأوامر :

— وأنت .. ما رأيك ؟

هز (مفيد) كتفيه ، وقال :

— رأيى أنها مأساة .

ران الصمت التام بغتة داخل المكان ، وحدق الجميع فى وجه (مفيد) فى دهشة تمتزج بالاستنكار ، قبل أن يهتف الحاج (البنهاوى) :

— مأساة ؟!.. مأساة أن يبلغ شقيقك هذا الشأن ؟!

هزّ (مفيد) رأسه نفيًا ، وقال :

— بل مأساة أن تنتهك القواعد هكذا .

صاح به (حسين) محنقًا :

— أية قواعد ؟!

التفت إليه (مفيد) ، وقال فى هدوء :

— حاول أن تفهمنى يا (حسين) .. الأمر لا يقتصر على ترقيتك الاستثنائية ، ولكنه أكبر من ذلك .. لقد سن (رفعت كساب) هذا سنة سيئة ، وهى أن التقرب إلى رجال الحركة يمنح امتيازات خاصة ، وسيدفع هذا عشرات المنتفعين إلى الالتفاف حول حركة الجيش ، دون تأييد حقيقى صادق ، وهذا فى حد ذاته أخطر من أن يعلنوا عدم تأييدهم لها .

صاح (حسين) :

— كف عن فلسفتك السخيفة هذه .. من الطبيعى أن تمنح حركة الضباط الأحرار امتيازات خاصة ، لمن تمنحه ثقتها .

قال (مفيد) فى ضيق :

— ولكن ليس من الطبيعى أن يملك بكباشى سلطة منح طالب فى الكلية الحربية ترقية استثنائية .

صرخ به (حسين) فى ثورة :

— اخرس .. لست تفهم شيئًا .

تنهد (مفيد) فى يأس ، وقال :

— حسنًا يا (حسين) .. لن أناقش هذا الأمر ، ولكن ما حدث اليوم يجعلنى على يقين من أننا نتجه نحو عهد فوضى عنيف .

ابتسم (حسين) فى عصبية وازدراء ، وهو يقول :

— أيها الغر الساذج !!.. كيف لك أن تحكم على عهد جديد ، وأنت لم تحصل على البكالوريا بعد ؟

قال (مفيد) فى هدوء :

— وهل يحتاج الأمر إلى شهادة البكالوريا ، ليفهم المرء مثل هذه الأمور ؟

صاح (حسين) فى صرامة :

— ولا حتى الليسانس .

ولوح بكفيه ، مستطردًا :

ــ إنها أمور أعظم وأكبر من أن تدركها يافتى .. أعظم بكثير .

لم يواصل (مفيد) المناقشة ، ولكنه شعر فى أعماقه بخوف مبهم ..

خوف من المستقبل ..

* * *

استلقت (زينب) على فراشها شاردة ، تسترجع تفاصيل ماحدث فى تلك الليلة ..

قصة (حسين) ..

اعتراض (مفيد) ..

الموقف كله ..

وراحت فى أعماقها تتساءل : من منهما على حق ؟..

(حسين) أم (مفيد) ؟.

كانت لكل منهما مكانة خاصة فى نفسها ، فـ (حسين) هو أكبر البنين من أشقائها ، و (مفيد) هو آخر العنقود كما يقولون ..

ولكنها فى الواقع أكثر ميلًا لـ (مفيد) ..

ربما لأنها لاتشعر به كشقيق فقط ، وإنما كابن أيضًا ، فهى التى تعهدته برعايتها واهتمامها ، بعد وفاة أمهما ، وهو بعد رضيع مسكين ، وهى التى شاهدته ينمو لحظة لحظة ..

ثم إنه يبدو بالنسبة لها ــ أرجحهم عقلًا ، على الرغم من صغر سنه ..

وهى تشاركه مشاعره وأحاسيسه دومًا ..

هى أيضًا تشعر بقلق مبهم ، تجاه المرحلة القادمة ..

قلق قد يبدو ــ فى ظل الظروف الحالية ــ ليس له مايبرره ، ولكنها تشعر به ..

قطع أفكارها بغتة صوت (شريفة) ، وهى تتسلل إلى فراشها ، قائلة بابتسامة خبيثة :

ــ حان دورك .

التفتت إليها فى دهشة ، وهى تقول :

ــ دورى ؟!.. أى دور ؟.. ماذا تعنين ؟

أجابتها (شريفة) ، وهى تحتفظ بابتسامتها الخبيثة على شفتيها :

ــ حان دورك فى ركب الزواج .. لقد تزوجت (نعيمة) ، وستنجب الحفيد الأول بعد شهور قليلة ، ولحقت بها (توحيدة) أمس ، وهذا يعنى أنك التالية .

ابتسمت (زينب) فى شرود ، وهى تقول :

ــ هل يهمك الأمر إلى هذا الحد ؟

هتفت وهى تندس إلى جوارها ، تحت غطاء الفراش الرقيق :

ــ بالطبع ، فلقد أصبحت العقبة الوحيدة فى طريقى الآن .

ضحكت (زينب) ، وهى تقول :

— عقبة ؟!.. أنا عقبة أيتها الـ .....

صاحت (شريفة) تستوقفها :

— لا.. لن أقبل سبابًا واحدًا .

ضحكت (زينب) فى مرح ، وواجهت شقيقتها ، قائلة :

— ما رأيك لو قلت لك : إننى لا أفكر حاليًا فى الزواج ؟

مالت (شريفة) نحوها ، حتى كاد أنفاهما يتلامسان ، وهى تقول فى سخرية :

— سأقول لك : إنك كاذبة .

أطلقت (زينب) ضحكة صافية عالية ، وهى تقول :

— وما الدليل أيتها العبقرية ؟

أدنت (شريفة) شفتيها من أذن (زينب) ، وهمست :

— (ماهر) .

ارتجف جسد (زينب) ارتجافة لذيذة ، وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم فى خفوت وحياء :

— (ماهر) ؟!

همست (شريفة) :

— نعم (ماهر) .. ذلك الطويل النحيل الوسيم ، الذى يحلو له التنزه إلى جوار السراى ، وتحت نافذة حجرتنا بالذات ، والذى يتصادف وقوفك فى النافذة مع موعد مروره ، و.....

ضربتها (زينب) بأناملها فى رفق ، وهى تتمتم فى حياء :

— أيتها الخبيثة .

ضحكت (شريفة) ، قائلة :

— أقول يتصادف .

وانفجرت الاثنتان فى ضحك مكتوم ، خشية أن يبلغ صوتهما حجرة (حسين) ، ثم شردت (زينب) ببصرها لحظات وغمغمت :

— أتعلمين ماذا أتمنى يا (شريفة) ؟

سألتها فى اهتمام :

— ماذا ؟

شردت ببصرها لحظات أخرى ، ثم قالت فى حنان :

— أن أتزوج (ماهر) ، ونحيا معًا ألف عام .

ضحكت (شريفة) ، وقالت :

— أما أنا فأتمنى أن أتزوج أى مخلوق ، وأن أنجب ألف طفل .

انطلقت ضحكاتهما المرحة معًا ، دون أن تدرك إحداهما ما يخبئه لهما القدر ..

ويا له من قدر !!..

* * *

رفع (حسين) يده بالتحية العسكرية فى قوة ، أمام (رفعت كساب) ، الذى ابتسم ، قائلًا :

— ممتاز يا (حسين) .. لقد حضرت فى موعدك تمامًا ، وهذه واحدة من صفات الرجال الذين أبحث عنهم .

قال (حسين) فى حماس :

— فى خدمتك دومًا يا سيدى .

جلس (رفعت) خلف مكتبه ، وهو يقول :

— اسمع يا (حسين) .. المهمة التى ستؤديها ليست بالمهمة السهلة ، فهذا النوع من العمل السرى يحتاج إلى خبرات ومهارات خاصة ، ليس من الهين اكتسابها ، لذا فستحتاج إلى تدريبات مكثفة ، قبل أن تبدأ عملك معنا .

قال (حسين) فى حسم :

ــ أنا رهن إشارتك ياسيدى .

ارتسمت ابتسامة على شفتى (رفعت) ، وكأنما يروق له ذلك الأسلوب الذى يتسم بالطاعة والولاء الشديدين ، والذى يستخدمه معه (حسين) ، وقال :

ــ إننى أضع آمالا عظيمة على كتفيك يا (حسين) ، وأريد أن تبذل أقصى جهدك لتحقيق مانصبو إليه .. لقد تحديت (جمال) نفسه فى أننى أستطيع أن أصنع منك محترفا .

سأله (حسين) فى اهتمام :

ــ (جمال) من ياسيدى ؟

تطلع إليه (رفعت) لحظات فى صمت ، ثم قال :

ــ البكباشى (جمال عبد الناصر) .. هل سمعت به ؟

أجابه فى سرعة :

ــ بالطبع ياسيدى .. إنه ذلك الشاب الهادئ ، الذى يقولون عنه إنه الرجل الثانى فى الحركة ، بعد سيادة اللواء (محمد نجيب) نفسه .

عقد (رفعت) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ من الواضح أنك لاتعرفه جيدًا ، فـ (جمال) لايقبل لنفسه موقع الرجل الثانى أبدًا .

سأله (حسين) فى حيرة واهتمام :

ــ ماذا تعنى ياسيدى ؟

هز (رفعت) كتفيه ، ثم قال فى حزم :

ــ دعك من هذا .. إننا لن نضيع الوقت فى التحدث عن (جمال) .. لقد طلبت منك الحضور إلى هنا ، لتلتقى بالرجل الذى سيتولى مهمة تدريبك على أعمال وظيفتك الجديدة .

ثم ضغط زر الجرس المجاور لمكتبه ، وقال لجندى المراسلة الخاص ، الذى لبى النداء على الفور :

ــ اطلب من الصاغ أن يأتى .

أدى الجندى التحية العسكرية ، وغاب خارج الحجرة ، ثم لم يلبث شاب قوى البنية ، أن دلف إلى الحجرة ، وهو يقول فى هدوء :

ــ فى خدمتك ياسيادة البكباشى .

ولم يستطع (حسين) كتمان ذلك الذهول ، الذى ملأ نفسه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه فلقد كان مدربه هو آخر شخص يتوقعه ..

كان رجل البوليس السياسى ، الصاغ (إبراهيم) ..

(إبراهيم مكى) !!

* * *

١٦ ـ المدرب ..

مضت لحظات من الصمت ، و (حسين) يحدق فى وجه (إبراهيم مكى) فى ذهول ، قبل أن يقفز من مقعده ، هاتفًا :

ـ ولكن هذا مستحيل !!

سأله (رفعت) فى دهشة :

ـ ماهو المستحيل ؟!

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إبراهيم) ، فى حين هتف (حسين) فى سخط :

ـ هذا الرجل ينتمى إلى البوليس السياسى .. إنه واحد من رجال الملك .

قال (إبراهيم) فى مزيج من السخرية والبرود :

ـ من رجال الملك ؟!.. ياله من قول !.. إننى لم أكن أبدًا من رجال الملك أيها الملازم ، وإنما كنت أؤدى عملى .

صاح (حسين) فى غضب :

ـ أى عمل هذا ؟.. أن تعتقل الأبرياء ؟!

أجابه فى برود :

ـ بل أن أحمى الحكومة ، التى تمنحنى مرتبى .

هتف (حسين) :

ـ حكومة الملك ؟!

هب (رفعت) من مقعده ، وقال فى صرامة :

ـ كفى .. لست أسمح لكما بالتشاجر هكذا فى مكتبى .

التفت إليه (حسين) ، يقول فى توتر :

ـ هذا الرجل ياسيدى .....

قاطعه (رفعت) فى حزم :

ـ لقد كان يؤدى عمله ، ويطيع أوامر رؤسائه .

ثم عاد يجلس ، مستطردًا :

ـ ونحن نحتاج إلى خبرته الآن .

ارتسمت ابتسامة ساخرة شامتة ، على شفتى (إبراهيم) ، واحتقن وجه (حسين) فى سخط ، لم يمنعه من أن يغمغم :

ـ كما تأمر ياسيدى .

أشار (رفعت) إلى (إبراهيم) بالجلوس ، وهو يوجه حديثه إلى (حسين) ، قائلًا :

ـ سيبدأ الصاغ (رفعت) تدريبك ، اعتبارًا من اليوم ، وعليك أن تبذل أقصى جهدك ، لاستيعاب كل ماسيلقنك إياه ، بحيث يمكنك مباشرة العمل بعد أسبوعين على الأكثر .

سأله (حسين) فى قلق :

ـ هل الأمر عاجل إلى هذا الحد ياسيدى ؟

أجابه فى لهجة تشف عن أهمية الأمر :

ـ بل هو أكثر من ذلك ..

وتراجع فى مقعده مستطردًا فى حزم :

ـ إنه مستقبلى .. ومستقبل الحركة كلها .. مستقبل (مصر) .

* * *

لم يكد (حسين) ينفرد بـ (إبراهيم) ، فى مكتب هذا الأخير ، حتى سأله فى حنق واضح :

ــ كيف فعلت هذا ؟

استرخى (إبراهيم) فى مقعده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة مستهترة ، وهو يقول :

ــ فعلت ماذا ؟

هتف (حسين) :

ــ كيف بلغت هذه المرتبة ، بعد قيام حركة الجيش ؟

أجابه مبتسمًا :

ــ تمامًا مثلما فعلت أنت .. تسلقت أكتاف الآخرين .

صاح (حسين) :

ــ أيها الوقح .

انعقد حاجبا (إبراهيم) فى صرامة مخيفة ، وهو يقول :

ــ حذار أيها الملازم .. إلزم حدودك ، ولاتنس أنك تخاطب ضابطًا يفوقك رتبة .

انتبه (حسين) إلى تلك الحقيقة ، التى أخفاها الغضب عنه ، فاحتقن وجهه ، وعاد يجلس على مقعده ، متمتمًا :

ــ لن أنسى .

ثم استدرك وكأنما يعجز عن ضبط فضوله :

ــ ولكن كيف ؟..

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة رجل يعرف قدر نفسه جيدًا ، وقال فى هدوء :

ــ لم أفعل سوى مافعلته أنت .. أرسلت برقية تأييد للحركة ، ولم تكن برقيتى نتاج مخاطرة هوجاء ، مثلما فعلت أنت ، وإنما كانت لعبة ذكية ، بناء على ماتوفر لدى من معلومات عن قوة الضباط الأحرار ، وضعف الجهاز الحاكم والملك .

قال (حسين) فى توتر :

ــ إذن فالبرقية وحدها قد .....

قاطعه مبتسمًا :

ــ لا .. ليست وحدها ، فلم يكد الأمر يستقر ، حتى ذهبت إلى (رفعت) بك ، وعرضت عليه خبراتى وخدماتى ، ولم يرفض بالطبع ، بل رحب بى ، وكنت أنا صاحب فكرة إنشاء هذا الجهاز الجديد .

هتف (حسين) فى دهشة :

ــ أنت ؟!

هز (إبراهيم) كتفيه ، قائلًا :

ــ بالطبع .. والفكرة ليست فكرتى فى الواقع ، بل هى فكرة طرحها زميل من الزملاء ، وأعدت أنا طرحها على (رفعت) بك ، دون أن أذكر اسم الزميل بالطبع .

حدق (حسين) فى وجهه ، وهو يقول :

ــ وتخبرنى هذا بكل بساطة ؟!

أجابه بابتسامة عريضة :

ــ ولم لا ؟.. ليست هناك جدوى من أن تخبر أحدًا بالأمر ، فهم يتشبثون بى فى مجلس قيادة الحركة ، وبخاصة (رفعت كساب) .

ران الصمت عليهما لحظات ، و (حسين) يحاول استيعاب واقعه الجديد ، قبل أن يغمغم فى تردد :

ــ ولكن ماتزال هناك نقطة أخرى تحيرنى .

سأله (إبراهيم) فى هدوء :

ــ ماهى ؟

اعتدل (حسين) ، وهو يقول :

— لقد كنت تعلم — كما أخبرتنى — أن المنشورات التى عثرتم عليها فى سراى والدى ، والتى تحمل توقيع الضباط الأحرار زائفة ، وعلى الرغم من ذلك فلقد أطلقت سراحى وسراح والدى ، على نحو يوحى بأنك تؤمن تمامًا بانتمائنا إلى حركة الضباط الأحرار ، فما الذى يعنيه هذا ؟

هز (إبراهيم) كتفيه ، كعادته ، وأجاب فى هدوء :

— يمكنك اعتبار هذا نوع من الحذر الزائد ، فلقد ألقيت على نفسى حينذاك سؤالًا واحدًا ، إلا وهو : وماذا لو أنهما ينتميان إليها ؟.. وحسمًا للصراع فى داخلى ، أطلقت سراحكما .

ثم اعتدل قائلًا فى حزم :

— والآن لامزيد من الأسئلة .. ستستمع فحسب ، فسنبدأ تدريباتنا على الفور .

صمت (حسين) تمامًا ، وراح يصغى إليه فى اهتمام شديد ، وفى أعماقه راح يعد خطة جديدة ..

خطة الإطاحة بـ (إبراهيم مكى) ..

* * *

جلس الحاج (البنهاوى) فى شرفة السراى ساكنًا ، وبصره يشرد بعيدًا .. أبعد من المكان والزمان ..

لقد اقترب حلمه من مهبط الواقع ..

صحيح أنه قد خسر مايقرب من مائة وعشرين ألفًا من الجنيهات ، مع خسارته لمائتى فدان من أرضه ، جمعها بعرق وكفاح ودماء السنين ، إلا أنه مايزال أغنى أغنياء القرية ، والقرى المحيطة ..

إنه حتى أكثر ثراء من الباشا السابق ، صاحب العزبة المجاورة ..

ولقد بلغ ابنه (حسين) شأنًا كبيرًا فى السلطة ..

وفى المنصب ..

آه لو حقق (حافظ) و (مفيد) حلمه مثله ..

استرجع فى ذهنه بسرعة طبيعة (حافظ) المستكينة المرتاحة المنطوية ، وفشله لسنوات فى نيل شهادة البكالوريا ، واستسلامه التام لكل الأمور ، وزفر فى مرارة ، وهو يغمغم :

— لك الله يا (حافظ) .. إنك أضعف أبنائى بالفعل .

كان (مفيد) هو أمله ، بعد (حسين) ، إلا أن عناد (مفيد) الشديد ، وأسلوبه الجاف العنيف فى معالجة الأمور كان يقلقه ، وكان يخشى أن تنهار المملكة التى صنعها بكفاحه بعد وفاته ، بسبب اختلاف أبنائه ..

وكان هناك حل وحيد ينقذه من هذا ..

حل وحيد يحافظ على اسم (البنهاوى) على مر الأجيال ..

انتبه من شروده على صوت شاب يتنحنح ، فالتفت إلى مصدر الصوت ، ووقعت عيناه على شاب طويل وسيم مليح ، يقول فى ارتباك :

— صباح الخير يا حاج .

أجابه (البنهاوى) فى هدوء :

ــ صباح الخير يا ولدى .. تفضل .

جلس الشاب مرتبكًا ، ولم يشأ الحاج (البنهاوى) أن يزيد من ارتباكه ، بسؤاله عن من يكون ؟ أو لماذا جاء ؟ فالتزم الصمت ، وهو يتطلع إليه فى هدوء ، حتى قال الشاب :

ــ اسمى (ماهر سليمان) .. ابن الحاج (سليمان) ، صاحب الطاحونة القبلية .

ابتسم الحاج (البنهاوى) ، وهو يقول :

ــ كريم وابن كريم يا ولدى .. كيف حالك ، وكيف حال والدك ؟

لم يجب (ماهر) عن سؤال الحاج ، وإنما قال فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يعاوده الارتباك ، فيعجز عن إكمال ما أتى من أجله :

ــ أنا حاصل على ليسانس الحقوق يا حاج ، وأمتلك باسمى ستة أفدنة ، وأعمل فى وظيفة محترمة ، بديوان مديرية الغربية ، و.....

قاطعه الحاج ، وهو يبتسم ابتسامة أبوية :

ــ وماذا تريد يا ولدى ؟

اندفع (ماهر) يقول :

ــ (زينب) .

ثم ارتبك فى شدة ، وتضرج وجهه بحمرة الخجل ، وهو يستطرد فى سرعة :

ــ أقصد أننى أطلب يد كريمتك الآنسة (زينب) ، ولى جم الشرف ، و.....

قاطعه الحاج فى اهتمام :

ــ هل تعرف (زينب) ؟

بدا وجه (ماهر) شديد الحمرة ، وهو يقول :

ــ ومن يجهل منزلك وأبناءك يا حاج .. أنتم أعلام قريتنا .

ابتسم الحاج فى حنان ، وهو يسأله :

ــ ولماذا لم يأت والدك لطلب يدها يا ولدى ؟.. أليست هذه هى التقاليد ؟

خفض (ماهر) عينيه ، وهو يقول فى حياء :

ــ لقد خشى والدى أن يرفض طلبه ؛ لأننا أقل منكم ثراء ، وأردت أنا أن أستطلع رأيك ، قبل أن يواجه هو الموقف ، و.....

صمت (ماهر) ، وكأنما يعجز عن إتمام عبارته ، فابتسم الحاج (البنهاوى) ، وقال :

ــ عندما أتيت إلى قريتكم ، كنت أفقر أهلها يا ولدى .. المال لا يصنع الرجال ، ولكن الرجال يصنعون المال .

ثم ربت على كتفه مستطردًا :

ــ قل لوالدك أن يأتى لزيارتى .

تهللت أسارير (ماهر) ، وهو يهتف فى سعادة :

ــ حقًا يا حاج ؟

اتسعت ابتسامة الحاج ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد يا ولدى .. سأنتظره هذا المساء .

هتف (ماهر) :

ــ شكرًا يا حاج .. شكرًا ..

ثم انطلق يعدو عائدًا إلى منزله ، وكأنما لا يطيق صبرًا على إخبار والده ، فى حين أسرعت (شريفة) ، التى كانت تختلس السمع ، إلى حجرة (زينب) ، وهتفت بها فى سعادة :

ــ (زينب) .. (زينب) .. عندى لك خبر يستحق مكافأة كبيرة .

سألتها (زينب) فى لهفة :

ــ أى خبر ؟

مالت (شريفة) نحوها ، وهى تقول فى سعادة :

ـ كان (ماهر) هنا .. مع والدى .

خفق قلب (زينب) فى قوة ، وارتجفت حروف كلماتها ، وهى تقول :

ـ (ماهر) ؟!.. هنا ؟!

صفقت (شريفة) بكفيها كالأطفال ، وهى تقول فى جذل :

ـ نعم .. ولقد وافق والدى .

أمسكت (زينب) كتفى (شريفة) فى قوة ، وهى تهتف :

ـ وافق ؟. وافق على زواجنا ؟.

أومأت (شريفة) برأسها إيجابًا ، وهى تبتسم ابتسامة واسعة ، تكاد تلتهم وجهها كله ، وتستطرد فى سعادة :

ـ نعم يا (زينب) ، وافق مبدئيًا ، وسيحضر والد (ماهر) لمقابلته ، وطلب يدك رسميًا الليلة .

عاد قلب (زينب) يخفق فى قوة ، وارتفع حاجباها فى حب وحنان ، وهى تهمس فى سعادة :

ـ الليلة !!

مالت (شريفة) تطبع قبلة على وجنة شقيقتها ، وهى تقول :

ـ مبارك ياشقيقتى العزيزة .. الليلة سيتحقق حلمك ، ستتزوجين (ماهر) ، وتعيشان معًا ألف عام ..

استلقت (زينب) على فراشها فى نشوة ، وهى تقول :

ـ وغدًا يتحقق حلمك أنت يا (شريفة) ، وتتزوجين رجلا فاضلا عظيمًا ، وتنجبين ألف طفل ..

ضحكت (شريفة) ، وهى تقول :

ـ هذا إذا ما أتى الغد .

نعم ..

إذا ما أتى الغد ..

* * *

١٧ ـ الصدمة ..

رفع (رفعت كساب) عينيه عن أوراقه ، عندما سمع طرقات على باب مكتبه ، وقال بلهجته الصارمة المتعالية :

ـ ادخل .

دلف (حسين) إلى مكتبه ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، فقال (رفعت) :

ـ ماذا تريد يا (حسين) ؟.. هل أنهيت تدريبك الأول ؟

أجابه (حسين) بصوت جهورى :

ـ نعم ياسيدى .

ابتسم (رفعت) قائلًا :

ـ لاداعى لذلك الصوت القوى .. استرح .. إننا نتعامل هنا دون قيود صارمة ..

أرخى (حسين) وقفته العسكرية المتشددة ، وهو يغمغم :

ـ شكرًا ياسيدى .

اعتدل (رفعت) ، ووضع قدمه فوق أوراقه وهو يقول :

ـ حسنًا .. ماذا لديك ؟

تنحنح (حسين) ، وقال :

ـ إنه أمر يتعلق بالصاغ (إبراهيم مكى) ياسيدى .

سأله مبتسمًا :

ـ ماذا عنه ؟

هز (حسين) كتفيه ، دون أن ينتبه إلى أنه بذلك يقلد (رفعت) كثيرًا ، وقال فى صوت منخفض ، شأن من يذيع سرًا خطيرًا :

ـــ لست أثق به .

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن ينفجر (رفعت) مقهقهًا ، على نحو احتقن له وجه (حسين) ، قبل أن يقول (رفعت) ضاحكًا :

ـــ لاتثق به .. يالها من عبارة !

ثم مال إلى الأمام ، يسأله بغتة :

ـــ ولماذا لاتثق به ؟.. ألأنه كان يعمل فى البوليس السياسى ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى ضيق :

ـــ بل لأنه غير أهل للثقة ياسيدى .

تطلع إليه (رفعت) طويلًا فى صمت ، ثم تراجع فى مقعده ، وراح يعبث بقلمه ، قائلًا :

ـــ اسمع يا (حسين) .. كلنا فى مجلس القيادة نعلم حقيقة (إبراهيم مكى) وأمثاله .. إلا أننا نحتاج إلى خبراتهم ؛ لذا فنحن نسمح لهم بالعمل معنا ، عن ثقة فى أنهم لن يجدوا من هو أفضل منا ، فى الوقت الحالى على الأقل ، ولكن هذا لايعنى أن نمنحهم كل ثقتنا .

وعاد يميل إلى الأمام بغتة ، مستطردًا فى اهتمام :

ـــ لهذا أريد منك أن تراقبه .

بهت (حسين) للعبارة ، وغمغم فى دهشة :

ـــ أراقبه ؟!

أجابه (رفعت) فى حزم :

ـــ نعم .. أريد منك أن تستفيد منه أقصى استفادة ممكنة ، وأن تسلبه كل خبراته ، دون أن تمنحه ثقتك فى الوقت ذاته ، وفى نفس الوقت أريد منك أن تنقل لى كل مايفعله أو يقوله ، حتى نتخذ حذرنا منه .. هل تفهم ؟.

هتف (حسين) فى حماس :

ـــ بالتأكيد ياسيدى ..

ورقص قلبه طربًا فى ظفر ..

لقد جاءته الفرصة على طبق من ذهب ..

فرصة تحطيم خصمه ..

* * *

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى الحاج (البنهاوى) وهو يستقبل (ماهر) ووالده فى السراى ، وصافح والد (ماهر) فى حرارة وهو يقول :

ـــ مرحبًا بك ياحاج .. مرحبًا بك فى منزلك .

أجابه والد (ماهر) فى سعادة :

ـــ هو منزل الكرم والكرماء ياحاج .. ونعم النسب . .

جلس الثلاثة فى حجرة استقبال الضيوف ، وانضم إليهم (مفيد) و (حافظ) ، وراح الجميع يتبادلون أحاديث عادية ، حول حركة الضباط ، وشعبية (محمد نجيب) ، وغيرها من المواضيع العامة ، و (شريفة) و (زينب) ، و (ناهد) يسترقن السمع من الحجرة المجاورة فى لهفة ، حتى تنحنح والد (ماهر) واعتدل فى مجلسه ، ليقول :

ـــ لقد أتيناك الليلة لشأن حث عليه الله ورسوله ياحاج .

ابتسم الحاج (البنهاوى) ، وقال :

ـــ وأنا رهن إشارتك ياحاج (سليمان) .. مر بما تشاء .

هتف الحاج (سليمان) :

ـــ عفوًا ياحاج .. أنت سيد الجميع .

ثم ابتسم بدوره ، وهو يقول :

ـــ أتيت أطلب يد ..

قبل أن يتم عبارته ، تهللت أسارير الحاج (البنهاوى) ، وهو يتطلع إلى باب الحجرة ، هاتفًا :

ـ لقد وصل ابنى (حسين) .

هب الجميع لتحية (حسين) ، الذى رد تحيتهم فى نوع من التعالى المغرور ، وهو يلقى نظرة فاحصة طويلة على (ماهر) ووالده ، فى حين هتفت (زينب) فى الحجرة المجاورة فى سخط :

ـ أكان من الضرورى أن يصل (حسين) الآن ؟! كان والد (ماهر) سيطلب يدى .

ضحكت (شريفة) ، وهى تقول :

ـ اصبرى أيتها المتعجلة .. إن غدًا لناظره قريب .

أما (حسين) فقد جلس وهو يدير عينيه فى الحاضرين ، قبل أن يقول والده مبتسمًا :

ـ الحاج (سليمان) صاحب الطاحونة القبلية ، وابنه (ماهر) .

قال (حسين) فى لامبالاة :

ـ تشرفنا .

أشاح (مفيد) بوجهه فى ضيق من أسلوب شقيقه الفظ ، فى حين انكمش (حافظ) فى مقعده ، كعادته فى وجود (حسين) وتنحنح والد (ماهر) ، وهو يقول :

ـ الواقع أننا قد أتينا نطلب يد الآنسة (زينب) لولدى (ماهر) .

كان من الواضح أن الحاج (البنهاوى) يوافق على هذا ، فقد اتسعت ابتسامته فى سعادة وحنان ، وخفق قلب (زينب) ، وهى تنتظر الجواب ، وقبل أن يتفوه والده بكلمة واحدة ، قال (حسين) فى برود :

ـ ليس هذا وقت زواج (زينب) .

احتقن وجه الحاج (سليمان) فى شدة ، وشحب وجه ابنه (ماهر) ، وهو ينقل بصره بين وجهى الحاج (البنهاوى) ، الذى تجمدت ملامحه فى شدة ودهشة ، و (حسين) الذى بدأ شديد البرود ، وغمغم (ماهر) :

ـ ولكن الحاج قال .. أعنى أن ..

أرتج عليه ، فلم يتفوه بكلمة زائدة ، فى حين قال (حسين) بنفس البرود :

ـ لم تمض أيام بعد على زواج (توحيدة) ، و.....

قاطعه والده فى حزم يحمل رنة الغضب :

ـ والأفضل أن يتم زواج (زينب) بعد أسبوعين .

ارتجف قلب (زينب) بين ضلوعها ، وحدق (حسين) فى وجه والده فى ذهول ، فى حين التمعت عينا (مفيد) فى إعجاب ، وهتف (ماهر) غير مصدق :

ـ إذن فأنت توافق يا حاج .

رمق الحاج (البنهاوى) ابنه (حسين) بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـ نعم .. أوافق .

ثم مد يده إلى الحاج (سليمان) ، قائلًا :

ـ فلنقرأ الفاتحة ..

وانطلقت زغرودة فرحة ، من بين شفتى (شريفة) ..

* * *

لم يناقش (حسين) والده فيما حدث .. لقد انسحب قبل قراءة الفاتحة ، وذهب إلى حجرته غاضبًا ، ينتظر أن يستدعيه والده بعد قليل ، إلا أن الحاج (البنهاوى) تجاهله تمامًا ، حتى أنه لم يسأل عنه مطلقًا ، عندما لم يجده حول مائدة الإفطار فى الصباح التالى ، ولم يناقشه فى الأمر ، عندما اجتمعا حول مائدة الغداء ، فلم يطق (حسين) صبرًا ، وقال فى غضب :

ــ لقد أهنتنى إهانة بالغة أمس يا والدى .

انعقد حاجبا الحاج (البنهاوى) فى شدة ، وهو يقول فى حدة :

ــ أنا أهنتك ؟!.. بل أنت الذى صرت تتعالى على الجميع ، ولا تتورع حتى عن إهانة والدك .

بهت (حسين) لثورة والده ، التى لم يعهدها من قبل ، فغمغم :

ــ إننى لم أقصد أن ..

قاطعه والده فى ثورة :

ــ ليس من حقك أن تتدخل فى أمر يخص الكبار ، مادمت أنا حيًا .. لقد طلب (ماهر) يد (زينب) ، وأنا وافقت ، وسيتزوجان برغم أنف الجميع .. هل تفهم ؟.. برغم أنف الجميع .

انكمش (حسين) فى مقعده ، وهو يغمغم :

ــ كما تأمر يا أبى .. كما تأمر .

كان من الواضح أن الحاج (البنهاوى) شديد الثورة هذه المرة ، وأنه لم يعد يسمح لأحد بفرض إرادته عليه .. حتى ابنه (حسين) ؛ لذا فقد تابع بنفس الثورة ، التى احتقن لها وجهه فى شدة :

ــ إنك لم تعد كما كنت .. لقد أصابتك السلطة بالغرور ، ولم تعد تستحق ما منحتك إياه .. لم تعد تستحقه .

تمتم (حسين) :

ــ حسنًا يا أبى أنا لم أكن أقصد ، و.....

قاطعه صوت العمدة ، وهو يقول :

ــ لماذا هذا الشجار ؟

أدار الجميع عيونهم إلى العمدة ، وبذل الحاج (البنهاوى) جهدًا رهيبًا ، ليسيطر على أعصابه ، وهو يقول :

— إنه مجرد حوار عائلى .. مرحبًا ياعمدة .. تفضل الطعام .

حمل وجه العمدة ابتسامة متشفية ، لم ترق لـ (مفيد) ، وهو يقول :

— لقد تناولت غدائى ، ولكنى أتيت أسأل (حسين) بك عن صحة ما أذاعه المذياع .

التفت إليه (حسين) ، يقول فى توتر :

— ماذا أذاع ؟

تطلع العمدة إلى وجه (البنهاوى) ، الذى احتقن على نحو مخيف ، وقال فى بطء ، يحمل نبرة تشف واضحة :

— لقد أصدروا قرارًا بتحديد الملكية الزراعية .. سيصادرون مايزيد على المائتى فدان .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة وجزع ، وأدار (مفيد) عينيه إلى والده فى خوف وقلق ، ورأى وجه الحاج (البنهاوى) يزداد احتقانًا فى شدة ، وعيناه تكتسيان بعروق رفيعة متكاثفة ..

وفى أعماق (البنهاوى) ، انهار كيان ضخم ..

أرضه ضاعت ..

الأرض التى جمعها بكفاحه وعرقه ذهبت ..

ذهبت بقرار واحد ..

هدف حياته وكفاحها انهارا فى لحظة ..

وشعر بنهر من الدماء يصعد إلى رأسه وعينيه ، و.....

وسقطت رأسه فوق المائدة ..

وانطلقت صرخة (مفيد) :

— أبى .. أبى .

وألصق أذنه بصدر أبيه ، فى محاولة لسماع دقات قلبه ، ثم لم يلبث أن رفع وجهه فى شحوب هائل ، وهو يقول فى انهيار :

— لقد مات .. مات أبى .

وسقط (حافظ) فاقد الوعى ..

* * *

١٨ — الميراث ..

كانت جنازة (البنهاوى) مهيبة بحق ، وهى تعبر شوارع القرية فى صمت تام ، خلا حتى من صراخ النساء التقليدى ، فى القرى المصرية ، وهن يشيعن موتاهن ، وكأنما أضفى وقار الراحل وهيبته نمطًا خاصًا على تشيع جنازته ، أو أن ذلك الإطار الذى أحيطت به الجنازة قد حبس الصرخات فى حلوق النساء ، فلم تخرج القرية كلها لتشيع الرجل إلى مثواه الأخير ، مدفوعة بحبه واحترامه فحسب ، وإنما انضم إلى الصورة حشد من رجال الجيش ، تلتمع رتبهم الرسمية على أكتافهم ، ويتقدمهم عدد من الضباط الأحرار ، الذين هم محور حياة (مصر) كلها ، فى ذلك الوقت ..

ومضت الجنازة صامتة ، حتى تم إيداع (البنهاوى) مثواه الأخير ، فى تراب القرية التى شهدت كفاحه ونموه ، ثم بدأ أبناؤه يتقبلون العزاء ، وصافح (رفعت كساب) (حسين) فى حرارة ، وهو يقول :

— البقاء لله .. لاتستسلم للأحزان .

أجابه (حسين) فى لهجة عسكرية ، بدت عجيبة فى إطار الموقف :

— لن أفعل ياسيدى .

التفت (رفعت) يصافح (مفيد) ، قائلًا وهو يشد على يده فى قوة :

— القول نفسه ينطبق عليك .

غمغم (مفيد) ، وهو يجر الكلمات من حزنه اجترارًا :

— سأحاول .

ربت (رفعت) على كتفه ، ثم التفت إلى (حسين)، وقال وكأنما نسى جلال الموقف :

ـــ متى ستأتى إلى مكتبى ؟

أجابه (حسين) فى سرعة :

ـــ وقتما تشاء ياسيدى .

لوح (رفعت) بكفه ، قائلًا :

ـــ خذ أسبوعًا كاملًا ، ولكن حاول أن تتخلص من الأحزان فى سرعة .

أجابه بنفس اللهجة العسكرية :

ـــ سأحاول ياسيدى .

شعر (مفيد) بغصة فى حلقه ، وباشمئزاز ، عنيف فى أعماقه ..

كيف يمكنهما أن يتحدثا هكذا ، فى موقف له كل هذا الجلال ؟!..

ألم يعد لمشاعرهما مجال أو مكان ؟..

أصارت السلطة فى الحياة ملهية لهم عن الموت ؟..

تمنى لحظتها لو انفجر فى وجه شقيقه ، واتهمه بالعقوق والنكران ، إلا أنه راح يقاوم رغبته هذه فى شدة ، وهو يفكر فى شقيقهما (حافظ) ، الذى لم تحتمل أعصابه الصدمة ، فانهار تمامًا ..

هكذا هو (حافظ) دومًا ..

أضعف من أن يحتمل أية صدمة ..

ترى ماذا سيفعل المسكين ، بعد أن فقد والده ، الوحيد الذى كان ينقذه من بطش (حسين) به ؟..

يا للبائس المسكين ؟!..

أفاق (مفيد) من أفكاره على وجه أثار دهشته ..

وجه شاب وسيم ، برز من بين الصفوف فجأة ، واتجه إليه ، ومد يده يصافحه ، وهو يقول فى هدوء يحمل نبرة قوة واضحة :

ـــ البقاء لله .

صافحه (مفيد) فى حيرة ، وهو يتساءل : أين رأى هذا الوجه من قبل ؟

ثم فجأة تذكر ..

وأدهشته الذكرى ..

إنه ضابط البوليس السياسى ، الذى ألقى القبض على والده ، وعلى (حسين)، منذ شهور ..

إنه الصاغ (إبراهيم مكى) نفسه ..

وفى دهشة بالغة ، حدق (مفيد) فى وجه (إبراهيم)، الذى استدار إلى (حسين)، ومد يده يصافحه فى هدوء ، مكررًا عبارته نفسها ..

وأدرك (مفيد) على الفور أن علاقة ماقد نشأت بين (حسين) و (إبراهيم) ..

لم يدر طبيعة تلك العلاقة بالضبط ، ولكنهما تصافحا على نحو يؤكد اعتياد كل منهما على الآخر ، وتبادلا نظرة غامضة عجيبة ، توحى بأن كلا منهما يحمل فى قلبه كراهية لاحد لها ، تجاه الآخر ..

ولكن الموقف لم يكن يحتمل التفكير فى هذه النقطة أو بحثها ؛ لذا فقد انشغل (مفيد) و (حسين) فى تقبل العزاء ، حتى انفض الموقف ، فعادا إلى السراى ، وقد بدأ الحزن يتخذ مسارًا جديدًا فى نفسيهما ، بعد جرعة المشاعر المفرطة ، التى حقنهما بها الموقف ، منذ الوفاة ..

وفى السراى لم تكن النيران قد خمدت بعد ..

كانت بنات (البنهاوى) يذرفن الدمع فى غزارة ، ويبكين وينتحبن فى مرارة وحزن لاحد لهما ..

وحدها (زينب) بدت متماسكة إلى حد كبير ، على الرغم من التماعة دمع تملأ عينيها ، فاتجه إليها (مفيد) ، وسألها :

ـــ أين (حافظ) ؟

أجابته والمرارة تتقاطر من صوتها :

ـــ يجلس وحده فى الشرفة الخلفية .

سألها فى قلق :

ـــ هل يبكى ؟

هزت رأسها نفيا ، وهى تقول :

ـــ مطلقًا .

ثم أضافت فى حيرة :

ـــ وهذا مايقلقنى فى الواقع .

تنهد (مفيد) وقال :

ـــ سأذهب إليه .

اتجه إلى حيث يجلس (حافظ) ، الذى بدا صامتًا جامدًا ، كتمثال من حجر ، وعيناه تشردان بعيدًا فى الفراغ ، وقد بدتا أقرب إلى عينى جثة هامدة ، فجلس (مفيد) إلى جواره صامتًا بعض الوقت ، ثم ربت على كتفه ، مغمغمًا :

ـــ لاتستسلم لأحزانك هكذا .

لم يبد أن (حافظ) قد سمعه ..

لم يبد حتى أنه قد شعر بوجوده ..

لقد ظل صامتًا ، جامدًا ، يحدق فى الفراغ ، فتابع (مفيد) :

ـــ إنه والدنا كلنا ، و.....

لم يتم عبارته ، بل لم يشعر حتى بالرغبة أو الحاجة إلى ذلك ..

إنه يعلم جيدًا أن احتمال (حافظ) للصدمة بالغ الضعف ، وأنه سيمضى وقت طويل حتى يمكنه استيعاب ذلك التغير ، الذى طرأ على الأسرة ..

وعلى فقدان أبيه ، وسنده ، ودرعه ..

وتنهد (مفيد) مرة أخرى ، وربت على كتف شقيقه ، ثم نهض يغادر الشرفة ، إلا أن همسة تحمل اسمه جعلته ينتفض ، وجعلت قلبه يدق فى عنف ، وهو يلتفت إلى مصدرها ، هاتفًا بكل الوجد فى أعماقه :

ـــ (مديحة) ؟!

كانت تختفى بجسدها الضئيل وسط أشجار المانجو والبرتقال ، فى حديقة المنزل الخلفية ، ووجهها الرقيق يحمل خليطًا من القلق واللهفة والحنان ، وهى تلوح لـ (مفيد) بكفها الصغير ، وهم (مفيد) بالاندفاع نحوها ، ولكنها لوحت له ، قائلة :

ـــ ليس الآن .

ثم أضافت فى حنان وتعاطف :

ـــ البقية فى حياتك .. لقد أتيت لتعزيتك .

هتف بها فى خفوت :

ـــ أريد أن أراك .

ترددت لحظة ، ثم أجابته :

ـــ الليلة ، فى نفس الموعد والمكان .

غمغم :

ـــ فليكن .

أسرعت تنصرف مبتعدة ، وتابعها هو ببصره ، وقلبه يخفق خلفها ، وعاوده كل شوقه وحنينه إليها ، ثم لم يلبث أن شعر بغتة بتأنيب الضمير ؛ لأنه يفكر فى هذا ، ولم يمض سوى يوم واحد على وفاة أبيه ، فتمتم فى توتر :

ـــ يالها من حياة !

وألقى نظرة أخرى على (حافظ) الجامد ، ثم اتجه إلى حجرة استقبال الضيوف ، ووقع بصره فيها على (حسين) والحاج (سعفان) ، و (ماهر) ووالده الحاج (سليمان) ، وزوجى شقيقتيه (نعيمة) و (توحيدة) ، ولم يكد الحاج (سعفان) يلمحه ، حتى نهض يصافحه ، قائلًا :

ــ رحم الله والدك ياولدى .. كان خير الرجال .

شكره (مفيد) بتمتمة مبهمة ، واتخذ مكانه وسط المجلس ، وساد الصمت لحظات ، قبل أن يتنحنح (عمر) ، زوج (نعيمة) ، ويقول بصوت مرتفع :

ــ البقاء لله ..

همهم الجالسون بعبارات مبهمة ، يصعب تمييزها ، وعاد الصمت يغلف المجلس مرة أخرى ، قبل أن يقول (عمر) :

ــ أظن الأمر سيحتاج بعض الوقت ، لإتمام الإجراءات .

التفت إليه الجميع فى دهشة ، وسأله (حسين) فى شىء من الحدة :

ــ أية إجراءات ؟

رسم (عمر) على شفتيه ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

ــ إجراءات الميراث .

بدا الجواب أشبه برنين حاد ، انطلق بغتة فى حجرة صامتة ، فساد صمت تام بعده ، والجميع يحدقون فى وجه (عمر) ، فى مزيج من الدهشة والاستنكار ، قبل أن يهتف (عبد الحكيم) ، زوج (توحيدة) :

ــ أهذا وقت الحديث عن الميراث يارجل ؟

قال (عمر) فى حدة :

ــ وماذا يمنع ؟

هتف (عبد الحكيم) غاضبًا :

ــ الرجل لم يبرد فى قبره بعد .

قال (عمر) فى تبجح :

ــ الحق لايعرف موعدًا .

كاد (عبد الحكيم) ينفجر فى وجهه مرة أخرى ، لولا أن قال (حسين) فى صرامة :

ــ أى حق يارجل ؟

التفت إليه (عمر) ، وقال :

ــ حق الجميع .. ألسنا كلنا شركاء فى هذا الميراث ؟..

لقد تركت لكم الحكومة مائتى فدان ، وسيبلغ نصيب زوجى منها مايقل قليلًا عن عشرين فدانًا ، و.....

بدا الغضب على وجه (حسين) ، وهب من مقعده بحركة حادة ، فهتف (عمر) ، وهو يتراجع حاميًا وجهه بذراعه :

ــ إننى أطالب بحق زوجى فحسب .

صاح (حسين) غاضبًا :

ــ أنت أحقر مخلوق رأيته فى حياتى .

هتف (عمر) :

ــ إنه حق .

تنحنح الحاج (سعفان) ، وقال مترددًا :

ــ ليس لك الحق فى قيراط واحد يا (عمر) .

التفت إليه (عمر) ، صارخًا :

ــ هل تجامله ياحاج (سعفان) ؟.. الشرع لايقبل المجاملة .. ستصادر منهم الحكومة ثمانمائة فدان ، وستترك مائتين ، وستوزع الأفدنة الباقية على الجميع ، وبحسبة بسيطة ستجد أن نصيب زوجى هو واحد من أحد عشر نصيبًا ، و.....

قاطعه الحاج (سعفان) فى صرامة :

— قلت لك إنك لن تحصل على قيراط واحد .

صاح (عمر) ، وقد أفزعه مجرد تصور عدم حصوله على شىء :

— ماذا تعنى يا حاج (سعفان) ؟

أما (مفيد) فقد شعر بالقلق ، وهو يغمغم :

— ماذا تقول يا حاج (سعفان) ؟

أطلق الحاج (سعفان) من صدره زفرة قوية ، وقال :

— أنتم تعلمون جميعًا أن الحاج (البنهاوى) كان يحلم دومًا بأن يمتد اسمه إلى عشرات الأجيال ، و.....

قاطعه (حسين) فى توتر صارم :

— لا داعى للمقدمات الطويلة ، ادخل فى الموضوع مباشرة .

تنحنح الحاج (سعفان) ، وبدا الحرج على وجهه ، وهو يقول :

— الواقع أن الحاج (البنهاوى) (رحمه الله) ، لم يترك ميراثه للتقسيم الشرعى .

ثم أشاح بوجهه ، وكأنما يتجنب مواجهة الموقف ، قبل أن يستطرد :

— لقد كتب أرضه كلها لـ (حسين) .. (حسين) فقط .

* * *

١٩ ــ الظلم ..

حدق الجميع فى وجه الحاج (سعفان) فى ذهول ، وكان أكثرهم ذهولًا هو (حسين) نفسه ، الذى كان أيضًا أول من تحدث ، مغمغمًا :

— لى أنا ؟!

أومأ الحاج (سعفان) برأسه إيجابًا ، وقال متحاشيًا النظر فى وجوه الجميع :

— لقد كان (رحمه الله) يخشى أن تتفتت الأرض من بعده ، وأن يسىء كل منكم التصرف فى نصيبه منها ؛ لذا فقد واتته تلك الفكرة ، ولقد حاولت أنا إثناءه عنها ، وإقناعه بترك الشريعة مجراها ، ولكنه أصر على أن يكتب أرضه كلها باسم (حسين) ، بعقود بيع صحيحة ، سدد عنها الرسوم المطلوبة كاملة ، على أن يتولى (حسين) مهمة الإنفاق على الجميع ، ومنحهم أنصبتهم الشرعية من إيراد الأرض سنويًا .

هتف (عمر) محنق :

— ولكن هذا ظلم .. ظلم بين .

صرخ (حسين) فى وجهه :

— تحشم يا رجل .. إنها إرادة أبى .

صاح (عمر) محتجًا :

ــ إرادته تتجاوز شرع الله ؟

صرخ (حسين) بكل صرامته :

ــ اخرس .. لاتنطق بكلمة واحدة ضد أبى ، وإلا ألقيت بك فى السجن .

انكمش (عمر) فى مقعده ، وهو يعلم أن منصب (حسين) الجديد يمنحه القدرة على تحويل تهديده إلى حقيقة ، خاصة وأن طبيعة (حسين) لاتجعله يتورع عن ذلك ، وران صمت قصير على المكان ، والجميع يتطلعون فى وجوه بعضهم البعض فى حيرة ودهشة ، قبل أن يشق صوت (مفيد) حاجز الصمت ، وهو يقول :

ــ إنه حقًا ظلم .

التفت إليه (حسين) فى حركة حادة عنيفة ، وبوجه يحمل كل الغضب والاستنكار ، فرفع (مفيد) صوته ، مكررًا فى حزم :

ــ إنه حقًا ظلم .. ليس من حق مخلوق فى الكون كله أن يخالف قانون الخالق .

هتف (حسين) فى غضب :

ــ اصمت .

ولكن (مفيد) تابع متجاهلًا الأمر :

ــ لقد حدد الخالق (عز وجل) كل قواعد الإرث ، ولن نبلغ حكمته سبحانه أبدًا ، مهما بلغنا من الشأن والقوة والحكمة ، والواجب هو أن نطيعه دون نقاش ، ودون تحوير لأوامره .

هتف به (حسين) مرة أخرى :

ــ قلت لك اصمت .

قال (مفيد) فى صرامه :

ــ لا .. لن أصمت عن الحق .. الساكت عن الحق شيطان أخرس .. إن ماحدث ظلم .. ظلم .. ظلم .

صاح (حسين) فى غضب :

ــ هكذا ؟!.. وماذا لو أن أبى قد منحك أنت الأرض كلها ؟.. أكنت ستجد الأمر ظلمًا أيضًا ؟

لوح (مفيد) بكفه فى مرارة ، واستدار متجهًا إلى الخارج ، فصرخ به (حسين) فى ثورة :

ــ إلى أين ؟.. إننى لم أتم حديثى بعد .

أجابه (مفيد) فى غضب :

ــ سأنصرف يا (حسين).. سأنصرف قبل أن أختنق .

ثم التفت إليه ، مستطردًا فى حنق :

ــ وحتى لانوصم دومًا بأننا ، فى ليلة دفن والدنا ، قد رحنا نتشاجر من أجل الميراث .

واندفع يغادر المكان فى حدة واضحة ، فهتف (حسين) فى غيظ :

ــ غبى !

نهض (ماهر) ووالده ، وقال الأول فى حياء :

ــ أظن أنه قد حان وقت الانصراف .. البقية فى حياتك أنت يا (حسين) بك

غمغم (حسين) فى اقتضاب :

ــ شكرًا .

صحبهما الحاج (سعفان) فى انصرافهما ، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع (حسين) ، سوى أن غمغم وهو يصافحه :

ــ كل الأوراق ستجدها فى دولاب والدك .

صافحه (حسين) فى صمت ، وودعه حتى بوابة السراى ، ثم عاد إلى حجرة استقبال الضيوف ، وتطلع إلى زوجى شقيقتيه فى تحد سافر ، وهو يقول :

— ما رأيكما فيما سمعتماه ؟

عقد (عمر) حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

— سنقول رأينا فى المحكمة .

وهب مغادرًا المكان فى غضب ، وهو يهتف باسم زوجته ، التى لحقت به فى سرعة ، وتبعته فى انكسار وحزن ، وبطنها الممتلئة بجنينها الأول ترجرج أمامها ، فى حين سأل (حسين) (عبد الحكيم) فى صرامة :

— ما رأيك أنت ؟

تبادل معه (عبد الحكيم) نظرة متحدية ، قبل أن ينهض قائلًا :

— لم نكن أبدًا فى حاجة إلى أموال والدك .

ولم يلبث أن انصرف مع زوجه فى صمت ..

وبقى (حسين) وحده ..

والعجيب أنه ، على الرغم من حزنه لوفاة والده ، قد شعر فى تلك الليلة بنشوة عجيبة ..

نشوة القوة ...

* * *

كان (مفيد) يحتاج حقًا إلى لقاء (مديحة) هذا المساء ..

إنه لم يرها منذ زمن طويل ..

منذ كشف والدها الحاج (إسماعيل) طبيعة العلاقة بينهما ..

وهو يشعر بشوق هائل إليها ..

ثم إنه يحتاج إلى من يستمع إلى أحزانه ولوعته ، وإلى من ينتشله من ذلك الشعور العام بالاختناق ، الذى أورثته إياه وصية والده ..

كان يشعر أن هذا ظلم مجحف ..

ظلم بين ..

لماذا فعل والده هذا ؟..

لماذا خالف مشيئة الخالق (عز وجل) ، ومنح (حسين) وحده الثروة كلها ؟..

لم يكن حزن (مفيد) من أجل الثروة ، ولا من أجل فوز (حسين) بالغنيمة كلها ، ولا حتى من أجل فقدان الأرض ، التى يعشقها ..

وإنما كان من أجل الظلم ..

لم يكن يحتمل أبدًا مبدأ الظلم ..

أبدًا ..

انتزعه من أفكاره صوت (مديحة) ، وهى تهمس :

— (مفيد) .

التفت إليها بكل جوانحه وجوارحه ..

.. بكل شوقه وحبه ..

بكل لهفته ولوعته ..

ولم تكد تلقى كفيها الرقيقتين فى راحتيه ، وقلبها يرتجف حبًا وشوقًا ، حتى كاد يضمها إلى صدره ، ويفرغ على شفتيها لواذع قلبه ، لولا أن أخلاقه وشهامته قد منعاه من تدنيسها بفعل حرمه الله (سبحانه وتعالى) إلا على الأزواج ، فهتف فى همس يحمل كل الحب :

أوحشتنى .

تضرج وجهها بحمرة الخجل ، مغمغمة :

— وأنت .

جلسا متجاورين فوق العشب الطرى ، عند جذع الشجرة الكبيرة ، وتشبثت أصابع كل منهما بكف الآخر ، وهما يلتهمان وجهى بعضهما البعض ، بنظرات ملؤها اللهفة والشوق والحب ، حتى همست (مديحة) :

— البقية فى حياتك .

غمغم :

— أشكرك .

ثم سألها فى خفوت :

— هل يعلم والدك أنك هنا ؟

تمتمت وهى تملأ عينيها بوسامته :

— إنه يتظاهر بأنه لا يعلم ، ولكننى واثقة من معرفته بلقائنا ، ويبدو أنه يعلم كم تعانى ، ولم يشأ منعى من التخفيف عنك .

تنهد مغمغمًا :

— والدك رجل رائع يا (مديحة) .

تنازعته عوامل شتى ، مابين لهفته للقياها ، وذلك الوعد الذى قطعه بأن تكون علاقتهما واضحة نظيفة ، ثم لم تلبث أخلاق الفارس فى أعماقه أن انتصرت ، فنهض قائلًا فى حزم :

— (مديحة) .. صحيح أننى أتلهف شوقًا لقضاء حياتى كلها معك ، ولكن لابد لك من العودة إلى منزلك .

سألته فى دهشة وخوف :

— لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

أمسك كتفيها بكفيه ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول :

— اسمعى يا (مديحة) .. لقد كنت أذوب طلبًا للقائنا معًا ، وكان لدى الكثير لألقيه على مسامعك ، إلا أننى قد قطعت وعدًا بعدم لقائك سرًا مرة أخرى .

سألته فى دهشة :

— لمن قطعت هذا الوعد ؟

أجابها فى حزم :

— لا عليك فى هذا .. المهم أننا لن نلتقى مرة أخرى ، إلا على نحو رسمى وشرعى تمامًا ، وعلينا أن نحتمل الفراق ، حتى يأتى ذلك اليوم .

ترقرقت الدموع فى عينيها ، مع حيرتها وقلقها ، فرسم على شفتيه ابتسامة ، وهو يضيف :

— ولن يتأخر ذلك اليوم يا (مديحة) .. لن تمض شهور قليلة ، إلا وتصيرين .

اتسعت ابتسامة ، وهو يضيف فى حنان :

— زوجتى ..

وانطلقت فى قلبها زغرودة فرح قوية ..

* * *

حافظت (زينب) على ثباتها وتماسكها ، حتى أوى الجميع إلى فراشهم ، ثم اندست فى فراشها ، وتركت لدموعها العنان ..

وانسكبت دموعها تغرق وسادتها ..

لقد أحبت والدها كما لم تحب فتاة والدها ..

كان لها بمثابة مثل أعلى ، وصرح تحترمه وتوقره ..

إنها حتى ، فى اختيارها لـ (ماهر) ، كانت تحب تلك الصورة فيه ، التى تذكرها بكفاح والدها فى شبابه ..

صورة الشاب المقاتل ، الذى لايتراجع أمام الصعاب ..

لهذا تحب (ماهر) ..

ولهذا تتمنى أن تتزوجه ..

فجأة امتلأت نفسها بعذاب الضمير ..

كيف تفكر فى الزواج ، ولم يستقر والدها فى قبره سوى صباح اليوم ؟..

آلمتها الفكرة ، فانهمر مزيد من الدموع من عينيها ، ودفنت وجهها فى الوسادة فى شدة ..

ولكن (ماهر) ظل يلح على أفكارها ..

ودون وعى ، عادت تفكر فى أمره ..

ترى هل تحبه حقًا ، أم تحب فيه صورة شباب والدها فحسب ؟..

بدا لها أن الوسيلة الوحيدة للتيقن من هذا هو أن تتزوجه ، وبعدها سيتضح لها الأمر ..

راودتها فجأة فكرة عجيبة ، خفق لها قلبها ..

ــ هل ستتزوج (ماهر) حقًا ؟..

لقد وافق والدها على إتمام هذا الزواج ، ثم رحل ، وترك كل شىء لـ (حسين) ، فهل يوافق (حسين) على ماوافق عليه والده ؟.

لا أحد يدرى ..

لقد انتهى عهد (محمد البنهاوى) ..

وبدأ عهد (حسين البنهاوى) ..

ومن المستحيل أن يتساوى العهدان ، وأن يتشابها ..

هذا هو المستحيل بعينه ..

* * *

٢٠ ــ القفــزة ..

ابتسم العمدة ابتسامة باهتة ، وهو ينهض لاستقبال المأمور فى ساحته ، وصافحه فى هدوء ، قائلًا :

ــ صباح الخير يا (باشا) .

تلفت المأمور حوله فى جزع ، وهو يقول :

ــ صه يارجل .. لاتخرب بيوتنا .. لقد ألغوا الألقاب .

ضحك العمدة ، وهو يقول :

ــ ألغوا الألقاب الفعلية ياسعادة المأمور ، وليس الشرفية .

عقد المأمور حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

ــ ماذا تقصد ؟

ضحك العمدة مرة أخرى ، قائلا :

ــ لاشىء ياسعادة المأمور .. لاشىء .. ما رأيك فى قدح من الشاى ؟.

جلس المأمور إلى جواره ، وهو يقول فى صرامة :

ــ قبل تناول الغذاء أم بعده ؟

أطلق العمدة ضحكة خبيثة ، وقال :

ــ قبله وبعده .. نحن رهن إشارتك ياسعادة المأمور .

لم تمض إلا دقائق حتى وصلت أقداح الشاى ، وارتشف المأمور رشفة من قدحه ، قبل أن يقول فى مرارة :

ــ أرأيت ماآل إليه الأمر ياعمدة ؟.. لقد مات (البنهاوى)، وترك كل شىء لابنه (حسين)، الذى أصبح أحد أصحاب الشأن فى العهد الجديد ، وخسرنا نحن كل شىء .

ابتسم العمدة فى دهاء ، وهو يقول :

ــ خسرنا ؟!.. من قال هذا ياسعادة المأمور ، كل مافى الأمر هو أن اللعبة قد اتخذت مسارًا جديدًا ، يتناسب مع متغيرات الحياة .

قال المأمور صارمًا :

ــ لن يمكننا محاربة (حسين البنهاوى) الآن ياعمدة ، أطلق العمدة ضحكة صفراء ، وقال :

ــ لماذا ياسعادة المأمور ؟.. ألأنه يتمسح فى ركب رجال حركة الجيش ؟.. لا ياباشا .. عيبك هو أن تلك الأمور تبهرك ، وتلغى قدرتك على حسن تقديرك للأمور ، ولكن من حسن الحظ أنها لاتفعل هذا بى ، فـ (حسين) الآن ليس سوى تابع يخشى فقدان موقعه ، وأمثاله يدفعهم التوتر إلى الحذر الزائد ، فى نفس الوقت الذى يدفعهم فيه الإحساس بالقوة إلى إبراز مواطن سطوتهم ، وهذا التناقض يوقعهم عادة فى حماقات يسهل تحطيمهم بواسطتها .

سأله المأمور مبهوتًا :

ــ أتظن هذا ؟

رفع العمدة قدح الشاى إلى شفتيه ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد ياسعادة المأمور .. إن الأمور لم تختلف كثيرًا كما أخبرتك .

وارتشف رشفة كبيرة من الشاى ، فى صوت مسموع ، قبل أن يضيف :

ــ وحربنا مع عائلة (البنهاوى) لم تحسم بعد ..

* * *

ابتسم (رفعت كساب) فى إعجاب ، عندما رأى (حسين) يخطو إلى مكتبه ، بعد ثلاثة أيام فقط من وفاة والده ، ويؤدى التحية العسكرية فى قوة ، فمد يده يصافحه ، وهو يقول :

ــ لماذا لم تتم إجازتك ؟

أجابه (حسين) :

ــ أحب أن أدفن أحزانى فى عملى ياسيدى .

أومأ (رفعت) برأسه ، وقال :

ــ رائع .. هكذا أحب الرجال .

ثم جلس ، وتراجع فى مقعده ، واستطرد فى اهتمام :

ــ كيف حال تدريباتك ؟

أجابه (حسين) وكأنما كان ينتظر هذا السؤال :

ــ إننى أتقدم فى سرعة ، ولكن ..

سأله (رفعت) فى قلق :

ــ ولكن ماذا ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وكأنما يوحى بأهمية الأمر وخطورته ، قائلًا :

ــ لست أثق فى إخلاص هذا الرجل ، أو ولائه للحركة .

سأله (رفعت) :

ــ أتقصد (إبراهيم مكى) ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا ، وهو يجيب :

ـــ ومن غيره ؟

استرخى (رفعت) فى مقعده مرة أخرى ، وهو يسأله :

ـــ وما الذى يجعلك تشك فى أمره ؟

أجابه (حسين) فى سرعة :

ـــ إنه يتعامل مع الأمر فى سخرية ، كما لو كان لا يثق فى استمرار نجاح حركة الجيش .

سأله (رفعت) فى لهجة توحى بأنه لم يهتم كثيرًا بالنقطة الأولى :

ـــ وماذا أيضًا ؟

ارتبك (حسين) ، وبدا له أن محاولته قد باءت بفشل ذريع ، وتمتم :

ـــ إنه .. إنه ..

ثم اندفع فجأة يستطرد :

ـــ إنه أحد أعضاء البوليس السياسى سابقًا .

ابتسم (رفعت) ، وهو يقول :

ـــ أهذا هو أسلوب تفكيرك ؟

زاد هذا من ارتباك (حسين) ، فقال متوترًا :

ـــ إننى لا أثق فيه فحسب .

تأمله (رفعت) لحظة من صمت ، ثم نهض يربت على كتفه ، قائلًا :

ـــ اسمع يا (حسين) .. سبق أن أخبرتك أننا نحتاج إلى خبرة (إبراهيم مكى) ، وأننا لا نهتم كثيرًا بولائه للحركة من عدمه ، ولكن من الواضح أنك تكرهه للغاية ، وأنك تحاول إقصاءه بوسائل صبيانية .

تمتم (حسين) فى توتر :

ـــ سيدى .. إننى ..

قاطعه (رفعت) مبتسمًا :

ـــ لست أريد تفسيرات أو تبريرات .. سنعتبر أنك لم تقل شيئًا ، وأننى لم أسمع شيئًا .. قل لى : ما رأيك لو تصحبنى إلى نادى الجزيرة ؟

هتف (حسين) مبهورًا :

ـــ نادى الجزيرة ؟!.. ألا يقولون إن هذا النادى يقتصر على الأمراء ، و...؟

لوح (رفعت) بكفه ، قائلًا :

ـــ لقد مضى هذا العهد .. ستفتح أبواب نادى الجزيرة للشعب .. إنه عصر المساواة ..

ثم عاد يبتسم ، مستطردًا :

ـــ والآن هيا بنا .. ستجد الجميع هناك .

ابتهج (حسين) ، وشعر بالفخر كثيرًا ، وهو يجلس إلى جوار (رفعت) ، فى سيارة الجيش ، التى تقلهما إلى نادى الجزيرة ، وشعر وهو يخطو بقدميه على أرض النادى ، أنه قد قفز قفزة اجتماعية خطيرة ..

لقد استطاع دخول نادى الجزيرة ، الذى لم يكن يسمح بدخوله فيما مضى ، سوى لحاملى الألقاب الرسمية وأسرهم ، من الأمراء والبشوات ..

وفى كثير من الزهو ، صحب (رفعت) إلى تلك القاعة الأنيقة ، التى مازالت شعار الملكية ، والتى صارت منذ قيام حركة الجيش مقرًا لاجتماع مجلس قيادة الحركة ، وقتما يحلوا لأعضائه ..

والتقى (حسين) ـــ للمرة الثانية فى حياته ـــ بالضباط الأحرار ، وصافحهم واحدًا واحدًا ، وبخاصة ذلك الشاب الطويل ، ذو العينين اللامعتين ، الذى يحمل اسم (جمال عبد الناصر) ..

وداعبه (عبد الحكيم) ، وهو يتمنى له حظًا سعيدًا فى النادى ، غامزًا بعينيه على نحو خاص ، فى حين قال (صلاح سالم) فى حزم :

— معذرة يافتى .. هذا الاجتماع يقتصر على أعضاء مجلس القيادة فحسب ..

ارتبك (حسين) ، واحتقن وجهه خجلًا ، فابتسم (رفعت) ، وربت على كتفه ، قائلًا :

— لاتتوتر إلى هذا الحد .. هيا .. اذهب وأمرح قليلًا فى النادى ، وسنرحل معًا .

غمغم (حسين) :

— شكرًا ياسيدى .

غادر القاعة الفاخرة ، وهو يلقى نظرة أخيرة على التاج الملكى ، الذى يزين أحد جدرانها ، وراح يسير فى حديقة النادى على غير هدى ، حتى سمع صوتًا أنثويًا بالغ الرقة ، بدا فى أذنيه أشبه بتغريد عشرات البلابل ، يقول :

— أأنت أحدهم ؟

التفت إلى مصدر الصوت بكيانه كله ، وتطلع مسحورًا إلى شابة فاتنة ، لها بشرة فى لون اللبن ، المختلط بقطرات من عصير الفراولة ، وعنق ناعم طويل ، وشعر أسود فاحم طويل ، يسدل على كتفيها فى رقة ونعومة ، ويصنع من وجهها لوحة رائعة ، بعينيها الواسعتين الخضراوين ، وفمها الدقيق الساحر ..

وابتسمت تلك الفاتنة ابتسامة تؤكد ثقتها فى سحرها ، وفى تأثيرها عليه ، وقالت بصوت أكثر رقة :

— أما من جواب ؟

تمتم مسحورًا مأخوذًا :

— جواب لماذا ؟

اتسعت ابتسامتها ، فبدت أكثر جمالًا من (أفروديت) نفسها ، وهى تقول :

— سألتك أأنت أحدهم ؟

تمتم مبهورًا :

— أحد من ؟!

أطلقت ضحكة عذبة قصيرة ، اختلج لها قلبه بين ضلوعه ، وهى تقول :

— أحد الضباط الأحرار بالطبع .

أجابها فى خفوت :

— لا .. لست أحدهم .

ثم استدرك فى سرعة :

— ولكننى أعمل معهم .. إننى الذراع اليمنى للبكباشى (رفعت كساب) .

رفعت حاجبيها الرفيعين الجميلين ، وهى تقول :

— إذن فأنت رجل ذو شأن .

هتف فى حماس :

— بالطبع .

تأملته لحظات بعينيها الساحرتين ، قبل أن تقول فى خفوت :

— أتعلم أنك وسيم جدًا ؟

لم يصدق أذنيه ، وهو يسمع تلك العبارة ، من فاتنة مثلها ، فهتف :

— أنا ؟

ثم استدرك :

— أشكرك ياسيدتى .

رفعت رأسها فى ترفع ، وهى تقول :

— الأميرة (عايدة) .

هتف مبهورًا ، وهو يملأ عينيه بوجهها وفتنتها مرة أخرى :

ـ أميرة ؟

قالت فى لهجة تحمل شيئًا من السخرية :

ـ أيبهرك أن تتحدث إلى أميرة ؟

لم ينتبه إلى الرنة الساخرة فى صوتها ، وهو يقول :

ـ بل يسحرنى أن أتحدث إلى فاتنة مثلك .

ابتسمت شأن امرأة نجحت فى إغواء رجل ، وقالت فى هدوء :

ـ أشكرك .

ثم استدارت تنصرف فى هدوء ، فاستوقفها هاتفًا :

ـ أهذا كل شيء ؟

التفتت إليه تسأله فى رصانة :

ـ ماذا تعنى ؟

ارتبك وهو يقول :

ـ أعنى ألن نلتقى مرة أخرى ؟

ابتسمت قائلة :

ـ سأفكر فى هذا .

ثم أضافت فى سرعة :

ـ إننى آتى إلى هنا كل يوم .

وابتعدت فى خطوات رقيقة سريعة ، وهى تعلم أنها قد تركت خلفها رجلًا مسحورًا ..

رجلًا قفز قفزة واسعة ..

فى سماء الحب ..

* * *

٢١ ـ قضـية ..

أطلق (حسين) صفيرًا منغومًا من بين شفتيه ، وهو يرتدى ثيابه فى الصباح التالى ، وتضاعفت داخله تلك الفكرة ، التى تراود عقله منذ زمن ، فى أن يحث عن شقة أنيقة فى (القاهرة) لسكناه ، بعد أن مل السفر يوميًا إلى هناك ، وبدا شديد الاهتمام بزيه هذا الصباح ، وشديد العناية بالنجوم التى تزين كتفيه وكأنما يسعى إلى إبراز رتبته جيدًا ، وبدا مرحًا للغاية ، حتى أنه قد ابتسم ابتسامة واسعة فى وجه (مفيد) ، وهو يدلف إلى حجرته ، وقال له فى مرح واضح :

ـ صباح الخير يا (مفيد) .. كيف حالك ؟

جلس (مفيد) على طرف فراش شقيقه ، وهو يقول :

ـ فى خير حال .. ولكن (حافظ) ليس كذلك ؟

سأله (حسين) بنفس المرح :

ـ لماذا ؟

أجابه (مفيد) فى حدة مباغتة :

ـ إنك لاتهتم بشأنه قط يا (حسين) ، على الرغم من أنه مصاب بنوع من الانهيار العصبى الفائق ، حتى أنه لم يذرف قطرة دمع واحدة ، حزنًا على والدنا ، إلى هذه اللحظة .

عقد (حسين) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ الرجال لايبكون .

صاح (مفيد) :

ـ هذا القول لاينطبق على (حافظ) .. أنت تعلم أنه ضعيف الشخصية ، ولايحتمل الصدمات عادة ، ومن الواضح أن وفاة والدنا قد أصابته بصدمة شديدة .

قال (حسين) فى حدة :

ـ لست طبيبًا متخصصًا لتقول هذا .

لوح (مفيد) بذراعه ، قائلًا :

ـ فلنسمع قول طبيب متخصص إذن .

صمت (حسين) ، وهو يتطلع إليه ، قبل أن يقول مستنكرًا :

ـ أتريد أن تعرض (حافظ) على طبيب نفسانى ؟

قال (مفيد) :

ـ ولم لا ؟

صاح (حسين) غاضبًا :

ـ ألا تدرك طبيعة وضعى ومركزى الآن .. أتريد أن يقال إن شقيق (حسين البنهاوى) مصاب بالجنون ؟

هتف (مفيد) :

ـ أليس هذا أفضل من أن يصاب بالجنون بالفعل ؟

صاح (حسين) :

ـ ومن أدراك أن هذا سيحدث ؟

ـ ومن أدراك أنه لن يحدث ؟

ـ هذه الأمور فى علم الغيب .

ـ ولكن الله (سبحانه وتعالى) أمرنا بالأخذ بالأسباب .

ـ لاترتد عباءة الدين .

ـ ولاتنزع أنت معطف العلم .. شقيقنا يتعرض لأزمة نفسية عنيفة .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع فى مرارة :
ـ ولو كان أبى حيًا ماتركه هكذا .
ران الصمت لحظات ، و(حسين) يتطلع إليه فى غضب ، ثم قال فى صرامة :
ـ لو .....
واندفع يغادر الحجرة كالعاصفة ، فعض (مفيد) شفتيه فى غيظ ، مغمغمًا :
ـ صدقت (زينب) .. لقد بدأ عهد جديد ..

✲ ✲ ✲

لم يدر (ماهر) ما الذى يمكن أن يحدث ، بشأن زواجه من (زينب) ، بعد وفاة (البنهاوى) ، وشعر بالحرج من مناقشة الأمر ، فى مثل هذه الظروف ، ولكنه راح يسير جيئة وذهابًا من أمام السراى ، وتحت نافذة حجرة (زينب) ، وهو يأمل رؤيتها يومًا ، دون أن يدرى أن المسكينة كانت تراقبه من فتحات النافذة الخشبية ، وقلبها يخفق فى لوعة وأسى ، ويحاول إقناعها بمناداته ، ولكن عقلها يعود فيستنكر مجرد التفكير فى أمر الزواج من (ماهر) ، وهى لم تطلع ثوبها الأسود بعد ..
وفى هذه الليلة بالذات لم تعد تحتمل ، فلم تكد تلمحه يسير أسفل النافذة ، حتى فتحتها ، وأطلت عليه دون أن تنبس بنت شفة ..
ولم ينبس هو أيضًا بنت شفة ..
فقط اختلج قلباهما فى حب ولهفة ، وكل منهما يملأ عينيه بملامح الآخر ..
لحظتها فقط أدركت (زينب) أنها تحب (ماهر) ..
لحظتها فقط حددت مشاعرها نحوه ..
وبكل الحب ، لوحت له بكفها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية محبة ، اختلطت بخيطين من الدموع الصامتة ، انحدرا على وجنتيها ..

ودون أن تنطق ألسنتهما حرفًا ، دار بينهما حوار طويل :
ـ أحبك ..
ـ وأنا أيضًا ..
ـ طال اشتياقى إليك ..
ـ لن يبلغ شوقى .
ـ ترى هل نلتقى ؟..
ـ إننى أحلم بهذا .
ـ متى ؟
ـ من يدرى ؟
ـ سأنتظر ..
ـ لن يطول الانتظار بإذن الله .
وفى حنان ، مال (ماهر) على أنامله ، وأودعها قبلة دافئة ، ثم رفع كفه إلى شفتيه ، ودفع القبلة إلى شفتى (زينب) بنفخة هادئة كالنسيم ..
وتلقت (زينب) القبلة على شفتيها ، كما لو أن (ماهر) يحتويها بين ذراعيه ، على الرغم من الأمتار التى تفصل بينهما ، وهى تطل عليه من نافذة الطابق الثانى ..
وفى صعوبة ، انتزع هو قدميه من الأرض انتزاعًا ..
وفى عسر ، جذبت هى ضلفتى النافذة الخشبية ..
وافترق الحبيبان وقد بردت نار شوقهما قليلًا ..
افترقا على وعد بلقاء غامض ..
لقاء لايدرى سوى الله وحده ، أيتم فى هذه الدنيا ..؟
أم فى دار البقاء ..؟

✲ ✲ ✲

ابتسمت الأميرة (عايدة) ابتسامة هادئة واثقة ، عندما رأت (حسين) يعبر بوابة نادى الجزيرة ، وعيناه تبحثان عنها فى لهفة ، وتعمدت تركه يبحث عنها لحظات ، قبل أن تلوح له بيدها ، هاتفة :

ــ أنا هنا .

تهللت أساريره كلها ، وهو يتجه نحوها فى خطوات أشبه بالعدو ، قبل أن يهتف :

ــ كيف حالك ؟

ضحكت قائلة :

ــ هذه الاستهلالية تناسب الرجال لا النساء .

غمغم خجلا مرتبكا :

ــ معذرة .

أمسكت كفه فى بساطة ، وهى تبتسم فى دهاء ، وكأنما تعلم جيدًا تأثير ملمس أناملها الرقيقة لكفه ، وقادته إلى مائدة منعزلة ، فى شرفة النادى ، وقالت :

ــ كنت أعلم أنك ستأتى .

هتف بها فى حماس :

ــ ماكنت لأتأخر أبدا .

ابتسمت فى ثقة ، وكأنما راق لها الجواب ، أو كانت تتوقعه ، ثم سألته فى اهتمام :

ــ كيف حال عملك مع (رفعت كساب) ؟

أجابها فى زهو :

ــ عظيم .. إننى أستعد لتقلد منصب كبير ، فى إدارة جديدة ، ستصبح أقوى سلطة فى الدولة يومًا ما .

قالت فى حماس :

ــ رائع .

ثم مطت شفتيها ، مستطردة :

ــ على الرغم من أننى لا أؤيد هذه الحركة كثيرًا .

سألها فى دهشة :

ــ لماذا ؟

أجابته فى ضحكة عصبية :

ــ أتسألنى ؟.. لقد أتيتم للقضاء علينا ، ولتجريدنا من كل ألقابنا وممتلكاتنا .

قال محاولا الدفاع :

ــ إننا نهدف إلى المساواة .

قالت ساخرة :

ــ أية مساواة ؟.. حتى بين المتسولين توجد فروق ، فهناك من يترأس آخرين ، ومن يتسول فى مناطق راقية ، وهناك من يرأسه غيره ، ولا يملك حتى نصف ما يتسوله .

سألها فى دهشة :

ــ وكيف تعلمين أمرًا كهذا ؟

قالت ساخرة :

ــ من الروايات .

ثم مالت نحوه ، تضيف فى تحد :

ــ أخبرنى ما الذى فعلته حركتكم هذه حتى الآن ..؟.. لم تفعل سوى التدمير .. إلغاء الألقاب ، مصادرة أموال وممتلكات أسرة (محمد على) ، منع السفر خارج البلاد بدون تصاريح خاصة ، اعتقال السياسيين .. قانون الإصلاح الزراعى ونزع الملكية .. أهكذا ترون الثورية ؟.. منع فقط ؟

ارتبك وهو يقول :
ــ إنها مجرد مرحلة ، ثم ..
قاطعته ساخرة :
ــ ثم ماذا ؟.. هل ستذبحوننا ؟
زفر فى ضيق ، وهو الذى كان يتوقع لحظات عاطفية سعيدة ، لاهجومًا شرسا ، وقال :
ــ يبدو أنك تنظرين إلى الثورة بمنظار أسود .
قالت فى سخرية :
ــ ثورة ؟!.. هل أطلقتم على انقلابكم هذا اسم الثورة ؟
ثم لوحت بكفها ، مستطردة :
ــ هذا لايغير من الأمور شيئًا على أية حال .. فلتكن ثورة .. سيضفى هذا عليها لمسة شاعرية على الأقل .
عقد حاجبيه ، قائلًا :
ــ أهذا كل ماستتحدث فيه ؟
ضحكت قائلة :
ــ لابالطبع .. إنه مجرد حوار .. ثم إننى لست ناقمة عليكم على أية حال ، على الرغم من أنكم قد استوليتم على بعض مجوهراتى .. أعنى كلها .
ثم مالت نحوه بغتة ، مستطردة :
ــ قل لى : أين تقيم ؟
أدهشه السؤال ، ولكنه أجاب فى سرعة :
ــ فى سراى والدى ، فى قريتنا .
رفعت حاجبيها ، هاتفة فى دهشة :
ــ سراى ؟!.. إذن فأنت أحد أعيان الريف .

ثم رسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة ، وهى تستطرد :
ــ ولماذا لاتقيم فى (القاهرة) ؟
تمتم وكأنما لم تخطر الفكرة بباله أبدًا :
ــ هنا ؟
مالت نحوه ، وهى تقول فى همس :
ــ سيكون هذا أفضل ، فلو أنك تقيم هنا ، فسيمكننا أن نلتقى فى شقتك .
خفق قلبه ، وهو يقول :
ــ حقًا ؟!
ازداد ميلها نحوه ، حتى شعر بأنفاسها العطرة تملأ أنفاسه ، وهى تهمس :
ــ أليس هذا أفضل من اللقاء هنا ؟
همس وقلبه ينبض فى عنف :
ــ بالتأكيد .. لقد حسمت قضية تشغل فكرى منذ زمن .
وضرب سطح المنضدة فى رفق ، مستطردًا فى حزم :
ــ سأترك القرية ، وأحيا هنا ، فى (القاهرة) ..
وبدأت ملامح العهد الجديد تتضح ..

* * *

٢٢ ـ مفاجأة ..

رفع (رفعت كساب) عينيه إلى (حسين)، وتطلع إليه طويلًا ، قبل أن يبتسم قائلًا :

ـ تقيم في (القاهرة) ؟!.. بالطبع .. هذا ما كان ينبغي لك أن تفعله منذ البداية .. ماذا ستفعل في قريتك الصغيرة ؟.. المستقبل هنا .. في قلب الثورة .

ونهض في حزم ، مستطردًا :

ـ سنبحث لك عن شقة أنيقة واسعة ، تليق بك وبمنصبك الجديد .. ما رأيك في شقة على النيل ، في (جاردن سيتى) ؟

لم يصدق (حسين) أذنيه ، وهو يهتف :

ـ هذا أروع مما تصورت ياسيدى .

قال (رفعت) في حماس :

ـ فليكن .. لقد أمرت الثورة بترحيل صحفي أرمني خارج البلاد ، وشقته خالية في الوقت الحاضر ، ويمكنك أن تتسلمها من الغد .

هتف (حسين) في امتنان بالغ :

ـ كيف أشكرك ياسيدى ؟.. كيف ؟

رفع (رفعت) سبابته أمام وجهه ، محذرًا :

ـ ستدفع إيجارها بالطبع .

ضحك (حسين)، وهو يقول :

ـ بالطبع .

ابتسم (رفعت)، وهو يقول :

ـ بالمناسبة ، هناك شكوى مقدمة ضدك .

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يسأله في دهشة :

ـ ضدى أنا ؟!

ضحك (رفعت)، قائلًا :

ـ لا تقلق هكذا .. إنها شكوى تافهة ، قدمها زوج شقيقتك (عمر) إلى (محمد نجيب) نفسه ، يقول فيها إنك قد استوليت على ميراث والدك كله لنفسك ، ويطالب بالعدل والإنصاف .

هتف (حسين) في غضب :

ـ ذلك الحقير !! لقد كتب والدى الأرض كلها باسمى قبيل وفاته .

أجابه (رفعت) في هدوء :

ـ أعلم ذلك ، ولكن أحد المحامين الكبار يقول : إنه لو استطاع أشقاؤك إثبات أن عقد البيع صورى ، وأنك لم تملك أبدًا مايكفى ثمنًا للأرض ، فسيمكنهم استصدار حكم بعدم صحة البيع ، وتوزيع الميراث شرعيًا !

اندهش (حسين) لحظات ، ثم قال في عصبية :

ـ هذا لو وصل الأمر إلى القضاء .

اتسعت ابتسامة (رفعت) ، وهو يقول :

ـ لقد وصل .

حدق (حسين) في وجهه بدهشة ، فاستطرد :

ـ لقد رفع (عمر) قضية بهذا الشأن صباح اليوم .

هتف (حسين) :

ـ كيف عرفت ذلك ياسيدى ؟

رفع (رفعت) حاجبيه ، هاتفًا :

ـ كيف عرفت ؟!.. ياله من سؤال يا (حسين) !.. أنسيت أنك تتلقى تدريبات في هذا الشأن ؟.. في فن المعرفة .

ثم (حسين) :
ـــ بالتأكيد .
ثم استطرد فى توتر وقلق :
ـــ ولكن ماذا أفعل لو أن (عمر) استصدر قرارًا بإلغاء البيع ؟
ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة ، وقال :
ـــ لن يفعل .
ـــ قال (حسين) :
ـــ كيف ؟.. إنه رجل شره للمال ، وشديد العناد ..
قاطعه (رفعت) مبتسمًا :
ـــ دع لى هذا الأمر .. وسيتنازل (عمر) عن القضية .
ثم أشعل سيجارته ، مستطردًا فى غموض :
ـــ لن يكون أمامه سوى أن يفعل ..
واتسعت ابتسامته ..

* * *

تابع (مفيد) بعينيه شقيقه (حسين) ، وهو يعد حقائبه ، للانتقال إلى شقته الجديدة فى (القاهرة) ، وقال فى ضيق :
ـــ إنك تترك أمورًا خلفك بلا حسم يا (حسين) .
قال (حسين) فى برود :
ـــ كل الأمور يمكن حسمها ، ثم إننى لست ذاهبًا إلى القمر .. إنها (القاهرة) فحسب .
ـــ وماذا عن زواج (زينب) ؟
ـــ هذا الـ (ماهر) لا يروق لى .
ـــ ولكن والدنا (رحمه الله) وافق على زواجها منه .
ـــ فليكن .. لتتزوجه ، لو أنه يحلو لها .

ـــ بهذه البساطة ؟!
ـــ أتحب أن ألجأ إلى التعقيدات ؟
ـــ لا .. وبالمناسبة ، لقد عرضت (حافظ) على طبيب .
التفت إليه (حسين) فى حدة ، عندما بلغ هذه النقطة وهتف مستنكرًا :
ـــ طبيب ؟!.. ألم نناقش هذا الأمر من قبل ؟
تجاهل (مفيد) ذلك السؤال الاعتراضى ، وأكمل :
ـــ والطبيب يقول إنه مصاب بانهيار عصبى تام ، وبانفصام شخصية وقتى ، بسبب عجزه عن تقبل الأمر الواقع ، وصراع رغباته مع واقعه ، ويؤكد الطبيب ضرورة نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية لعلاجه ..
قاطعه (حسين) فى صرامة :
ـــ لن يذهب .
قال (مفيد) فى حدة :
ـــ سيصاب باكتئاب تام لو لم يذهب ..
هتف (حسين) فى غضب :
ـــ قلت لك إنه لن يذهب .. لن يردد خصومى أبدًا أن شقيقى مجنون .
صاح (مفيد) :
ـــ فى هذه الحالة سأذهب أنا معه .
انتزع (حسين) مسدسه من سترته ، وهو يقول فى غضب صارم :
ـــ عندئذ أفضل أن أقتله .
وكان (مفيد) يعلم أن (حسين) قادر على فعلها حقًا ..
ودون تردد ..

* * *

أدارت (عايدة) عينيها فى أرجاء شقة (حسين) الفاخرة ، وهى تقول فى لامبالاة :

ـ جيدة إلى حد ما .
هتف (حسين) فى حماس :
ـ إننى أراها رائعة .
ابتسمت فى سخرية ، وهى تقول :
ـ من الطبيعى أن تراها أنت كذلك .
ضغطت فى قوة حروف لفظ (أنت) ، إلا أنه لم ينتبه إلى المعنى الذى تقصده ، وهو يضع يديه على كتفيها من الخلف ، قائلا فى هيام :
ـ أخيرًا أصبحنا وحدنا .
قالت دون أن تلتفت إليه :
ـ أخيرًا .
واتجهت فى هدوء نحو مقعد وثير ، وتركت جسدها يغوص فيه ، وهى تسأله :
ـ قل لى يا (حسين) : ألم تغادر (مصر) أبدًا ؟
جلس على المقعد المجاور لها ، وهو يقول :
ـ لست أشعر بالرغبة فى هذا .
قالت فى حماس :
ـ خطأ يا (حسين).. إنك لم تر (أوروبا).. قارة الجمال .. لو أنك رأيت (باريس) مرة واحدة فستعشقها إلى الأبد ، ولو أنك شاهدت (روما) وآثارها ومتاحفها ، فستسجد لها طيلة العمر ، ولو أنك ..
قاطعها فى ضجر :
ـ ولكننى أحب (مصر) .
مطت شفتيها فى ازدراء ، وقالت :
ـ تحبها ؟!.. حبها كما يحلو لك ، ولكن سافر لترى الدنيا .
ثم غاصت أكثر فى مقعدها ، والتمعت عيناها ببريق خاص ، وهى تضيف :

ـ أم أنك تعجز عن الحصول على تصريح سفر خاص ؟
أشار إلى صدره ، وهو يقول فى زهو :
ـ أنا ؟!.. إننى أسافر وقتما أشاء .
التمعت عيناها مرة أخرى ، ونهضت من المقعد ، وجلست على مسند مقعده ، ومالت برأسها نحوه ، وهى تقول هامسة :
ـ كم أتمنى لو نذهب إلى (باريس) معًا .. إلى عاصمة الفن والحب والجمال .. هناك تتألق المشاعر ، و.....
قاطعها فى لهفة :
ـ هنا أيضًا تتألق المشاعر .
أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، وقالت :
ـ لا.. (باريس) شىء آخر .
هم بتطويق خصرها بذراعه ، عندما ارتفع فجأة رنين جرس الباب ، فأجفلت هاتفة :
ـ هل تنتظر أحدًا ؟
هز رأسه نفيًا ، وقال :
ـ مطلقًا .. لاريب أنه زائر للساكن السابق ، لم يعلم بأمر ترحيله بعد .
قالت فى قلق :
ـ من الأفضل أن نحتاط .. سأختبئ فى حجرة النوم .
قال وهو يتجه نحو الباب :
ـ هذا أفضل بالفعل .. اذهبى .
أغلقت خلفها باب حجرة النوم ، فى حين اتجه هو إلى الباب ، وفتحه .. وتجمدت الدماء فى عروقه ..
لقد وجد أمامه آخر شخص يجب أن يراه ، فى هذه اللحظة بالذات ..
وجد أمامه (إبراهيم)..
الصاغ (إبراهيم مكى) ...

* * *

٢٣ ــ عينا ثعلب ..

كان (إبراهيم مكى) هو آخر شخص يتوقع أو يتمنى (حسين) رؤيته ، وخاصة فى مثل هذه الظروف ، حتى أنه بقى يحدق طويلًا فى عينى (إبراهيم)، الشبيهتين بعينى ثعلب ماكر ، قبل أن يقطع (إبراهيم) حبل الصمت ، قائلًا فى هدوء خبيث :

ــ ألن تدعونى للدخول ؟

تراجع (حسين) مفسحًا الطريق له ، وهو يغمغم مسلوب الإرادة :

ــ بالطبع .. تفضل .

خطا (إبراهيم) داخل المنزل فى بطء ، وراح يدير عينيه فى المكان ، قبل أن يقول بابتسامة غامضة ، لم يرتح لها قلب (حسين) أبدًا :

ــ شقة رائعة .. أنت حسن الحظ بحق .

سأله (حسين) بصوت مختنق :

ــ كيف علمت بأمر الشقة ؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وهو يقول :

ــ ياله من سؤال !.. إننى أنا اخترتها لك .

هتف (حسين) فى ذهول :

ــ أنت ؟

قال (إبراهيم) فى هدوء ، وهو يواصل تأمل الشقة :

ــ بالطبع .. لقد طلب منى (رفعت) بك أن أبحث عن شقة لك ، حتى تقيم هنا فى (القاهرة) ، من قبل حتى أن تطلب أنت منه ذلك ، ولما كان ذلك الأرمنى ، صاحب الشقة ، رجلًا متزمتًا سخيفًا ، يصر على تعليق صورة الملك

السابق فى صدر ردهة منزله ، على الرغم من قيام الثورة ، فقد قمنا بترحيله ، وبقيت الشقة لك .

وبدا مزيج من الخبث والسخرية فى صوته وابتسامته ، وهو يدير عينيه إلى (حسين)، مستطردًا :

ــ لقد كنت أتوقع منك شكرًا لهذا .

تمتم (حسين) مرتبكًا :

ــ إنك تستحقه بالتأكيد .

أدار (إبراهيم) عينيه فى الشقة مرة أخرى ، ثم قال فى هدوء :

ــ أتعلم أنها أول مرة أرى الشقة ، على الرغم من كل هذا ؟

واتجه بغتة نحو حجرة النوم ، التى تختبئ داخلها (عايدة)، وهو يستطرد :

ــ هذه حجرة النوم .. أليس كذلك ؟

تجمد (حسين) فى مكانه ، واتسعت عيناه فى ذعر ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، عندما امتدت يد (إبراهيم) إلى مقبض باب حجرة النوم ..

ماذا لو فتح الباب ، ووجد (عايدة) أمامه ؟..

ماذا يمكن أن يفعل ؟..

وماذا يكون موقفه هو ؟..

بل ما موقف (عايدة) ؟..

تلاشت مخاوفه وأفكاره دفعة واحدة ، عندما تراجعت يد (إبراهيم) بغتة عن مقبض الباب ، وهو يقول مبتسمًا :

ــ لا .. ليس من اللائق أن يشاهد المرء حجرة نوم آخر .

ووقف يتطلع إلى الشقة مرة أخرى ، قبل أن يدير عينيه إلى وجه (حسين) الشاحب ، ويقول :

ــ مبارك .

تمتم (حسين) فى صعوبة :

— شكرًا لك .

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) أكثر وأكثر ، وخيل لـ (حسين) أنها تحمل خبث الدنيا كلها ، فقال محاولًا إخفاء توتره :

— هل تتناول شيئًا ؟

لوح (إبراهيم) بكفه ، قائلًا :

— لا .. إننى مرتبط بموعد هام .. لقد أتيت لتهنئتك فحسب .

واتجه إلى الباب فى خطوات سريعة ، مستطردًا :

— سنلتقى فى المكتب .

تنفس (حسين) الصعداء ، وهو يقول :

— بإذن الله .

كان يشعر بارتياح شديد ؛ لأن (إبراهيم) سينصرف ، دون أن ينتبه إلى وجود (عايدة) ، إلا أن ارتياحه هذا لم يلبث أن تحول إلى ذعر هائل ، عندما توقف (إبراهيم) فجأة ، بعد أن فتح الباب ، وقال وهو يبتسم فى خبث ساخر :

— لا تنسى أن تبلغ تحياتى إلى الأميرة (عايدة) .

جف لعاب (حسين) ، وشحب وجهه وهو يتمتم :

— (عايدة) ؟!

قال (إبراهيم) بنفس اللهجة الساخرة الخبيثة :

— نعم .. إنك لن تبذل جهدًا فى البحث عنها لإبلاغها ، فهى هناك ، فى حجرة نومك .

ثم أطلق ضحكة عالية ساخرة ، وهو يغلق الباب خلفه ، تاركًا (حسين) وقد تجمدت الدماء فى عروقه ، وفى نفس اللحظة اندفعت (عايدة) ، خارج حجرة النوم ، وهى تقول فى غضب :

— يا للوغد !

هتف بها (حسين) فى شحوب :

— ولكن كيف عرف ؟

اتجهت نحو البار الصغير ، الذى يحتل ركنًا من الردهة الكبيرة ، والتقطت زجاجة خمر فى عصبية ، وصبت بعضًا من محتوياتها فى كأس ، وهى تقول :

— كان يراقبك بالتأكيد .

وجرعت الكأس دفعة واحدة ، فازدادت بشرتها احمرارًا ، وهى تستطرد :

— إنه وغد حقيقى .

ألقى (حسين) جسده على أقرب مقعد إليه ، وهو يتمتم منزعجًا :

— يا إلهى !.. إذن فقد علموا .. ماذا سأفعل ؟

صرخت به فى غضب :

— ماذا دهاك ؟.. إنه لم يضبطك مع عاهرة محترفة .. إننى أميرة .

تطلع فى صمت إلى جمالها الفتان ، وإلى الكأس فى يدها ، والسيجارة التى أشعلتها فى عصبية ، وذلك الثوب الرائع الذى ترتديه ، والذى يساوى ثمنه راتبه فى شهرين كاملين ، ثم أطلق من أعمق أعماق صدره تنهدة حارة ، قبل أن يشيح بوجهه ، متمتمًا :

— من يدرى ؟.. ربما كانت العاهرة أفضل ، فى هذه الأيام .

تقافز الغضب من كل خلية من خلاياها ، وهى ترمقه بنظرة قاسية ، قبل أن تقول فى ازدراء :

— يالك من وقح !

وملأت كأسها مرة أخرى فى عصبية ، ونفثت دخان سيجارتها فى حدة ، وهى تستطرد :

— ولكنها مرحلة .. مرحلة مؤقتة .

رفع عينيه إليها ، وهو يسألها :

— ماذا تعنين بأنها مرحلة مؤقتة ؟

جرعت الكأس دفعة واحدة كعادتها ، وقالت ووجهها يبدو أشد فتنة ، مع تلك السحابة الحمراء ، التى تسللت تحت بشرتها :

ـــ هل قرأت تاريخ الثورة الفرنسية ؟.. لقد ثار الرعاع أيضًا ، وبلغوا مقاعد الحكم ، وأعدموا الملك والملكة ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على بعضهم البعض ، والتهمت الثورة أبناءها ، وعادت الملكية .. بل الإمبراطورية .

سألها فى توتر :

ـــ وهل تتوقعين أن يحدث هذا هنا ؟

نفثت دخان سيجارتها فى قوة ، وقالت بالتماعة عين أثارت قلقه :

ـــ بالتأكيد .

خامره شعور قوى بالقلق ، وتساءل عن مصيره لو حدث هذا بالفعل ، إلا أنه لم يلبث أن طرد كل هذا من ذهنه ، وهو يقول فى عصبية :

ـــ ليست هذه هى المشكلة الآن ، المشكلة الحقيقية هى أن (إبراهيم مكى) هذا مجرد وغد ، يسعى للإيقاع بى ، وتدميرى ، وسيجد فى وجودك هنا فرصة مثالية لذلك ، وسيبلغ (رفعت) بك ، و.....

قاطعته فى حزم :

ـــ اطمئن .. إنه لن يفعل .

قال فى حدة :

ـــ ولماذا لايفعل ؟

ابتسمت ابتسامة خبيثة ، وهى تقول :

ـــ لأنه لايسعى لتدميرك كما تظن .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى فى عمق ، قبل أن تضيف :

ـــ بل للسيطرة عليك .

ردد مبهوتًا :

ـــ السيطرة ؟!

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، وكأنما راقت لها سذاجته ودهشته ، واتجهت نحوه ، وألقت كفيها الرقيقتين على كتفيه ، ومالت بوجهها نحوه ، وهى تقول :

ـــ دعك من هذا الآن .. إنك مجرد ضابط صغير ، لن تلبث أن تدرك تلك الألاعيب فيما بعد ، أما أنا ، فقد تربيت فى أحضان المكائد والدسائس ، وفى أروقة قصر ، يسعى كل من فيه للسيطرة على الآخر ، ولاتقلق ، سأمنحك كل خبرتى ، و......

مالت أكثر ، وصار صوتها همسًا ، وهى تضيف :

ـــ وحبى .

خفق قلبه فى وله ، وهتف وهو يحاول ضمها إليه :

ـــ متى ؟

أطلقت ضحكة عابثة أخرى ، وأفلتت من بين ذراعيه فى خفة ، والتقطت كأسها مرة أخرى ، ورفعتها عالية ، وهى تقول :

ـــ فى (باريس) .

وفى تلك اللحظة انتبه (حسين) إلى أن عينى (عايدة) تحملان شيئًا شبيهًا بعينى (إبراهيم) ..

انتبه إلى أن كليهما يحمل عينى ثعلب ..

✲ ✲ ✲

بكت (زينب) فى حرارة ، بين ذراعى شقيقها الأصغر (مفيد) ، وهى تقول بقلب كسير :

ـ لا يا (مفيد) .. لاتقل هذا .. لاتقل إن (حافظ) قد صار مجنونًا .

ربت (مفيد) على ظهرها فى حنان ، وهو يقول فى مرارة :

ـ هذا ماقرره الأطباء يا (زينب) ، ولاحيلة لى فى هذا ، ثم إنه ليس مجنونًا .. إنه مصاب فقط بانهيار نفسى حاد ، ونوع من انفصام الشخصية ، ويحتاج إلى دخول مصحة نفسية للعلاج ، و.....

دفعت جسدها عنه ، وهى تهتف :

ـ مستشفى مجاذيب ؟!.. لا.. مستحيل !

قال فى ضيق :

ـ لو أن هذا فى صالحه فمن الضرورى أن ..

قاطعته صارخة :

ـ لا.. لن يذهب أخى إلى مستشفى مجاذيب إلا على جثتى .

هتف (مفيد) فى صرامة :

ـ ولكن هذا أمر محتم ، وكل الأطباء يصرون على أنها الوسيلة الوحيدة لعلاجه .

قالت فى صرامة شديدة :

ـ قلت لا.

ثم أشاحت بوجهها مستطردة :

ـ لن يغادر أخى هذا المنزل .. سنعالجه هنا .

واستدارت إليه تهتف كنمرة شرسة :

ـ مهما كان الثمن .

زفر (مفيد) فى يأس ومرارة ، وقال :

ـ أرجوك يا (زينب) ، ليس هذا وقت العناد .

هتفت فى حدة :

ـ قلت لا.

ثم استطردت فى حزم :

ـ سأتصل بـ (حسين) فى (القاهرة) ، وأطلب منه أن يفعل شيئًا .

قال فى سخرية تحمل الكثير من المرارة :

ـ (حسين) ؟!.. لم يعد (حسين) بك متفرغًا لنا .. لقد صار واحدًا من رجال الحكم .. إنه حتى لم يمنحنا عنوان شقته الجديدة فى (القاهرة) .

قالت فى عناد :

ـ ولكنه يمتلك سلطات واسعة ، ويمكنه أن يفعل الكثير .

هز كتفيه قائلًا :

ـ ربما .

ودون أن يضيف كلمة أخرى ، استدار وانصرف إلى حجرته ، وكأنما أعياه اليأس من محاولة شفاء شقيقه ..

وفى أعماقه ، كان (مفيد) يعلم أن شفاء (حافظ) شبه مستحيل ..

ليس لأن مرض (حافظ) من نوع غير قابل للشفاء ، وإنما لأن (حافظ) نفسه شخص غير قابل للشفاء ، بكل مايملأ نفسه من ضعف وتخاذل واستكانة ..

إنه يختلف كثيرًا عنه ، وعن (حسين) ..

ولكن ما العجب فى هذا ؟..

إنه و (حسين) يختلفان تمام الاختلاف ، فلماذا لايختلف (حافظ) عنهما ؟..

سرح مع محاولة عقد المقارنات بينه وبين (حسين) و (حافظ) ، حتى سمع دقًا على باب حجرته ، أعقبه صوت شقيقته (ناهد) ، تقول :

ـ (عمر) يريدك يا (مفيد) .

اعتدل وهو يسألها :

ـ (عمر) من ؟
كررت ضاحكة :
ـ (عمر) من ؟!.. (عمر) زوج (نعيمة) بالطبع .. هل نسيته ؟
ابتسم وهو يفتح الباب ، متمتمًا :
ـ معذرة .. كنت شارد الذهن فحسب .
ربتت على كتفه ، قائلة فى إشفاق :
ـ كان الله فى عونك .
هبط إلى حجرة استقبال الضيوف فى الطابق السفلى للسراى ، ورأى (عمر) يجلس والغضب يملأ ملامحه ، فسأله مبتسمًا :
ـ ماذا أصابك ؟
أجابه (عمر) فى جفاء :
ـ أتيت فقط لأخلص ضميرى .
سأله (مفيد) ، والابتسامة لم تفارق شفتيه بعد :
ـ من ماذا ؟
أجابه (عمر) فى صرامة :
لقد شكوت شقيقكم (حسين) .. أعلم أنه يظن نفسه فوق المسئولية ، ولكننى لن أتنازل عن حق زوجتى فى ميراث أبيها ، ولقد رفعت الأمر للقضاء كما تعلم ، ولكننى لم أكتف بذلك ، لقد شكوت (حسين) للشخص الوحيد الذى يمكنه أن ينتزع لى حقى منه .
وانتفضت أوداجه ، وهو يستطرد فى زهو :
ـ للواء (محمد نجيب) نفسه .
وأدرك (مفيد) لحظتها أن المعركة ستحتدم .. ستحتدم كثيرًا ..

✲ ✲ ✲

٢٤ ـ اللعبة ..

استقبل (رفعت كساب) (حسين) بابتسامة مرحة واسعة ، وهو يقول :
ـ أهلا يا (حسين) .. يبدو أنك تثير حولك عادة الكثير من المشاكل .
هوى قلب (حسين) بين قدميه ، وهو يقول :
ـ مشاكل ؟!.. أية مشاكل ياسيدى ؟
لوح (رفعت) بكفه ، قائلا :
ـ لقد اتصل بى (محمد نجيب) بشأنك هذا الصباح .
ردد (حسين) ، وقد تضاعف ذعره :
ـ اللواء (محمد نجيب) بنفسه ؟!
ضحك (رفعت) ، وهو يقول :
ـ نعم .. هو نفسه .. تصور .. لقد أبلغنى أنه غاضب بشأن مسألة عائلية تخصك .
قال (حسين) فى دهشة :
ـ مسألة عائلية ؟!
أجابه (رفعت) ، وهو يواصل ضحكه :
ـ نعم .. لقد التقى به زوج شقيقتك (نعيمة) ، وشكا له أمر أرض والدك ، التى منحتك إياها بعقود بيع ، وطلب منه أن يتدخل لتطبيق الشرع .
غمغم (حسين) فى توتر :
ـ لم أتصور أن يبلغ هذا المدى !
لوح (رفعت) بكفه مرة أخرى ، وهو يقول :
ـ دعك منه

قال (حسين) فى تردد :

ــ ولكنه شكا الأمر لقائد الثورة نفسه .

أطلق (رفعت) ضحكة عالية ، وهو يقول :

ــ قائد الثورة ؟!.. لا .. اطمئن .. صحيح أن (نجيب) هو الأكبر سنًا ورتبة ، ولكنه ليس قائد الثورة .

واعتدل فجأة ، مستطردًا :

ــ ثم إننى وعدتك بإنهاء هذه المسألة تمامًا .

غمغم (حسين) :

ــ نعم ياسيدى .. لقد وعدتنى .

اعتدل (رفعت) فى مجلسه ، وابتسم وهو يقول :

ــ ألم تفكر بعد فى دعوتنا إلى تلك السراى ، فى قريتكم ؟

هتف (حسين) بذلك الكرم القطرى فى أعماقه :

ــ على الرحب والسعة دومًا ياسيدى .

غمز (رفعت) بعينه ، وهو يقول :

ــ كنت أقصد مجلس قيادة الثورة كله ، بكل ماسيتكلفه ذلك من طيور مذبوحة وفطائر ريفية ، و......

كرر (حسين) فى حسم :

ــ الجميع على الرحب والسعة ياسيدى .

أطلق (رفعت) ضحكة ارتياح ، وهو يقول :

ــ تمامًا كما يقولون عنك يا (حسين) .. كريم ومندفع .

تمتم (حسين) فى شىء من الحياء :

ــ إننى لأفعل أى شىء من أجلك ياسيدى .

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى (رفعت)، وغمز بعينه، قائلًا فى خبث:

ــ من أجلى وحدى ، أم من أجل الأميرة (عايدة) أيضًا ؟

شحب وجه (حسين) ، وارتبك فى شدة ، وهو يقول :

ــ سيدى .. اسمح لى أن أشرح الأمر ، ولاتصدق ماأخبرك به الصاغ (إبراهيم مكى) ، و.....

قاطعه (رفعت) بضحكة مجلجلة ، وهو يقول :

ــ لا يا (حسين) .. لم يخبرنى (إبراهيم مكى) بأى شىء ، ولم تكن هناك حاجة إلى أن يخبرنى ، فنادى الجزيرة كله يعلم بأمر علاقتك مع الأميرة (عايدة) ، كما يعلم بأمر علاقة (صلاح سالم) بالأميرة (فوزية) ..

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ــ وهذا الأمر لايدعو للقلق ، فأنت شاب وسيم ، وهى شابة فاتنة ..

وأطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يستطرد :

ــ ثم إن هذا هو تحالف قوى الشعب العاملة .. أليس كذلك ؟

انطلق يضحك فى مرح ، وكأنما راقت له دعابته ، فى حين تمتم (حسين) فى مزيج من الدهشة والحيرة ، وهو الذى لم يتوقع أبدًا أن يمر الأمر بهذه السهولة :

ــ بالطبع ياسيدى .. بالطبع .

ربت (رفعت) على كتفه فى قوة ، وقال :

ــ هيا .. أمرح وتمتع بشبابك كما يحلو لك ، ولكن حاول ألا تتورط كثيرًا .

سأله فى ارتباك :

ــ ماذا تعنى ياسيدى ؟

أجابه ضاحكًا :

ــ أعنى أنها تزورك كثيرًا فى شقتك .. أليس كذلك ؟

هتف (حسين) :

ــ بلى ، ولكن أقسم لك إن علاقتنا لاتتجاوز ...

قاطعه ملوحًا بكفه :

ــ هذا أمر يخصك وحدك يا (حسين) .

ثم عاد يجلس خلف مكتبه ، ويسأله فى بساطة :

ــ والآن .. متى تدعونا لتناول فطائركم الريفية ؟

* * *

« غدًا ؟!.. »

هتف العمدة بالكلمة فى ذعر ، قبل أن يستطرد متوترًا :

ــ هل تتحدث جادًا يا جناب المأمور ؟.. هل يأتى مجلس قيادة الثورة كله إلى هنا غدًا ؟

ضرب المأمور خده بأطراف أصابعه ، وهو يقول فى غيظ :

ــ وهل يصح الهذر فى مثل هذه الأمور يا عمدة ؟..

أقول لك إن إشارة عاجلة قد وردت من الرئاسة فى (القاهرة) ، تقول : إن مجلس قيادة الثورة مدعو لتناول طعام الغداء هنا ، فى سراى (البنهاوى) ، وتطلب تأمين أقصى حماية ممكنة ، على الرغم من وجود ثلة من الحرس معهم .

وضرب خديه بكفيه ، مستطردًا فى مرارة :

ــ أرأيت أى شأو بلغ ابن (البنهاوى) يا عمدة ؟

عقد العمدة حاجبيه ، ومط شفتيه فى غضب ، وهو يقول :

ــ يا له من زمن !

هتف المأمور :

ــ ونحن الذين كنا نأمل فى تحطيم أسرة (البنهاوى) كلها .

قال العمدة فى صرامة :

ــ من قال إن هذا لن يحدث ؟

رماه المأمور بنظرة قاسية غاضبة ، وهو يقول :

ــ كفاك يا عمدة .. كفاك الحديث بلا عمل .. إننى لن أصدقك بعد الآن ، ولن أعتمد عليك .. لقد أوهمتنى من قبل أن حركة الجيش هذه مجرد حركة مؤقتة ، يعود بعدها الجيش إلى ثكناته ، ثم هاهم أولاء يحكمون البلاد كلها ، و.....

قاطعه العمدة فى خبث :

ــ وهل أنا قارئ للغيب يا جناب المأمور ؟

هتف المأمور :

ــ بل أنت مخطط فاشل .

ضرب العمدة صدره براحته ، وهو يقول :

ــ أنا يا جناب المأمور ؟!.. على العكس .. إن خططى كلها تسير على خير مايرام ، ولكن القدر يتدخل لإفسادها .

وعاد يبتسم بنفس الخبث ، مستطردًا :

ــ ولكن دوام الحال من المحال .. لن يبقى الأمر على ماهو عليه إلى الأبد .. لن يلبث حظ آل (البنهاوى) أن يتبدل ، وعندئذ سنضرب ضربتنا .

هتف المأمور فى لهفة :

ــ حقًا يا عمدة .

اتسعت ابتسامة العمدة ، حتى كادت تلتهم وجهه كله ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد يا جناب المأمور .. إن اللعبة لم تنته بعد ، وعندما تنتهى لن نكون نحن الخاسرين .. بل هم .. وسنمحو اسم (البنهاوى) من خريطة الزمن .. وإلى الأبد ..

* * *

لم تكد (مديحة) تلمح (مفيد) ، وهو يقترب من الشجرة الكبيرة ، حتى خفق قلبها فى قوة ، وارتفع حاجباها فى حنان ، وهى تهتف :

ــ (مفيد) .

قطع الأمتار الباقية فى ثلاث خطوات ، واختطف كفها فى راحتيه ، واحتضنها بكل لهفة ، وهو يملأ عينيه بجمال عينيها ، هامسًا :

ــ (مديحة) .. لقد أوحشتنى كثيرًا .

تمتمت وهى تشيح بوجهها حياء :

ـــ أنت الأكثر .

جلسا فى صمت عند جذع الشجرة الكبيرة ، وراحاه ماتزالان تحتضنان كفها ، ولفهما الصمت طويلا برداء وردى مخملى هادئ ، وعيونهما تطلق حوارًا عاشقًا بريئًا ، قبل أن يغمغم هو :

ـــ صرت أكثر جمالًا يا (مديحة) .

تمتمت فى حياء :

ـــ وأنت صرت أكثر رجولة بشاربك هذا .

ابتسم قائلًا :

ـــ هل يعلم عم (إسماعيل) أنك هنا ؟

قالت هامسة :

ـــ لا.. خشيت أن أخبره فيرفض .

تنهد فى عمق ، وقال :

ـــ إنه محق فى غضبه .

ثم التفت إليها ، مستطردًا :

ـــ اسمعى يا (مديحة).. لقد نلت شهادة البكالوريا كما تعلمين ، وقررت الالتحاق بكلية التجارة فى (القاهرة) ، فما رأيك لو نتزوج ، وتذهبين معى إلى هناك ؟

رقص قلبها الصغير فرحًا ، وأشاحت بوجهها فى حياء ، وهى تهمس :

ـــ هل تسألنى يا (مفيد) ؟

تهللت أساريره ، وهو يقول فى حماس :

ـــ سأخبر (حسين) غدًا .

ترددت لحظات ، ثم قالت :

ـــ ولكن والدى يقول إنه من الأفضل أن نؤجل الأمر قليلًا .

سألها فى دهشة :

— لماذا ؟
أجابته بكلمة مقتضبة :
— التقاليد .
سألها فى حيرة :
— أية تقاليد ؟
قالت فى ضيق :
— تقاليد القرية ، التى تحتم أن يمر عام على الأقل ، على وفاة والدك الحاج (محمد) — رحمه الله — قبل أن تتقدم لخطبتى .
قال فى حدة :
— وماذا يضير والدى ، لو أننى خطبتك الآن ؟ لقد انقطعت علاقته بالدنيا منذ وفاته .
غمغمت :
— والدى شديد التمسك بالتقاليد .
ثم ربتت على كفه فى حنان ، مستطردة :
— ثم إنه لن يضيرنا أن ننتظر حتى يمضى العام .
شرد ببصره طويلًا ، يتطلع إلى النجوم ، قبل أن يتمتم :
— لا بأس .. لكل شىء أوانه .
ران عليهما الصمت لحظات أخرى ، ثم سألته فى اهتمام :
— قل لى يا (مفيد) .. أصحيح أن مجلس قيادة الثورة كله سيتناول طعام الغداء لديكم غدًا ؟
أجابها وهو لم يفارق شروده بعد :
— نعم .. هذا صحيح .
ثم التفت إليها ، مستطردًا فى ضيق :
— أتعلمين كم كلفنا هذا من جهد ومشقة ، إلى جانب المال ؟
تمتمت :

— ما زلتم قادرين يا (مفيد) .
قال بنفس الضيق :
— ماديا نعم ، ولكن (حسين) فاجأنا بالخبر ، ولم يحدد حتى عدد المدعوين ، لذا فقد قامت شقيقاتى بذبح كميات هائلة من مختلف أنواع الطيور ، وهن ينهمكن فى تنظيفها وطهوها ، إلى جانب مقادير ضخمة من الأرز والخضراوات ، والفطائر التى طلبها (حسين) ولست أظنهم ينتهون منها قبل صباح الغد .
تمتمت على استحياء :
— يمكننى أن أذهب لمعاونتهم .
ابتسم وربت على كفها ، قائلًا :
— لا عليك .. (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد) تعاونهم .
قالت مشفقة :
— فتاة طيبة (فاطمة) هذه ، ولكنها تفتقر إلى الجمال ، ثم إن صوتها الأجش يذكرنى بالرجال .
ضحك ضحكة قصيرة للغاية ، وهو يقول :
— المهم أن تجيد التنظيف والطهو .
ثم زفر فى قوة ، وأضاف :
— ولكن (شريفة) و (ناهد) لن يعجبهما طهو أية مخلوقة ، مهما بلغت براعتها ، فهما شديدتا التزمت فى هذه الأمور .
وابتسم فى شرود مستطردًا :
— على الرغم من أن (شريفة) هى أشد المتحمسات لتلك الدعوة ، ربما لأنها ستضم أشهر رجال فى البلاد الآن .
قالها دون أن يدرى أن تلك الدعوة ستكون سببًا فى تغيير حياة (شريفة).. (شريفة) بالذات ..

✲ ✲ ✲

٢٥ ــ الوليمــة ..

كان يومًا مبهرًا ، تحدثت عنه القرية لسنوات تالية ، وارتفعت فيه هامة أسرة (البنهاوى) عاليا ، بعد أن توافد رجال مجلس قيادة الثـورة ، فى زيهم العسكرى ، داخل عربات حربية ، وامتلأت بهم ردهة السراى ، وراح (عبد الحميد) و (إسماعيل) يخدمان الحاضرين فى حماس وسعادة ، وهما يشعران بالفخر والزهو ؛ لأنهما يقومان على خدمة أبطال الساعة ، فى حين التف أهل القرية حول السراى ، يطلقون صيحات الفرح ، ويخدمون الحراس التابعين لرجال الثورة بكل الإخلاص والسعادة .

كان عيدًا للقرية الصغيرة ، ولأسرة (البنهاوى) بالذات .. وعلى الرغم من خلافه مع (حسين) ، استقبل (مفيد) رجال الثورة بكل الترحاب والحرارة والاعتزاز ، وقدم لهم (عبد الحكيم) زوج (توحيدة) ، و (ماهر) خطيب (زينب) فى فخر ، فى حين لم يحضر (عمر) الوليمة ، بعد أن علم أن (محمد نجيب) بالذات لم يقبل الدعوة ؛ بسبب خلاف مبهم بينه وبين بعض رجال مجلس قيادة الثورة ، الذين بدوا غاية فى المرح والبساطة فى ذلك اليوم ، فيما عدا (جمال عبد الناصر) ، الذى اكتفى كعادته بابتسامة رصينة هادئة ، وبعبارة واحدة ، سأل بها (حسين) :

ــ يبدو أنك أرستقراطى المنشأ . أليس كذلك ؟

أجابه (حسين) فى زهو :

ــ بل كان والدى مكافحًا بحق .. لقد نشأ من الصفر ، وصنع كل هذا بكده وعرقه .

رفع (جمال) حاجبيه ، وهو يقول فى إعجاب :

ــ حقًا .. إنه لرجل عظيم إذن .. أقصد كان كذلك (رحمه الله) .

وبعدها لم يشارك (جمال) فى الحديث ، ولا فى الدعابات التى تبادلها الرجال ، مع بعضهم البعض ، وهم يتناولون طعام الغداء ، أو يشربون أقداح الشاى والشراب المثلج ، ولقد أبدى الجميع إعجابهم بالسراى ، وبعائلة (البنهاوى) ، وجذب (مفيد) انتباههم برشاقة أسلوبه ، وبساطته المحببة ، ورصانته التى تفوق سنوات عمره بكثير ، وعند انصرافهم ، مال (رفعت) على أذن (حسين) وهو يصافحه ، وقال :

ــ أهنئك .. كانت زيارة ناجحة للغاية ، توقع ترقية قريبًا .

غمغم (حسين) ، وهو يكاد يطير من فرط السعادة :

ــ كان شرفًا عظيمًا لنا وللقرية كلها ياسيدى ، وكم كنت أتمنى لو اكتمل فرحنا بوجود سيادة اللواء (محمد نجيب) ، و .....

قاطعه (رفعت) فى استهتار :

ــ دعك منه .

تراجع (حسين) ، متمتمًا فى دهشة :

ــ ماذا ؟!

أطلق (رفعت) ضحكة قصيرة ، وقال :

ــ يبدو أن التسلسل القيادى ما زال يملأ كيانك ، ولكن لا بأس .. قل لى : مَنْ مِن زوجى شقيقتيك صاحب الشكوى ؟

هز (حسين) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ ليس أيهما .. إنه لم يحضر الوليمة .

ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

ــ عظيم .. هذا يجعل الأمور أكثر سهولة .

انصرف رجال مجلس قيادة الثورة ، فى موكب رائع ، صنعه أهل القرية ، وعلى رأسهم العمدة والمأمور ، وبدا (حسين) غاية فى السعادة ، وهو يعود إلى السراى ، هاتفًا :

— ما رأيكم ؟

أجابه (مفيد) بابتسامة كبيرة :

— كانت دعوة رائعة .

بدت له عبارة (مفيد) عظيمة بحق ، وهو الذى اعتاد أن يختلفا فى كل صغيرة وكبيرة ، فالتفت إليه بكيانه كله ، يسأله :

— حقًا يا (مفيد) ؟

أجابه (مفيد) بصدقه المعتاد :

— بالتأكيد .. إنهم مجموعة رائعة .

وصلت (زينب) إلى الحجرة ، قائلة :

— حماهم الله لشبابهم .

ووضعت صينية تحمل أكواب الشاى الساخنة أمام (حسين) و (مفيد) ، ثم أشارت إلى (عبد الحكيم) و (ماهر) فى حياء ، مغمغمة :

— الشاى .

نهض (عبد الحكيم) ، قائلًا :

— لن يمكننى تناول قطرة واحدة منه للأسف ، فمعدتى متخمة بالطعام عن آخرها .. سأعود إلى المنزل .

شعر (ماهر) بالضيق لموقف (عبد الحكيم) ؛ فقد كان هذا يضطره أدبيًا للانصراف ، فنهض بدوره متمتمًا :

— سأنصرف أنا أيضًا .

قالت (زينب) فى صوت يحمل خيبة أمل واضحة :

— أنت أيضًا ؟!

ثم لم يلبث وجهها أن تخضب بحمرة الخجل ، عندما لاحظت أنها قد نطقت عبارتها بصوت واضح مسموع ، فأسرعت تغادر المكان فى خطوات متعثرة ، زادت من ارتباك (ماهر) ، فأضاف وهو يتجه نحو الباب :

— طاب مساؤكم .

لم يعترضه (حسين) أو (مفيد) ، على عكس المألوف فى الأرياف ، وكأنما يرغبان فى البقاء وحدهما ، وبالفعل لم يكد يذهب ، حتى سأل (حسين) شقيقه الأصغر (مفيد) فى لهفة :

— ما انطباعك عن رجال الثورة ؟

لم يجب (مفيد) على الفور ، وإنما حدق فى سقف الحجرة ، وكأنما يسترجع فى ذهنه كل أحداث الزيارة ، قبل أن يقول فى بطء :

— لو ظلوا على بساطتهم ، فالمستقبل الذى ينتظر البلاد مشرق للغاية ، ولكن ..

سأله (حسين) فى اهتمام :

— ولكن ماذا ؟.. هيا .. أخبرنى بكل ما لديك .

اعتدل (مفيد) ، وواجه شقيقه ، قائلًا :

— لو أنك أردت رأيى بكل صراحة ، فهؤلاء الشبان أبسط من أن يتولوا وحدهم حكم دولة كـ (مصر) ، فلم يعمل منهم بالسياسة من قبل سوى (أنور السادات) ، وهأنتذا تراه صامتًا ، يكتفى بالابتسام ، والضحك مجاملة لهم ، مما يعنى أن مركزه وسطهم ليس قويًا ، على عكس (صلاح) و (جمال سالم) ، فشخصيتهما قوية مسيطرة ، لا يعيبها سوى العصبية المفرطة ، وشىء من الغرور والخيلاء ، و (عبد الحكيم عامر) بسيط للغاية ، وطيب القلب ، وأمثاله يندفعون فى إصدار قراراتهم ، و .....

قاطعه (حسين) فى ضيق :

— أنت تراهم جميعًا لا يصلحون إذن ؟

قال (مفيد) فى سرعة :

— على العكس .. إن بينهم من ولد قائدًا بطبعه ، ويمتلك شخصية قوية مسيطرة ، ستجعله يومًا على رأس الجميع .

سأله فى اهتمام زائد :

ـ من تقصد ؟.. (صلاح سالم) ؟

هز (مفيد) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بل (جمال) .. (جمال عبد الناصر) .

امتزجت العبارة فى رأس (حسين) ، بعبارة سابقة سمعها من (رفعت) عن (جمال عبد الناصر) ، فتمتم فى رهبة :

ـ يبدو أن لهذا الرجل سحرًا عجيبًا .

ثم مال نحو شقيق ، مستطردًا فى انفعال :

ـ هل رأيت عينيه ؟.. إنهما يشبهان عينى أسد .. أليس كذلك ؟

تمتم (مفيد) :

ـ بالتأكيد .

واسترخى فى مقعده ، مستطردًا فى حسم :

ـ وستجده يومًا على رأس الجميع ، كما أتوقع .. هل تراهن على ذلك ؟

* * *

بدت (شريفة) شديدة الفرح ، وهى تقول لأختها (زينب) فى حجرتها :

ـ هل رأيت يا (زينب) ؟.. كل أكابر البلد أتوا إلى هنا .. هل رأيت أى شأن بلغه شقيقنا (حسين) ؟

ابتسمت (زينب) ، وهى تقول :

ـ كان هذا رائعًا بحق .

وتلاشت ابتسامتها فى بطء ، وهى تتابع :

ـ ولكن هناك أمرًا آلمنى للغاية اليوم .

سألتها (ناهد) فى دهشة ، وهى تصفف شعرها أمام المرآة :

ـ أى أمر هذا ؟

أجابتها (زينب) فى حزن :

ـ (حافظ) .. لقد أصر (حسين) على عزله فى حجرته ، وعلى ألا يراه رجال مجلس قيادة الثورة .

قالت (ناهد) فى حزم :

ـ أمر طبيعى يا (زينب) ، أتريدين منه أن يخبرهم ـ بكل بساطة ـ أن شقيقه مصاب بانهيار نفسى ؟

تمتمت :

ـ كلا بالطبع .. ولكن ..

سألتها فى حزم أشد :

ـ ولكن ماذا ؟

تنهدت (زينب) ، وأسبلت جفنيها ، متمتمة فى استسلام :

ـ لا شىء .. فليفعل الله (سبحانه وتعالى) مافيه الخير .

ران الصمت على الحجرة لحظات ، ثم أضافت (زينب) :

ـ ولكننى أشعر بالقلق على مصير (حافظ) .

أجابتها (شريفة) :

ـ إننا نبذل أقصى طاقتنا لرعايته .

قالت فى حزن :

ـ وماذا بعد أن نتزوج .. من سيرعاه ؟

أجابت (ناهد) فى سرعة :

ـ فاطمة .

سألتها (زينب) فى دهشة :

ــ من (فاطمة) ؟

أجابتها فى بساطة :

ــ (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد) .. كانت توليه برعايتها طوال النهار ، على الرغم من انشغالها فى تنظيف المنزل والطهو معا .. إنها ــ والحق يقال ــ بارعة كل البراعة فى هذا المضمار ، و (حافظ) يشعر معها بالارتياح .

قالت (زينب) فى ضيق :

ــ لن تلبث (فاطمة) أن تتزوج ، وتحيا مع زوجها .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكل منهما تبحث فى ذهنها عن حل للمشكلة ، ثم قالت (شريفة) فجأة فى حماس :

ــ لدى فكرة مجنونة ، ولكنها قد تصلح للأمر تمامًا .

سألتها (زينب) فى اهتمام :

ــ ماهى ؟

اعتدلت (شريفة) على فراشها ، وقالت بنفس الحماس :

ــ ما رأيكما لو تزوج (حافظ) (فاطمة) ؟

التفتت إليها (ناهد) بكل الاستنكار والازدراء ، وهتفت (زينب) :

ــ يتزوجها ؟!.. هل جننت ؟

ضحكت (شريفة)، وهى تقول :

ــ ألم أقل لكما إنها فكرة مجنونة ؟.. ولكن دعونا ندرس ذلك الجنون بكل ما لدينا من عقل .. لقد أصيب (حافظ) بمرض ذهنى نفسانى خطير ، وكلنا نعلم أن طبيعته لن تسمح له بالشفاء أبدًا ، ولن ترضى فتاة واحدة بالزواج منه ، وهو على هذه الحالة ، أما (فاطمة)، فهى فتاة فقيرة ، تفتقر إلى الجمال ــ إلى حد ما ــ وستجد أنه من حسن طالعها أن تتزوج ابن (البنهاوى) دفعة واحدة ، ثم إن (حافظ) يشعر نحوها بالارتياح والتفاهم .

بدت لهما فكرتها منطقية ومعقولة للغاية ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد قالت (ناهد) فى استهجان :

ــ لا.. مستحيل .

وغمغمت (زينب) فى حذر :

ــ الواقع أننى أراها فكرة معقولة .

هتفت بها (ناهد) :

ــ بل هى فكرة مجنونة ..

ثم أضافت وهى تشبك شعرها بمشبك فضى رقيق :

ــ ثم إن (حسين) سيرفضها تمامًا .

قالت (شريفة) فى حماس :

ــ هل تراهنين ؟

ران عليهما الصمت مرة أخرى ، وكل منهن تدير الاقتراح فى رأسها ، قبل أن تهز (ناهد) رأسها مرة أخرى فى عناد ، قائلة :

ــ لا.. إنها فكرة سخيفة .

هزت (شريفة) كتفيها ، قبل أن تندس تحت غطاء فراشها ، قائلة :

ــ من يدرى ؟!

وفى كتاب القدر ، انحفرت العبارة نفسها ..

نعم .. من يدرى ؟!..

* * *

٢٦ ـ العرض ..

« (حسين) .. أغثنى يا أخى !! أغثنى !!.. »

فقفز (مفيد) من فراشه ، ووجد نفسه ينطلق إلى ردهة السراى كالصاروخ ، بعد أن ميز فى تلك الصرخة الملتاعة صوت شقيقته (نعيمة) ، التى راحت تصرخ وتبكى وتولول ، وتلطم خديها ، وقد أحاطت بها شقيقاتها ، اللاتى انتزعتهن صرخاتها من فراشهن ، بعد الفجر بنصف الساعة فحسب ، ورحن يحاولن تهدئتها ، ومعرفة سر صراخها فى جزع ، فهتف بها (مفيد) :

ـ ماذا حدث يا (نعيمة)؟.. ماذا أصابك ؟

هتفت (نعيمة) فى انهيار :

ـ أين (حسين)؟.. أين أخى ؟

بلغ (حسين) الردهة فى تلك اللحظة ، وسألها متوترًا :

ـ ماذا حدث ؟.. لم تصرخن هكذا ؟

تشبثت به ، هاتفة :

ـ زوجى يا (حسين) .. زوجى (عمر) ، انتزعوه من فراشه فى الفجر .

اتسعت عيون الجميع فى ذعر وذهول ، وهتف (حسين) :

ـ انتزعوه من فراشه ؟!.. من هم ؟

لطمت خديها ، هاتفة بفيض من الدموع :

ـ رجال السلطة يا أخى .. رجال السلطة .

صاح بها (حسين) :

ـ أية سلطة ؟.. إن أعلى رجال السلطة فى (مصر) تناولوا غداءهم هنا أمس فحسب .

انهمرت الدموع من عينيها أنهارًا ، وهى تهتف :

ـ لست أدرى .. لست أدرى .. لقد اقتحموا المنزل قبيل الفجر ، وعلى رأسهم شاب طويل صارم ، وانتزعوا (عمر) من فراشه ، وحملوه معهم .

أمسك كتفيها ، وهو يسألها فى حدة :

ـ من هذا الشاب ؟.. ما اسمه ؟

قالت فى انهيار :

ـ اسمه (إبراهيم) .. الصاغ (إبراهيم مكى) .

اتسعت عينا (حسين) فى ذهول ، وهو يردد :

ـ (إبراهيم مكى) ؟!..

ثم انعقد حاجباه فى حزم ، وهو يضيف :

ـ الكلب الحقير .

وهتف فى صرامة :

ـ اطلب من عم (عبد الحميد) إعداد السيارة يا (مفيد) .. سأسافر إلى (القاهرة) على الفور .

تعلقت (نعيمة) بذراعه ، هاتفة :

ـ خذنى معك .. أريد زوجى .. أريد (عمر) .

دفعها عنه فى حزم ، وهو يقول :

ـ اطمئنى يا (نعيمة) ، سيعود إليك (عمر) ، قبل غروب الشمس .

وضغط أسنانه فى غضب ، مستطردًا :

ـ وسيدفع الوغد الثمن .

* * *

ارتسمت ابتسامة خبيثة ، تجمع مابين السخرية والشماتة ، على شفتى (إبراهيم مكى) ، عندما اقتحم (حسين) مكتبه فى عنف ، ووقف أمامه يصيح فى غضب :

ــ أين (عمر) ؟
سأله (إبراهيم) ببروده المعتاد :
ــ من عمر ؟
صاح (حسين) فى غضب :
ــ (عمر) زوج شقيقتى ، الذى ألقيت القبض عليه فى الفجر ، كمحاولة لإيذائى .
مال (إبراهيم) إلى الأمام ، وحدق فى عينى (حسين) بكل ما يملأ نفسه من سخرية وبرود ، وهو يقول فى لهجة لاتخلو من الصرامة :
ــ يبدو أنك تنسى أحيانًا أيها الملازم ، أننى رئيسك فى العمل ، وأن رتبتى تفوق رتبتك ، مما يجبرك على التحدث إلى بنوع من الاحترام ، برغم أنفك .
صدمت العبارات (حسين) ، وجعلته يحدق فى توتر ملحوظ ، وهو يغمغم :
ــ لقد كنت غاضبًا ، و.....
قاطعه (إبراهيم) ، وهو يواصل بنفس الصرامة :
ــ ثم إننى لا ألقى القبض على مخلوق واحد ، دون أوامر من رئيسنا المباشر .
قال (حسين) فى دهشة :
ــ ماذا تعنى ؟
تراجع (إبراهيم) فى مقعده ، وشبك أصابعه أمام وجهه ، مجيبًا بتلك اللهجة ، التى تجمع مابين السخرية والشماتة :
ــ لقد ألقيت القبض على زوج شقيقتك بأمر من (رفعت كساب) نفسه .
بدا (حسين) كالمصدوم ، وهو يحدق فى وجه (إبراهيم) ، قبل أن يغمغم فى صوت شاحب كوجهه :
ــ وهل كان يعلم أنه زوج شقيقتى ؟
ابتسم (إبراهيم) ساخرًا ، وهو يجيب :

ــ بالتأكيد .
ترك (حسين) جسده يتخاذل فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم :
ــ ولكن لماذا ؟
هز (إبراهيم) كتفيه ، وهو يقول فى شماتة واضحة :
ــ ربما وجدوا أنه من أعداء الثورة .
هتف (حسين) مستنكرًا :
ــ (عمر) ؟!
مال (إبراهيم) نحوه ، وقال فى هدوء :
ــ لم لا تسأل (رفعت) بك نفسه ؟
بهت (حسين) ، فتمتم فى رهبة :
ــ أسأله ؟!
قال (إبراهيم) فى هدوء :
ــ نعم .. اسأله مباشرة ، وثق من أنه سيخبرك بالسبب على الفور .
تردد (حسين) لحظات ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :
ــ نعم .. ولم لا ؟
ونهض من مقعده ، وغادر حجرة (إبراهيم مكى) ، متجهًا بكل حزم نحو حجرة (رفعت) ، إلا أنه لم يكد يبلغ حجرة ذلك الأخير ، حتى تلاشى حماسه كله ، وحل محله قلق شديد ، وتردد لحظات ، ثم طرق الباب فى خفوت ، وانتفض جسده كله ، عندما سمع صوت (رفعت) يدعوه للدخول ، فالتقط نفسًا عميقًا من الهواء ، ودفع باب حجرة (رفعت كساب) ، ودلف إلى الداخل ..
وارتسمت الابتسامة التقليدية على وجه (رفعت) ، وهو يقول :
ــ أهلًا (حسين) .. من المؤكد أنك ابن حلال ، فلقد كنت بصدد البحث عنك .

تمتم (حسين) فى توتر :

ــ عنى أنا ؟!

أشار (رفعت) إلى المقعد المقابل لمكتبه ، وهو يقول :

ــ اجلس يا رجل .. اجلس ، فلدى حديث طويل معك .

جلس (حسين) متوترًا ، وهو يضرب أخماسًا فى أسداس ، محاولًا استنتاج طبيعة هذا الحديث ، و (رفعت) يقول :

ــ كانت وليمة رائعة فى سراى أسرتك أمس .. أتعلم أن مجلس القيادة كله قد اتخذك محورًا للحديث ، حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس ؟

ازدرد (حسين) لعابه فى صعوبة ، دون أن يعلق بحرف واحد ، فى حين استطرد (رفعت) ، وكأنما لم يكن ينتظر تعليقًا :

ــ (عبد الحكيم عامر) و (أنور السادات) أبديا ثناء كبيرًا عليك ، و (صلاح) و (جمال سالم) قالا إنك وأسرتك رمز لما ينبغى أن يكون عليه كل مواطن مصرى مكافح ، أما (جمال عبد الناصر) ، فقد سألنى عن سر تحمسى لك بالذات ، على الرغم من أنك لم تكن أحد رجالنا قبل الثورة ، فأجبته بأن شجاعتك قد راقت لى ، بتأييدك الفورى والمباشر لنا ، قبل حتى أن تتضح الأمور ، وقلت له إن من يفعل هذا بلا تردد ، هو شخص أهل للثقة ، وأنا أحب الشجعان .

تمتم (حسين) :

ــ شكرًا لك ياسيدى .

مال (رفعت) نحوه ، وسأله بغتة :

ــ قل لى : هل تعرف اليوزباشى (فؤاد) ؟

تمتم (حسين) ، وهو يتساءل فى أعماقه عن مغزى السؤال :

ــ نعم ياسيدى .. إنه شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة حسبما أظن .

اتسعت ابتسامة (رفعت) ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلًا :

ــ بالضبط ، ولقد أعجب بك وبأسرتك كثيرًا ، حتى أنه يرغب فى أن يصبح أحد أفراد الأسرة .

سأله (نعيمة) فى حيرة :

ــ ماذا تعنى ياسيدى ؟

قال (رفعت) بنفس الابتسامة :

ــ يريد أن يتزوج شقيقتك .

قال (حسين) فى دهشة ، يخالطها شىء من الفرح :

ــ شقيقتى أنا ؟

قال (رفعت) مبتسمًا :

ــ نعم .. أنا أعلم أنه مازالت لديك شقيقتان لم تتزوجا بعد ، وهو يرغب فى الزواج من إحداهما ، على الرغم من أنه لم يرهما أبدًا .. باختصار إنه يريد أن يصاهرك فحسب .

هتف (حسين) فى حماس :

ــ لى كل الشرف ياسيدى .

ثم لم يلبث أن تذكر أمر (عمر) بغتة ، فخفض صوته ، مستطردًا :

ــ ولكن لدى تساؤل هام بخصوص .. بخصوص ..

سأله (رفعت) فى اهتمام :

ــ بخصوص (فؤاد) ؟

هز (حسين) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لا ياسيدى ، وإنما بخصوص (عمر) ، زوج شقيقتى .

ابتسم (رفعت) ، ولوح بكفه ، قائلًا :

ــ آه .. لا بأس .. هل تريد رؤيته ؟

ثم ضغط زرًا فوق مكتبه ، قبل أن يسمع جواب (حسين) ، ولم يكد يفعل حتى أطل جندى داخل المكتب ، فقال (رفعت) بلهجة آمرة :

— احضر لى (عمر)، من القبو السفلى .
ثم عاد يقول لـ (حسين) بابتسامة عادية :
— لقد ألقينا القبض عليه كهدية لك .
غمغم (حسين) فى دهشة :
— هدية !!
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا ، وقال مبتسمًا :
— نعم .. لقد عرضت الأمر على مجلس قيادة الثورة ، فوافقنى الجميع ، فيما عدا (جمال) الذى اعترض على تدخلنا فى أمور شخصية ، ولكنه لم يكد يعلم بأمر الشكوى ، التى قدمها زوج شقيقتك إلى (محمد نجيب) ، حتى وافق على الفور ، وبدأت أنا التنفيذ دون إضاعة لحظة واحدة .
ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يغمز بعينه ، مستطردًا :
— فلقد كانت الوليمة رائعة بحق .
تطلع إليه (حسين) فى مزيج من الدهشة والحيرة ، وهو يتساءل عن صلة الوليمة بزوج شقيقته (عمر)، واستنكر فى أعماقه أن يكون السبب هو عدم حضور (عمر) للوليمة ، وراح يبحث عن رابطة أخرى أكثر قوة ، حتى سمع الجندى يقول :
— المتهم هنا ياسيدى .
قال (رفعت) فى حزم :
— أدخله .
تعلقت عينا (حسين) بباب الحجرة ، ثم لم يلبث أن تراجع فى ذعر .
لقد رأى أمامه شيئًا بشعًا ..
بشعًا للغاية ..

* * *

٢٧ ــ القــوة ..

انشغلت (زينب) تمامًا بعملها فى مطبخ السراى ، حتى أن جسدها قد انتفض فى قوة ، عندما وضعت (شريفة) يدها على كتفها ، فانفجرت (شريفة) ضاحكة : وهى تقول :
— إلى هذا الحد ؟
استدارت إليها (زينب)، تهتف فى غضب :
— يالسخافتك !.. لقد أفزعتنى .
واصلت (شريفة) ضحكها ، وهى تقول :
— بل انتزعتك من أحلام الحب الجميلة .
ثم مالت على أذنها ، مستطردة فى همس :
— ولكننى أحضرت لك الأصل .
ارتفعت دماء الخجل إلى وجه (زينب) فى سرعة ، وهى تقول :
— الأصل ؟!
ابتسمت (شريفة) ، وهى تهمس فى خبث أنثوى ظريف :
— بالطبع .. (ماهر) ينتظرك فى الحديقة الخلفية .
ارتبكت (زينب)، وراحت تمسح كفيها بثوبها فى توتر ، وتضاعفت حمرة الخجل فى وجهها ، وهى تقول متلعثمة :
— (ماهر) هنا ؟!.. ياإلهى !.. وماذا لو رآه أحد ؟
ربتت (شريفة) على كتفها ، قائلة :
— اطمئنى (حسين) سافر إلى (القاهرة) فى الصباح ، ولحقت به (نعيمة) بصحبة (مفيد)، للاطمئنان على (عمر) ، و (حافظ) فى حجرته كالمعتاد ، و (فاطمة) تدلله ، وتشمله برعايتها .

وهزت رأسها ، مستطردة فى زهو :

ـــ صدقونى .. (فاطمة) هى خير من تصلح زوجة لـ (حافظ) .

أزاحتها (زينب) جانبا ، وهى تقول فى لهفة :

ـــ دعينا منهما الآن ، إن (ماهر) يضيق بالانتظار .

بدت وكأنها تطير عبر ردهة السراى ، حتى بلغت الحديقة الخلفية ، فتوقفت تلهث ، وتضرج وجهها بحمرة الحياء ، وهى تبتسم متمتمة :

ـــ صباح الخير يا (ماهر) .

التهمها بعينيه فى حب جارف ، وهو يهرع إليها ، ويلتقط كفها فى راحته ، ويعتصرها فى رفق وحنان ، هاتفًا :

ـــ صباح الخير يا (زينب) .

ودون اتفاق مسبق ، وبتلقائية شديدة ، جلسا معًا على سور سلم السراى الخلفى ، وهمس (ماهر) :

ـــ طال الانتظار يا (زينب) .

خفضت وجهها فى حياء ، وهى تقول :

ـــ إن غدًا لناظره قريب يا (ماهر) .

سألها فى لهفة ، وهو يضم كفها إلى صدره :

ـــ متى يلتئم شملنا ؟

تنهدت وقالت :

ـــ لست أدرى .. لن يمكننى سؤال (حسين) .

أجابها فى حماس :

ـــ سأسأله أنا .

ابتسمت فى فرح وحياء ، وهى تقول :

ـــ حقًا !

نهض قائلًا فى جزم :

ـــ نعم .. لم أعد أطيق صبرًا على الانتظار .. سأسافر إليه فى (القاهرة) هذا المساء ، وأطلب منه تحديد موعد الزفاف .

تمتمت فى قلق :

ـــ هل سيوافق ؟

سألها فى دهشة :

ـــ ولم لا ؟

ألقت عليه نظرة جانبية ، دون أن تنبس ببنت شفة ..

ودون أن تفصح عن مخاوفها الحقيقية ..

إنها لم تنس بعد موقف (حسين) ، عندما تقدم (ماهر) ووالده بطلب يدها ..

ذلك الموقف الذى تسبب جزئيًا فى وفاة والدها (رحمه الله) ..

وهى لاتدرى ماذا سيكون موقفه الآن ؟!..

ولكنها تخشى التفكير فى احتمال الرفض ..

مجرد التفكير ..

ولما طال صمتها ، عاد (ماهر) يسألها :

ـــ ولم لا ؟

هزت رأسها فى صمت ، وتمتمت :

ـــ إنه مجرد تساؤل .

ابتسم فى حنان ، وربت على رأسها ، قائلًا :

ـــ اطمئنى يا (زينب) .. سيتم كل شىء كما تمنينا .

لم تنبس ببنت شفة هذه المرة أيضا ، ولكن قلبها امتلأ بالخوف ..

كل الخوف ..

* * *

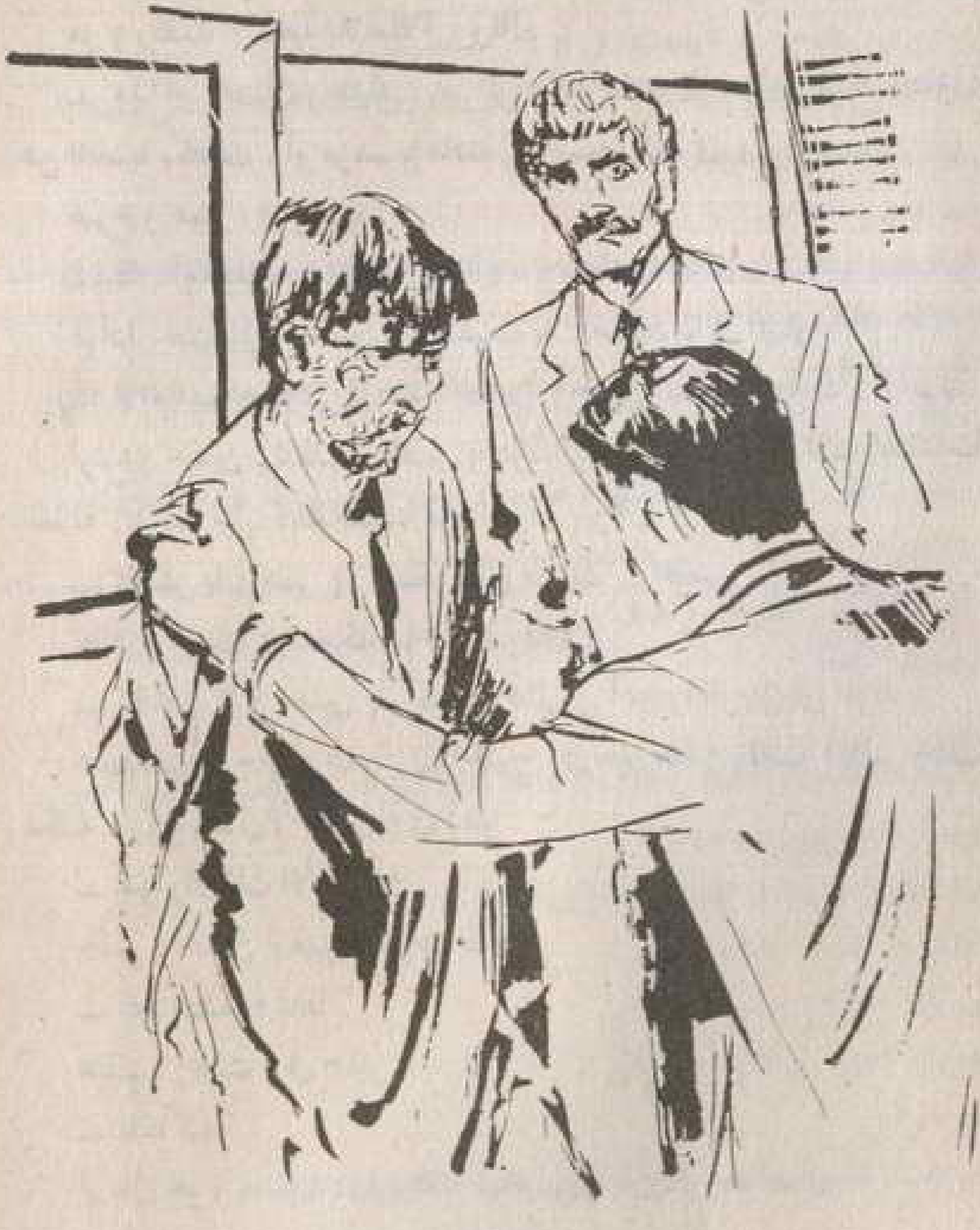

تسمر (حسين) فى مكانه ، وهو يحدق فى ذلك الذى يقف أمامه ..

لم يكن (عمر) الذى يعرفه ..

كان بقايا (عمر) ..

بقايا إنسان ..

وكان من الواضح أنه قد عومل بأسوإ ماتكون المعاملة ، فى الساعات القليلة التى مرت ، منذ انتزاعه من فراشه ..

كان محطمًا ، منهارًا ، منكسرًا ، تحيط بعينه اليمنى كدمة زرقاء مخيفة ، ويسيل من وسط خصلات شعره خيط من الدم اللزج ، وقد تمزق جلبابه شر ممزق ..

وكانت عيناه تحملان نظرة مؤلمة ..

نظرة تجمع مابين المرارة والهوان والكراهية ..

نظرة مظلوم ..

وبابتسامة ساخرة مزهوة ، أشار (رفعت كساب) إلى (عمر) ، وهو يقول لـ (حسين) :

ــ لقد وقع زوج شقيقتك تنازلًا عن القضية الخاصة بميراثك ، وتعهدًا بعدم التعرض لك .

ردد (حسين) مبهوتًا :

ــ عدم التعرض لى ؟!

أكمل (رفعت) مبتسمًا :

ــ لقد أقنعه رجالنا بذلك .

ران الصمت تمامًا على الحجرة ، بعد هذه العبارة ، ثم نهض (حسين) من مقعده فى بطء ، واتجه نحو (عمر) ، ووضع يده على كتفه ، قائلًا :

ــ سيحصل الجميع على أنصبتهم الشرعية ، من إيراد الأرض .

تمتم (عمر) فى لهجة أقرب إلى البكاء :

ــ بالتأكيد .

ربت (حسين) على كتفه مرة أخرى فى إشفاق ، ثم التفت إلى (رفعت) ، يسأله :

— هل يمكنه العودة إلى منزله يا سيدى ؟

هز (رفعت) كتفيه بلا مبالاة ، وقال :

— هذا أمر يخصك وحدك .. مر الرجال بإعادته إلى منزله ، لو أن التنازل عن القضية يكفيك ، أو مرهم بإعادته إلى السجن الحربى ، لو.....

صرخ (عمر) فى رعب :

— لا .. أرجوك .

ثم أدار عينيه إلى (حسين) ، وتشبث به ، مستطردًا فى انهيار :

— لا تدعهم يعيدوننى إلى هذا الجحيم يا (حسين) بك .. أرجوك .. أرجوك .

ارتاع (حسين) لذلك الموقف ، وأدرك كم قاسى (عمر) فى تلك الساعات القليلة ، فربت على كتفه مطمئنا مرة أخرى ، وقال :

— اطمئن يا (عمر) .. سنعود إلى منزلك .. اطمئن .

أطلق (رفعت) ضحكة ساخرة ، وقال :

— كما تحب يا (حسين) .. هيا يا رجال .. أعيدوا الرجل إلى منزله .

اصطحب الرجال (عمر) إلى الخارج ، فى حين عاد (رفعت) يجلس خلف مكتبه ، وهو يسأل (حسين) فى زهو :

— هل راق لك الأمر ؟

جلس (حسين) مبهوتًا ، وهو يتمتم :

— لقد حطموه تمامًا .

هتف (رفعت) فى حماس :

— بالتأكيد .

ثم مال نحو (حسين) ، وبرقت عيناه ببريق قوى ، وهو يقول :

— هذا ما ينبغى أن يكون دومًا يا (حسين) .. أن يعلم الجميع أن الثورة قوية ، لا تأبه بسخافاتهم ، وأن يعلموا أن التعرض لشعرة واحدة من رأس رجل من رجال الثورة يعنى الدمار .

وضرب سطح مكتبه بقبضته فى قوة ، مستطردًا :

— ينبغى أن يعلموا أننا القوة .. القوة الوحيدة فى هذا المجتمع .. هل تفهم ؟

ردد (حسين) مبهورًا :

— نعم .. أفهم .

تراجع (رفعت) فى مقعده بارتياح ، وأشعل سيجارته ، ونفث دخانها فى قوة ، وهو يقول :

— وهكذا ينبغى أن تتعامل مع الآخرين دومًا يا (حسين) .. تعامل على أنك الأقوى .. هكذا يتعامل أحد رجالنا .

امتلأت نفس (حسين) بنشوة عارمة ، وهو يستمع إلى هذا الحديث ، بتلك اللهجة الحماسية ، التى يتحدث بها (رفعت) ..

وبدا الشعور بالقوة يسرى فى عروقه ..

بالقوة المطلقة ..

* * *

أطلقت الأميرة (عايدة) ضحكة عابثة عالية النبرة ، ولوحت بكأس الخمر فى يدها ، وهى تقول فى سخرية :

— القوة ؟! .. إذن فهم يسعون إلى القوة .

ابتسم (حسين) وهو يقول :

— لقد حصلوا عليها بالفعل .

هزت كتفيها ، وقالت فى بغض :

— هراء .

جرعت كأسها دفعة واحدة كعادتها ، وأضافت فى حدة :

ـــ هذا ما يتصورونه .
تلاشت ابتسامته ، وهو يسألها فى قلق :
ـــ هل تكرهين الثورة إلى هذا الحد ؟
هزت رأسها نفيًا ، وقالت فى سخرية :
ـــ لا .. لست أكره الثورة .
تنهد فى ارتياح ، وقال :
ـــ هذا أفضل .
اقتربت منه ، وقالت فى حدة :
ـــ هل صدقت حقًا أننى لا أكره الثورة ورجال الثورة ؟.. يالك من غر ساذج !!
قال فى دهشة :
ـــ ولكنك قلت منذ لحظة ..
قاطعته وهى تلقى نفسها إلى جواره :
ـــ قلت ماذا ؟.. ما الذى تنتظره من أميرة مثلى ، استولت ثورتكم على كيانها كله ، وتسعى لإزالته من الوجود ؟
تمتم متوترًا :
ـــ اخفضى صوتك يا (عايدة).. أرجوك .
أطلقت ضحكة عابثة ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، وهى تقول :
ـــ هل تخاف منهم ؟
ارتبك مغمغمًا :
ـــ لا .. ولكن ..
قاطعته فى همس يزخر بالدلال :
ـــ اطمئن .. لست أكره كل رجال الثورة .. إننى أحب أحدهم .
ازدرد لعابه فى صعوبة ، وتطلع إلى عينيها الفاتنتين ، وهمس فى لهفة :

ـــ (عايدة).. هل تقبلينني زوجًا ؟
تراجعت فى حركة حادة ، وهى تقول :
ـــ أقبلك ماذا ؟
كرر مرتبكًا :
ـــ زوجًا يا (عايدة) .. إننى أسألك الزواج .
خيل إليه أن عينيها قد برقتا فى ظفر ، وهى تنهض فى بطء ، وتتجه نحو البار الصغير فى الردهة ، وتصب لنفسها كأسًا فى صمت ...

وتضاعف ارتباكه ، وهو يسألها :
ـــ ما رأيك يا (عايدة) ؟
استدارت إليه فى بطء ، وجرعت كأسها دفعة واحدة ، وتوردت وجنتاها بفعل الخمر ، وابتسمت ابتسامة جعلتها صورة مجسمة للفتنة ، وهى تقول :
ـــ ما رأيك أنت ؟
ردد فى حيرة :
ـــ رأيى أنا ؟!
أطلقت ضحكة عابثة مرة أخرى ، ثم قالت :
ـــ إننى أوافق يا (حسين) .

رقص قلبه طربًا بين ضلوعه ، وهو يهتف :

ـــ حقًا يا (عايدة) .. إننى ..

قاطعته فى حسم :

ـــ ولكن بشروط .

عاد إلى مكانه ، متمتمًا فى قلق :

ـــ أية شروط ؟

قالت فى دلال :

ـــ أريد حفل زفاف لامثيل له ، تتحدث عنه (القاهرة) عام كامل على الأقل .

أجابها فى حماس :

ـــ لك هذا .

أضافت فى دلال أكثر :

ـــ وأريد ثوب زفاف متميز من (باريس) .

قال فى حماس أشد :

ـــ ستحصلين على أفضل ثوب زفاف فى العالم ، وسأرسل فى طلبه صباح الغد ، و.....

قاطعته فى حزم :

ـــ لا .. أريد أن أسافر لشرائه بنفسى .

ابتسم قائلًا :

ـــ لا بأس .. أهذه كل الشروط ؟

ابتسمت أكثر ابتساماتها عذوبة ، وهى تقول :

ـــ نعم .. هذه هى .

نهض من مكانه ، واتجه إليها ، وأمسك كتفيها بحب ، وهو يتطلع إلى عينيها ، قائلًا :

ـــ (عايدة) .. إنها أجمل لحظات حياتى .

غمغمت فى دلال .

ـــ وأنا أيضًا .

وفجأة ارتفع رنين جرس الباب ، فابتعد بعضهما عن بعض حركة حادة ، وتطلعا إلى الباب ، وهتف (حسين) فى قلق :

ـــ من الزائر هذه المرة ؟

قالت (عايدة) فى توتر :

ـــ لست أدرى .. ربما هو (إبراهيم مكى) أيضًا .

تمتم فى ارتياع :

ـــ يا إلهى !!.. مرة أخرى .

أسرعت تحمل حقيبتها الأنيقة ، واتجهت نحو حجرة النوم ، قائلة :

ـــ سأختبئ مؤقتا ، وأيا كان الزائر ، حاول أن تصرفه بسرعة .

اختفت داخل حجرة النوم ، وازدرد هو لعابه فى توتر ، واتجه نحو الباب ، مع ارتفاع رنين جرس الباب للمرة الثانية ..

وفتح (حسين) الباب ..

وارتفع حاجباه فى دهشة ، عندما وقع بصره على (ماهر) ، وهتف :

ـــ (ماهر) ؟!

ابتسم (ماهر) فى خجل ، وهو يقول :

ـــ معذرة يا (حسين) بك .. لم أكن أحب أن أصل متأخرًا ، ولكننى بحثت عن المنزل طويلًا ، و.....

منعه الارتباك من إتمام حديثه ، ووقف الاثنان أمام بعضهما البعض فى صمت ، قبل أن يقول (حسين) فى توتر :

ـــ تفضل يا (ماهر) .. تفضل .

دلف (ماهر) إلى الداخل فى حياء، ولم يكد يستقر فوق مقعده، حتى قال:

— أتيت بشأن (زينب) .

جلس (حسين) أمامه ، وراح يختلس النظر إلى حجرة النوم ، حيث اختفت (عايدة) ، وسأله :

— ماذا عنها ؟

فرك (ماهر) كفيه ، وهو يقول مرتبكًا :

— الواقع أن خطبتنا قد تمت منذ عدة أشهر ، و.....

طال صمته من فرط ارتباكه ، وتزايد قلق (حسين) ، خشية أن ينتبه (ماهر) إلى رائحة عطر (عايدة) المميز ، الذى يملأ المكان ، فقال فى عصبية :

— وماذا ؟

ازدرد (ماهر) لعابه ، وقال :

— وأظن أن الوقت قد حان لكى .. أعنى أن .. أن ..

قاطعه (حسين) فى توتر :

— أتريد أن تتم الزفاف ؟

بدا الارتياح على وجه (ماهر) ، وهو يقول فى لهفة :

— نعم يا (حسين) بك .. هذا ما أريده بالتحديد .

لم يكن (حسين) مستعدًا لمناقشة الأمر الآن ، ولم يكن يرغب — فى الوقت ذاته — فى الدخول فى جدل طويل مع (ماهر) ، أضف إلى هذا شعور عقله الباطن بالخوف والذنب ، لعلاقته السرية بـ (عايدة) ..

كل هذا دفعه إلى أن يقول فى سرعة :

— لا بأس .. فليتم الزفاف .

لم يصدق (ماهر) أذنيه ، ولم يصدق أن الأمر قد تم بهذه البساطة ، فهتف فى انفعال وسعادة :

— متى يا (حسين) بك .. متى يتم الزفاف ؟

قال (حسين) فى توتر ، وهو يختلس النظر إلى حجرة النوم :

— فى الوقت المناسب يا (ماهر) .. لم يمض بعد عام كامل على وفاة أبى كما تعلم ، و.....

قاطعه (ماهر) فى لهفة :

— يمكننا أن نتم الزفاف دون أن نقيم حفلًا .

زاد توتر (حسين) ، وهو يقول :

— لا بأس .. لا بأس .. هذا أفضل .

سأله (ماهر) فى انفعال :

— متى يا (حسين) بك ؟.. متى ؟

بلغ توتر (حسين) مبلغه ، وأراد أن ينهى تواجد (ماهر) بأى ثمن ، فقال :

— الخميس القادم .. الخميس القادم بإذن الله .

صاح (ماهر) فى فرح :

— أشكرك يا (حسين) بك .. أشكرك كثيرًا .

واندفع يغادر المكان فى لهفة ، وهو يتمنى أن ينقله بساط سحرى إلى (زينب) فى طرفة عين ، ليبلغها البشرى ، دون أن يدرك أن صاحب الفضل فى سعادته هو نوع من العطر ..

عطر أميرة سابقة ..

* * *

٢٨ — مفاجأة ..

تم حفل زفاف (ماهر) و (زينب) فى هدوء ، بعكس التقاليد المتبعة فى ريف (مصر) ، فى تلك الفترة ، واقتصر المدعوون فيه على أفراد أسرتى العروسين ، بالإضافة إلى العمدة والمأمور وزوجتيهما ، وعلى الرغم من ذلك بدا (ماهر) و (زينب) وكأنهما يسبحان فى بحر من الفرح والسعادة ، وإن بدا (حسين) ضجرًا ملولا ، وكأنما يتعجل العودة إلى (القاهرة) ، التى لم يعد يحتمل الابتعاد عنها ، منذ توطدت علاقته بـ (عايدة) ..

وفى ركن من أركان ردهة القصر ، حيث أقيم حفل الزفاف الهادئ ، مال العمدة على أذن المأمور ، وقال فى ضيق :

— هل رأيت مثل هذا الجحود من قبل ؟.. يقيمون حفل زفاف ، قبل أن ينقضى عام على وفاة والدهم ؟

تنهد المأمور ، وقال :

— ومنذ متى يهتم أبناء (البنهاوى) بالأصول والأعراف .. إنهم حتى لايرتدون الثياب المعتادة فى القرية منذ نشأتهم ، بل يصرون دومًا على ارتداء ثياب أهل المدن .

همس العمدة فى حدة :

— هكذا أرادهم والدهم .

أضاف المأمور فى مرارة :

— لعنة الله .

ثم أشار من طرف خفى إلى (مفيد) ، مستطردًا :

— ولكن انظر إلى آخر العنقود هذا .. يبدو أنه يشاركنا رأينا ، فهو لايظهر أية لمحة من السرور ، فى حفل زفاف شقيقته .

غمغم العمدة فى سخرية :

— حفل زفاف ؟!.. أتسمى ذلك الاجتماع العائلى حفل زفاف ؟

ابتسم المأمور فى سرية بدوره ، وهو يقول :

— صدقت .

وفى الركن المقابل ، اتجهت (شريفة) نحو شقيقها (مفيد) ، وربتت على كتفه ، هامسة :

— مالك تبدو حزينًا هكذا ؟.. من يراك لايتصور أبدًا أنه حفل زفاف شقيقتك .

قال فى مرارة :

— إننى أحاول الابتسام يا (شريفة) ، ولكن عقلى يأبى إقناع شفتى بهذا ، وهو غارق فى الحزن والمرارة حتى نخاعه .

ارتفع حاجباها ، وهى تهتف فى دهشة :

— حزن ومرارة ؟!

ثم أمسكت كفه ، وقادته إلى حجرة جانبية ، وهى تقول :

ـ ثم أمسكت كفه ، وقادته إلى حجرة جانبية ، وهى تقول :

ـ هيا .. أخبرنا .. أى حزن هذا ؟.. وأية مرارة ؟

رفع عينيه الحزينتين إليها ، وهو يقول :

ـ هل رأيت (عمر) زوج (نعيمة) ، بعد عودته من أيدى هؤلاء الثوار ؟

ضغط حروف الكلمة الأخيرة على نحو واضح ، وكأنما يكره النطق بها ، فأجابت (شريفة) فى اهتمام :

ـ لا .. لم أره ، ولكن (نعيمة) تقول إنه لم يخاطبها بحرف واحد ، منذ عودته ، بل لم يلمسها ، أو حتى يقبل ابنته الصغيرة ، حتى ليخيل إليها أنه .. أنه ..

أكمل (مفيد) فى مرارة :

ـ يكرهها .. أليس كذلك ؟

تمتمت فى خفوت :

ـ بلى .. هذا هو المصطلح الذى استخدمته بالتحديد ، وهى تبكى فى حزن .. لقد لاحظت بالطبع أنه لم يحضر حفل الزفاف ، وإن لم يحاول منع (نعيمة) من الحضور مع طفلتها .

تنهد (مفيد) فى ألم ، وقال :

ـ من الطبيعى أن يفعل هذا .. لقد أهين بشدة ، وامتهنت كرامته وإنسانيته ، وكل هذا بسبب (حسين) ، شقيق زوجته ، ومن الطبيعى أن يبغض هذه الزوجة ، وأن يكره تواجده معها ، وهى التى تعلم بهوانه ومذلته ، وأنا على يقين من أنه لولا سلطة (حسين) ، لطلق (عمر) زوجته بلا تردد .

اتسعت عينا (شريفة) فى هلع ، وهى تهتف :

ـ يطلقها ؟!.. لا يا (مفيد) .. لا تقل هذا .. الطلاق أمر بشع .

أجابها بنفس مرارته :

ـ كثيرًا ما يكون عدم حدوثه أكثر بشاعة يا (شريفة) .

لم تستطع هضم الفكرة ، فهزت رأسها فى عنف ، وكأنما تطردها فى قوة ، وقالت :

ـ دعك من أمر (نعيمة) و (عمر) ، وأخبرنى .. ما رأيك فى (فاطمة) ، ابنة عم (عبد الحميد) ؟

بدا له ذلك الانتقال فى الحديث عجبًا ، فتطلع إليها فى دهشة ، وهو يقول :

ـ (فاطمة) ؟!.. ولماذا تطلبين رأيى فيها الآن ؟

ابتسمت فى جذل طفولى ، وهى تقول :

ـ أريد أن أعرف رأيك .. هلا تصلح (فاطمة) كزوجة ؟

تضاعفت دهشته ، وهو يهتف :

ـ زوجة ؟!.. (فاطمة) ؟!.. ماذا تقصدين بالضبط ؟

قالت فى لهفة :

ـ ألم تلحظ شدة اهتمامها بـ (حافظ) ، وشدة ارتياحه هو لوجودها ؟

انخفض صوته ، وهو يقول :

ـ مرة أخرى ماذا تقصدين يا (شريفة) ؟

مالت نحوه ، وقالت فى مرح :

ـ أقصد أن (فاطمة) تصلح زوجة لـ (حافظ) .

تراجع فى حدة ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟.. هل تمزحين ؟

اعتدلت قائلة فى جدية :

ـ مطلقًا .

ثم عادت تميل نحوه ، متابعة فى خفوت :

ـ حاول أن تنظر إلى الأمر ، مثلما أنظر أنا .. لقد تزوجت (زينب) الليلة ، ولن ألبث أن أتزوج أنا و (ناهد) ، وتنتقل كل منا إلى منزل زوجها ، من سيرعى (حافظ) حينذاك ؟

أجاب فى حماس :

ــ أنا .

هزت رأسها نفيا ، وقالت :

ــ لاتكن خياليا .. حتى أنت ستتزوج يوما ، ولن تقبل أن تعمل زوجتك كخادمة لشقيقك ، فـ (حافظ) بحالته هذه لايحتاج لأكثر من خادمة ، ولكن من تقبل رعايته من هذا المنطق ؟.. أضف إلى هذا أن (فاطمة) تحسن رعايته ، وأن زواجها منه سيمنحه خادمة رخيصة دائمة .

عقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ــ إننى أرفض هذا المنطق الأنانى .

قالت فى حدة :

ــ دعك من هذه الفلسفة الحمقاء .. إننى أجدها فكرة رائعة .

ثم أضافت فى رجاء :

ــ وأريد منك أن تنقلها إلى (حسين) .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ مستحيل .. قلت لك إننى أرفض هذا المنطق تمامًا .

هتفت فى حدة :

ــ كما يحلو لك ..

ثم أضافت فى حزم وترفع :

ــ سأخبره أنا .

لوح بكفه محنقًا ، وهتف :

ــ هذا شأنك .

تركته بحركة حادة ، ورآها تتجه مباشرة نحو (حسين) ، وتهمس فى أذنه ببضع كلمات ، تطلع (حسين) بعدها إليها فى حيرة ، ثم نهض من مقعده ، واتجه معها إلى حجرة جانبية ، وهناك رآها (مفيد) تشرح وجهة نظرها لـ (حسين)

فى حرارة ، ورأى الدهشة ترتسم على وجه (حسين) فى عنف ، ثم تتحول إلى غضب واضح ، استقبلته (شريفة) فى هدوء ، وهى تواصل شرح وجهة نظرها ، فغمغم (مفيد) لنفسه فى ضيق :

ــ مستحيل .. لن يوافق (حسين) على هذا المبدإ أبدًا .

تنهد فى مرارة ، وغادر مكانه إلى الردهة ، وبذل أقصى جهده ليرسم على شفتيه ابتسامة هادئة ..

وفجأة عبر أذنه صوت (حسين) ، وهو يقول :

ــ عم (عبد الحميد) .. تعال .. أريدك هنا .

التفت إليه (مفيد) فى دهشة ، وتضاعفت دهشته ، عندما رأى تلك الابتسامة الظافرة على شفتى (شريفة) ، وهى تتجه إليه ، وتجلس إلى جواره ، قائلة :

ــ أرأيت ؟

حدق فى وجهها فى ذهول ، وهو يقول :

ــ هل وافق ؟.. وبهذه السرعة المذهلة ؟

أجابته مزهوة :

ــ لقد رفض بشدة فى البداية ، ولكننى شرحت له وجهة نظرى ، وأخبرته أن زواج (حافظ) من فتاة مستكينة مثل (فاطمة) ، سيزيل قلقنا الدائم بشأن (حافظ) ، وسيضمن لـ (حسين) عدم حدوث أية اضطرابات مفاجئة فى المستقبل ، قد تعترض عمله أو سمعته .

بدا الضيق على وجه (مفيد) ، وقال :

ــ إذن فقد عزفت على أخطر أوتار (حسين) .. عمله وسمعته .

قالت فى فخر :

ــ بالطبع .

أدار عينيه مرة أخرى إلى حديث وقف (حسين) مع (عبد الحميد) ، وتمنى لو استطاع معرفة محور حديثهما ..

تمنى من كل قلبه ..

أما بالنسبة لـ (عبد الحميد) نفسه ، فقد كانت المفاجأة مذهلة ..

لقد لبى نداء سيده ، وأقصى مايدور بخلده هو أن (حسين) سيكلفه عملًا ما ، ولكنه فوجئ بـ (حسين) يقول فى صرامة :

ـــ هل تحدث إليك أى شخص ، بشأن ابنتك (فاطمة) يا (عبد الحميد)؟

شعر الرجل بالحيرة ، وهو يقول :

ـــ فى أى شأن ياسيدى ؟

قال (حسين)فى ضجر عصبى :

ـــ هل طلبها أحدهم للزواج ؟

كان (عبد الحميد) يعلم أن ابنته تفتقر كثيرًا إلى الجمال والأنوثة ، بقامتها المديدة ، وكتفيها العريضتين ، وصوتها الأجش ؛ لذا فقد غمغم فى حزن :

ـــ لا ياسيدى .. ليس بعد .

قال (حسين) فى توتر :

ـــ حسنًا .. إننا نطلبها للزواج .

حدق (عبد الحميد) فى وجهه فى ذهول ، وهو يقول :

ـــ تطلبها لماذا ياسيدى ؟

أجابه فى حدة :

ـــ للزواج يارجل .. هل أصابك الصمم ؟

ارتجف قلب (عبد الحميد) بين ضلوعه ، وانتقلت ارتجافته إلى جسده كله ، وهو يردد :

ـــ الزواج ياسيدى .. تطلب ابنتى أنا للزواج ؟!

أجابه فى صرامة :

ـــ نعم يا (عبد الحميد) .. ستتزوج ابنتك أخى (حافظ) .

اتسعت عينا (عبد الحميد) ، وهو يهتف مبهوتًا :

ـــ (حافظ) ؟!

قال (حسين) فى عنف :

ـــ نعم يارجل .. ابنتك (فاطمة) ستتزوج سيدها (حافظ بك البنهاوى) .. ألديك اعتراض على هذا ؟

لم ينبس (عبد الحميد) ببنت شفة لحظات طوالًا ..

لقد صدمه اختيار (حافظ) كزوج لابنته الوحيدة ..

صحيح أن (فاطمة) تفتقر كثيرًا للجمال والأنوثة ، ولكن القرية كلها تعلم أن (حافظ البنهاوى) قد فقد عقله ..

كيف تتزوج ابنته رجلًا مجنونًا ؟..

طال صمته ، فسأله (حسين) مرة أخرى :

ـــ ألديك اعتراض ؟

كان صوت (حسين) هذه المرة يجمع مابين الحزم والصرامة والتهديد والوعيد . مما جعل (عبد الحميد) ينكمش داخل نفسه فى خوف وانكسار . وهو يتمتم فى خفوت بدا عسيرا على السمع :

ــ (فاطمة) خادمتكم وجاريتكم ياسيدى ؟

قال (حسين) فى سرعة ، وكأنما يرغب فى إتمام هذه الفكرة المجنونة ، قبل أن يرفضها عقله :

ــ عظيم .. أبلغها أن تستعد إذن . فسنعقد قرانها على (حافظ) الليلة ، قبل أن ينصرف الشيخ (كامل) ، مأذون القرية .

هتف الرجل فى ارتياع :

ــ الليلة ياسيدى ؟!.. ولكنها مفاجأة ، ولم نستعد أنا ووالدتها ، و.....

قاطعه فى حزم ضجر :

ــ إننا لاننتظر منكم شيئا يا (عبد الحميد) .. هيا سأسافر إلى (القاهرة) فى منتصف الليل ، وأحب أن ينتهى كل شىء ، قبل أن أذهب .. هيا .

خفض (عبد الحميد) رأسه فى انكسار ، وتمتم فى استسلام مرير :

ــ كما تأمر ياسيدى .. كما تأمر .

وانصرف بخطوات ثقيلة مريرة ، تاركًا خلفه (حسين) ، يغمغم فى توتر :

ــ فكرة جنونية بحق ، ولكنها ستعفينا من القلق الدائم على (حافظ) .

ثم أدار عينيه إلى حيث تجلس (شريفة) ، واستطرد :

ــ بقى أمر واحد ، وأمحو كل المشاكل من عقلى .

واتجه نحو (شريفة) ، وقال فى حزم :

تعالى يا (شريفة) .. أريد التحدث إليك .

تبعته فى لهفة ، حتى انتقلا إلى الحجرة الجانبية ، فأسرعت تسأله :

ــ هل وافق (عبد الحميد) ؟

هتف مستنكرًا :

ــ وافق ؟!.. ليس له حق القبول أو الرفض .. لقد وافق على الرغم من أنفه .. وسيتم عقد القران الليلة .

هتفت مشدوهه :

ــ الليلة ؟!.. ولكن ..

قاطعها فى ضيق :

ــ دعى لى هذه الأمور .. إننى لم أنفرد بك لاستشارتك فى هذا ، أو إبلاغك بما تم .. فقط أريد أن تعلمى أن أحد ضباط الجيش سيأتى لخطبتك هنا ، الخميس القادم .

ارتجف قلبها ، وهى تهمس فى انفعال :

ــ سيأتى لخطبتى .

بدت السعادة واضحة على شفتيها وملامحها كلها ، و(حسين) يضيف :

ــ استعدى لمقابلته ، عليك إعداد وليمة فاخرة ، بالتعاون مع (ناهد) و(فاطمة) ، ولاأريد أن يظهر (حافظ) أو(فاطمة) فى أثناء تواجد اليوزباشى (فؤاد) .

سألته فى لهفة :

ــ هل يدعى (فؤاد) ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال فى ضجر :

ــ نعم .. وهو شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة .

سألته فى حياء :

ــ أهو وسيم ؟

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ــ إنه شقيق أحد الكبار .. وهذا يكفى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ــ ولكنه ، على الرغم من هذا ، وسيم بالفعل .

تهللت أساريرها على نحو واضح ، فضحك وقال :

ــ هيا .. اذهبى إلى (حافظ) ، وأخبريه أنه سيتزوج الليلة من (فاطمة) .. هيا .

هتفت فى جذل :

ــ شكرًا يا (حسين) .. شكرًا ياأخى العزيز .

انطلقت والفرحة تملأ صدرها ، إلى حجرة شقيقها (حافظ) ..

وبدت لها هذه الليلة من أجمل ليالى العمر كله ..

وكيف لا ؟..

لقد تم فيها زفاف (ماهر) و (زينب) ..

وسيتم بعد قليل عقد قران (حافظ) و (فاطمة) ..

وفيها أعلنها شقيقها بخطبتها إلى ضابط وسيم ، من رجال الثورة ..

الليلة تبدو لها بالفعل من أجمل ليالى العمر ..

ولكن من يدرى ماذا يخبئ القدر فى طياته ؟..

من يدرى ؟..

* * *

٢٩ ــ تصريح سفر ..

تطلع (رفعت كساب) إلى (حسين) طويلًا فى صمت ، وهذا الأخير يقف أمامه قلقًا ، فى حجرة مكتب (رفعت) ، الذى قطع صمته ، وهو يتراجع بمقعده ، ويشعل سيجارته ، قائلًا فى بطء :

ــ إذن فأنت ستتزوج الأميرة (عايدة) ؟!

أجابه (حسين) بلهجة عسكرية صرفة :

ــ تمامًا ياسيدى .

نفث (رفعت) دخان سيجارته مرة أخرى ، وسأله :

ــ وهل وافقت هى على هذا الزواج ؟

أجابه (حسين) فى دهشة :

ــ بالطبع ياسيدى .

هز (رفعت) رأسه فى حيرة ، وكأنما يرفض تصديق هذا ، إلا أنه لم يلبث أن قال :

ــ ربما .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ــ ألف مبارك إذن يا (حسين) .. سيكون من الطريف حقًّا أن يتزوج ابن مكافح مثلك من أميرة سابقة .

ومال نحوه ، مضيفًا بابتسامة أكبر :

ــ وماذا تريد كهدية زواج ؟.. سيارة ؟

ابتسم (حسين) ، وهو يقول :

ــ إننى أمتلك سيارة بالفعل ياسيدى ، وشقة فاخرة ، مؤثثة على أحدث طرازًا ، أهديتها إلى إياها .

ضحك (رفعت) فى زهو : وقال :

ـــ حسنًا .. ماذا تريد ؟

أجابه (حسين) فى لهفة :

ـــ تصريح بالسفر ياسيدى .

اتسعت ابتسامة (رفعت) كثيرًا ، وهو يقول :

ـــ هل تنوى قضاء شهر العسل فى (أوروبا) ؟

هز (حسين) رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لا ياسيدى .. كل ما أريده هو تصريح بسفر (عايدة) إلى (باريس) ، لشراء ثوب الزفاف .

عقد (رفعت) حاجبيه ، وعاد يتراجع بمقعده ، متمتمًا :

ـــ لشراء ثوب الزفاف ؟!.. فقط ؟

أجابه (حسين) فى بساطة :

ـــ فقط ياسيدى .

ران الصمت على الحجرة لحظات ، و (رفعت) ينفث دخان سيجارته ، ويتطلع إلى (حسين) فى اهتمام ، قبل أن يعتدل قائلًا :

ـــ فليكن يا (حسين) ، سأمنحها تصريح السفر هذا .

تهللت أسارير (حسين) ، وهو يقول :

ـــ شكرًا لك ياسيدى .. شكرًا لك .

غادر حجرة (رفعت) ، واتجه إلى مكتبه فى سعادة ، ورفع سماعة هاتفه ، وطلب رقم (عايدة) ، ولم يكد يسمع صوتها ، حتى قال :

ـــ (عايدة) .. لقد حصلت على تصريح السفر .

خيل إليه أن صوتها كان يحمل قدرًا هائلًا من السعادة والفرح ، وهى تهتف :

ـــ حقًا !!

أجابها فى فرح لفرحتها ، مع شىء من الزهو بنجاحه :

ـــ بالطبع ياعزيزتى .. لقد سألتنى إياه ، وكان من الضرورى أن أحضره لك .

سألته فى لهفة عارمة قوية :

ـــ ومتى أسافر إلى (باريس) يا (حسين)؟.. متى ؟

أجابها فى سرعة :

ـــ فى أقرب فرصة بإذن الله .

ثم أضاف فى لهفة محب عاشق :

ـــ المهم متى أراك ؟

أجابت فى سرعة :

ـــ الليلة لو أردت .

قال فى سعادة :

ـــ فليكن .. سنلتقى الليلة فى منزلى .. فى التاسعة .

قالت فى لهفة :

ـــ حسنًا .. ولكن لاتنس إحضار التصريح معك .

أجاب فى حنان :

ـــ لن أنسى أبدًا .

لم يكد ينهى الاتصال ، حتى دلف (إبراهيم مكى) إلى المكتب ، وبدت ابتسامته المقيتة أشد سخرية وخبثًا ، وهو يقول :

ـــ لقد استخرجنا لك تصريح السفر .

تمتم (حسين) فى ضيق :

ـــ شكرًا لك .

جلس (إبراهيم) على المقعد المواجه لمكتب (حسين) ، وقال فى هدوء ، لايخلو من الخبث :

ـــ هل تريد التصريح الآن ؟

قال (حسين) فى حذر :

ـــ لو أمكن هذا .

ناوله (إبراهيم) ورقة تحمل موافقة سفر الأميرة (عايدة)، مذيلة بتوقيع (رفعت كساب)، وخاتم قيادة الثورة ، وتناول (حسين) الورقة فى حذر ، ودسها فى جيبه ، وهو يكرر :

ــ شكرًا لك .

ساد الصمت لحظات ، ثم سأله (إبراهيم) فى خبث :

ــ هل تثق فى الأميرة (عايدة) حقًا ؟

أجابه (حسين) فى ضيق :

ــ إنها ستصبح زوجتى .

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ــ إذن فأنت تثق فيها تمامًا .

أجابه (حسين) فى حزم :

ــ تمام الثقة .

مط (إبراهيم) شفتيه ، وهز رأسه ، قائلًا :

ــ يبدو أننا نختلف تمامًا فى هذه النقطة .

غمغم (حسين) :

ــ هذا لو أننا نتفق فى أية نقاط أخرى .

تجاهل (إبراهيم) هذا التعليق تمامًا ، وأكمل :

ــ إننى لا أثق فى أية أميرة سابقة .

تمتم (حسين) ساخرًا :

ــ فلنحمد الله أننى لا أشاركك نفس العقد النفسية .

أطلق (إبراهيم) ضحكة تهكمية عالية ، وقال :

ــ إنك لم تشاركنى أيضًا سنوات عمل فى خدمة الملك والأمراء والأميرات .

أجابه (حسين) على نحو أقرب إلى الاستفزاز :

ــ وإننى لأفخر بهذا .

ابتسم (إبراهيم) فى استخفاف ، وتابع وكأنه لم يسمع تعليق (حسين) :

ــ إن هؤلاء الذين يتربعون على قمة السلطة ، لا يسهل عليهم التخلى عن مواقعهم المتميزة أبدًا .. قد يتعاملون مع من هم أقل منهم منزلة ، ولكن فى سبيل مصالحهم فحسب .

قال (حسين) فى حزم :

ــ هذا رأيك .

ابتسم (إبراهيم) فى استخفاف ، ونهض قائلًا :

ــ بالطبع .

ونهض مستطردًا فى خبث :

ــ أتمنى لك زواجًا سعيدًا .

تمتم (حسين) :

ــ شكرًا لك .

وانتظر حتى انصرف (إبراهيم) من مكتبه ، وأضاف فى حنق :

ــ يالك من حاسد مغرور ؟

وعاد إلى أحلامه بلقاء (عايدة) فى المساء ..

وعاد إلى نبض قلبه بحبها ..

* * *

لم يكد رنين جرس باب منزله يرتفع هذا المساء ، حتى هرع إلى الباب فى لهفة ، وفتحه على مصراعيه ، وهو يهتف :

ــ (عايدة) .

شمله الانبهار من قمة رأسه حتى اخمص قدميه هذه المرة ..

لقد كانت (عايدة) ساحرة فاتنة ..

كانت أجمل وأروع من كل المرات ، التى رآها فيها من قبل ..

وكانت تبتسم أروع ابتسامة وقعت عليها عيناه ، فى عمره كله ..

وأمسك كتفيها بأصابع مرتجفة ، وهو يحدق فى عينيها ، قائلًا :

ــ (عايدة) .. أنت اليوم فاتنة .

ضحكت فى ثقة ، وانفلتت من بين يديه ، وخطت داخل المنزل ، وهى تقول :

ــ أعلم هذا .

ثم التفتت إليه ، تسأله فى لهفة :

ــ هل أحضرت تصريح السفر ؟

التقط التصريح من جيب روبه المنزلى ، وناولها إياه ، وهو يقول مبتسمًا :

ــ هاهو ذا .

اختطفته من يده فى لهفة ، وقرأته فى سرعة ، ثم تنهدت فى ارتياح ، فاقترب هو منها ، وأحاط وسطها بذراعيه ، وهو يقول :

ــ ألا أستحق مكافأة ؟

غمغمت :

ــ بالطبع

إلا أنه لم يكن يميل نحو وجهها بوجهه ، حتى أزاحته عنها ، وأسرعت تشعل سيجارتها ، وهى تقول :

ــ قل لى : متى يمكننى السفر إلى (باريس)) ؟

ضايقه ابتعادها عنه ، وإشعالها سيجارتها ، فجلس على أول مقعد صادفه ، وهو يقول :

ــ صباح الجمعة القادم .

هتفت محنقة :

ــ صباح الجمعة ؟! .. بعد أربعة أيام كاملة ؟!

أجابها فى ضيق :

ــ كان هذا هو أول موعد ممكن .

تراجعت عن ثورتها فى سرعة ، وغمغمت :

ــ فليكن .. لقد انتظرت طويلًا ، ولن يضيرنى أن أنتظر أربعة أيام أخرى .

ثم جلست على مسند مقعده ، وداعبت شعره ، وهى تضيف فى دلال :

ــ إننى أتعجل زفافنا كثيرًا .

حاول أن يضمها إلى صدره مرة أخرى ، ولكنها أفلتت منه ، وهى تطلق ضحكة عابثة ، والتقطت حقيبتها ، قائلة :

ــ سأنصرف الآن .

هتف فى دهشة وغضب واستنكار :

ــ تنصرفين ؟!.. مستحيل !.. لقد حضرت منذ لحظات .

قالت فى لامبالاة :

ــ الظروف تحتم انصرافى مبكرة الليلة ..

وداعبت شعره مرة أخرى ، مستطردة :

ــ لقد فكرت فى الاعتذار ، ولكننى لم أحتمل فكرة عدم رؤيتك الليلة .

سألها فى اشتياق :

ــ ومتى أراك ثانية ؟

مطت شفتيها ، وهزت كتفيها ، قائلة :

ــ الخميس مثلًا ؟

قال فى ضيق :

ــ لقد دعوت أحد زملائى لتناول الغداء فى سراى الأسرة ، يوم الخميس .

قالت فى استهتار :

ــ يمكنك تأجيل الدعوة .

أجاب فى توتر :

ــ مستحيل .. إنه متقدم لخطبة شقيقتى (شريفة) .

ابتسمت فى سخرية ، وقالت :

ــ ابق معه إذن ، ولنلتق صباح الجمعة ، وأنت توصلنى إلى المطار .

قال فى خفوت :

ــ سأشتاق إليك كثيرًا .

أجابته فى سرعة :

ــ وأنا أيضًا .. إلى اللقاء .

غادرت منزله فى خطوات سريعة ، دون أن تضيف حرفًا آخر ، وبقى وحده فى المنزل محنقًا ، حزينًا ، وغمغم :

ــ لابأس .. لن تلبث أن تصبح زوجتى ، ونقضى معًا عمرنا كله .

وفى تلك اللحظة ابتسم القدر ..

ابتسم فى سخرية ..

* * *

٣٠ ـ الصدمة ..

بدا الاستعداد لدعوة الغداء منذ فجر الخميس ، حيث استيقظت (شريفة) مبتهجة ، وأيقظت (ناهد) و (فاطمة)، ورحن يطهين أصناف الطعام فى حماس ، على الرغم من معرفتهن بأن الوليمة لن تضم هذه المرة سوى ضيف واحد ..

ولكن هذا الضيف كان العريس المنتظر ..

عريس (شريفة) ..

وفى عبث مرح ، هتفت (ناهد) :

ـ لم يعد باقيا سواى .

ضحكت (شريفة)، وهي تقول :

ـ لاتقلقى بشأن هذا ، فأنت أكثرنا جمالا ، وسيتهافت الشباب لخطبتك .

قالت (ناهد) فى دلال :

ـ حقًا .

ضمتها (شريفة) إلى صدرها ، وقالت :

ـ بالتأكيد ياشقيقتى العزيزة .. يبدو أن أمنا (رحمها الله) قد ادخرت الجمال كله لك .

ضحكت (ناهد) فى مرح وسعادة ، وقالت :

ـ وعلى الرغم من ذلك ، ساكون آخر من تتزوج .

غمغمت (فاطمة) بصوتها الأجش :

ـ من يدرى ؟

صاحت بها (شريفة) فى غلظة :

ـ اخرسى ، واكملى طهو الأرز فى صمت .

مطت (فاطمة) شفتيها فى اعتراض ، وهى تقول :

ـ لماذا تتعاملان معى على هذا النحو ؟.. إننى زوجة شقيقكما .

هتفت بها (ناهد) :

ـ ماذا تقولين ؟!.. إياك أن تضعى تلك الفكرة الحمقاء فى رأسك الأجوف .. لقد كنت ، ومازلت ، وستظلين مجرد خادمة .

غمغمت (فاطمة) فى غضب :

ـ كيف ؟.. إننى زوجة شقيقكما (حافظ)، على سنة الله ورسوله .

أطلقت (شريفة) ضحكة ساخرة ، وقالت :

ـ يالك من مسكين يا (حافظ) !

وهتفت (ناهد) :

ـ ضعى فى رأسك دومًا أن زواجك من (حافظ) كان مجرد وسيلة لتوفير خادمة دائمة له ، وأن .....

انطلق فجأة صوت صارم غاضب يهتف :

ـ (ناهد) .

التفتت (ناهد) إلى مصدر الصوت فى ضيق ، وهى تقول :

ـ (مفيد) .. لقد أفزعتنى .

صاح بها غاضبًا :

ـ كيف تتعاملين مع زوجة شقيقك على هذا النحو ؟

ألقت (ناهد) نظرة ازدراء على (فاطمة)، وقالت فى اشمئزاز :

ـ زوجة شقيقى ؟!.. هل ستوافقها على هذه السخافة ؟

قال فى حزم :

ـ السخافة هى ماتقولين يا (ناهد)، فـ (فاطمة) هى زوجة (حافظ) شرعيًا ورسميًا ، شئت هذا أم أبيت .

مصمصت (شريفة) شفتيها ، وقالت :

ـ من سوء حظه .

أجابها فى حدة :

ـ وباختيارك وإصرارك .

قالت فى سخرية :

ـ كنت عمياء القلب حينذاك .

صاح فى غضب :

ـ كفى .. إنك ..

كانت المقاطعة من نصيبه هو هذه المرة ، عندما اندفع (عبد الحميد) داخل المطبخ ، هاتفًا :

ـ لقد وصل (حسين) بك وضيفه .

أسرع (مفيد) يستقبل (حسين) و (فؤاد) ، فى حين بدا الارتباك على (شريفة) ، وهى تردد :

ـ وصلا .. وصلا .

ضحكت (ناهد) وقالت :

ـ نعم .. لقد وصلا ، وعلى العروس أن تترك المطبخ ، وتتزين ، تمهيدًا لمقابلة العريس .

وصحبتها إلى خارج المطبخ ، مستطردة فى صرامة :

ـ أريد كل شىء معدا لحظة الغداء يا (فاطمة) .. هل تفهمين ؟

تمتمت (فاطمة) فى استسلام :

ـ أفهم .

ثم انحدرت من عينيها دمعة ..

دمعة هوان ..

* * *

استقبل (مفيد) (حسين) وضيفه فى ترحاب ، واتخذ الثلاثة مجلسهم فى حجرة الضيوف ، وقال (فؤاد) :

ـ رائع هو هذا السراى يا (حسين) .. لقد أبدع والدك تأثيثه .

تمتم (حسين) مزهوًا :

ـ إنه بيت العائلة يا (فؤاد) بك .

أومأ (فؤاد) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ ونعم العائلة .

وبسرعة اتصل الحديث بين الثلاثة ، حول أحوال البلد والسياسة ، وبدا (مفيد) متحفظًا إلى حد كبير ، وكأنما يخشى إثارة غضب شقيقه ، أو حزن (شريفة) لو أنه صارح عريسها المنتظر برأيه الحقيقى فيما يحدث ..

ومن خلف باب الحجرة التى تصل ما بين ردهة السراى وحجرة الضيوف ، اختلست (شريفة) و (ناهد) النظر إلى (فؤاد) ، وهمست (شريفة) فى سعادة :

ـ انظرى يا (ناهد) .. كم هو وسيم وأنيق فى زيه العسكرى !!

ربتت (ناهد) على كتفها فى حنان ، وهى تقول :

ـ مبارك يا شقيقتى العزيزة .. إنه يبدو لائقًا لك تمامًا .

راحتا تختلسان النظر والسمع طويلًا ، حتى هتف (حسين) :

ـ ألن نتناول طعام الغداء ؟

أسرعتا إلى المطبخ ، وارتجفت (شريفة) ، وهى تحمل الأطباق إلى حجرة الضيوف ، وهمست لأختها فى ارتباك :

ـ إننى أشعر بخجل شديد .

ضحكت (ناهد) قائلة :

ـ هذا شأن كل عروس .

نهض (فؤاد) واقفًا ، عندما رآهما تدلفان إلى الحجرة ، وترصان أطباق الطعام على المائدة ، وقال (حسين) ، وهو يقدم له (شريفة) :

— أختى (شريفة) .

وابتسم مستطردًا :

— العروس .

احمر وجه (شريفة) خجلًا ، فى حين صافحها (فؤاد) فى احترام ، قائلًا :

— تشرفنا .

سحبت يدها من يده فى حياء ، وأسرعت عائدة إلى المطبخ ، وهى ترتجف من فرط الانفعال ، فى حين قدم (حسين) (ناهد) إلى (فؤاد) ، قائلًا :

— شقيقتى الصغرى (ناهد) .

ضحكت (ناهد) فى مرح ، وهى تصافح (فؤاد) ، قائلة :

— آخر عنقود بنات العائلة .

أضاف (فؤاد) مبتسمًا :

— يقولون إن آخر العنقود هو أكثره حلاوة .

ضحكت قائلة :

— يبدو أنهم على حق .

التفت (فؤاد) إلى (حسين) ، وسأله ضاحكًا :

— هل يعنى هذا أن خطيبتك الأميرة (عايدة) آخر عنقود أيضًا ؟

استدارت العيون إلى (حسين) فى دهشة ، وبدا هذا الأخير مرتبكًا ، وهو يقول:

— نعم .. هى كذلك .

سألته (ناهد) :

— هل خطبت أميرة ؟

ابتسم فى زهو ، قائلًا :

— نعم .. وسيتم زفافنا قريبًا .

بدا الضيق على وجه (مفيد) ، وهو يقول :

— ولماذا لم تخبرنا من قبل ؟

قال فى صرامة :

— كنت أنتظر الوقت المناسب .

ضحك (فؤاد) ، وقال :

— وأنا اخترت هذا الوقت المناسب .

قال (حسين) ، محاولًا التخلص من حرج الموقف :

— هيا نتناول الطعام ، قبل أن يبرد .

تركتهم (ناهد) يتناولون طعامهم ، وأسرعت إلى المطبخ ، وقالت لشقيقتها (شريفة) فى سعادة :

— (حسين) سيتزوج أميرة يا (شريفة) .. الأميرة (عايدة) .

هتفت (شريفة) فى فرح :

ــ أميرة ؟!.. حقا ؟!.. إن (حسين) يستحق زوجة كهذه بالفعل .

ثم التفتت إلى (فاطمة) ، وأضافت فى ازدراء :

ــ حتى لا يسوء حظه كـ (حافظ) .

عقدت (فاطمة) حاجبيها ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فى حين صفقت (ناهد) بكفيها فى جذل طفولى ، قائلة :

ــ زوجة شقيقنا (أميرة) ، يالها من روعة !

ثم أمسكت يد (شريفة) فى قوة ، مستطردة فى فرح :

ــ وأنت ستكونين زوجة أحد رجال الثورة .. أرأيت كم تقفز أسرتنا إلى أعلى ؟

شردت (شريفة) ببصرها ، وانحدرت دمعة على وجنتها ، وهى تقول :

ــ هذا ماتمناه أبى فى حياته .

مسحت (ناهد) دمعة (شريفة) بأصابعها ، وهى تقول :

ــ لادموع اليوم .

ثم أضافت فى مرح :

ــ دعينا نختلس السمع إلى الرجال ، لنعرف ماذا يقولون عنا .

وافقتها (شريفة) بإيماءة هادئة من رأسها ، وصحبتها إلى الحجرة المجاورة لحجرة الضيوف فى خفة ، فى نفس اللحظة التى انتهى فيها الرجال من تناول طعامهم ، وقال (فؤاد) مبتسمًا :

ــ غداء رائع يا (حسين) .. كما عودتنا دومًا .

أجاب (حسين) فى فخر وسعادة :

ــ يسعدنى أن راق لك يا (فؤاد) بك .

قال (فؤاد) فى حماس :

ــ بالتأكيد .

واتخذ لنفسه مقعدًا ، وأشعل سيجارته ، ونفث دخانها فى عمق ، وقال :

ــ أنت تعلم بالطبع أننى أرغب فى الزواج من شقيقتك يا (حسين).. أليس كذلك ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ بلى يا (فؤاد) بك .. لقد أخبرنى (رفعت بك كساب) وهذا شرف كبير لأسرتنا .. ولن أجد لشقيقتى (شريفة) زوجًا أفضل ، و.....

قاطعه (فؤاد) ، وهو ينفث دخان سيجارته فى هدوء :

ــ هذه هى المشكلة .

سأله (حسين) فى دهشة :

ــ أية مشكلة ؟

مال (فؤاد) إلى الأمام ، وقال :

ــ إننى لا أريد الزواج من (شريفة) .

كاد قلب (شريفة) يتوقف ، عند سماعها هذه العبارة ، فى حين سأله (مفيد) فى دهشة :

ــ ماذا تعنى ؟

ابتسم (فؤاد) فى هدوء ، وهو يقول :

ــ أريد (ناهد) .. أريد الزواج من (ناهد) ، لا (شريفة) .

وكانت صدمة لـ (شريفة) ..

صدمة قاسية ..

* * *

٣١ ـ صفعة ..

أطلقت الأميرة (عايدة) ضحكة عالية ، وهى تجلس إلى جوار (حسين) ، فى سيارة هذا الأخير ، التى تنطلق بهما إلى المطار ، والتفتت إليه تقول :

ـ طلب يد (ناهد) بدلًا من (شريفة) !.. ياله من موقف !.. وماذا فعلت أنت ؟!

ـ لم أدر ماذا أقول .. لقد هزّتنى المفاجأة من الأعماق ، فطلبت منه مهلة للتفكير .

وزفر مرة أخرى ، قبل أن يهتف محنقًا :

ـ ولكن لماذا وضعنى فى هذا المأزق الحرج ؟

ابتسمت (عايدة) فى سخرية ، وهى تقول :

ـ لأنه الآن أشبه بطفل مدلَّل ، حاز شقيقه كل السلطة بضربة واحدة ، وهو لايتصوَّر أن يرفض مخلوق مطلبه ، مهما بلغتْ غرابته .

لم ينبس (حسين) ببنت شفه ، وإن عقد حاجبيه فى ضيق ، فداعبت (عايدة) شعر رأسه ، وهى تستطرد :

ـ ولن يمكنك رفض مطلبه .. أليس كذلك ؟

قال فى مرارة :

ـ لايمكننى هذا .. أنت تعلمين شقيق من هو ، ولكن المشكلة أن (ناهد) ترفض الزواج منه ، حتى لاتجرح شقيقتها ..

مطَّت (عايدة) شفتيها ، وقالت :

ـ غبيَّة .

ارتفع حاجبا (حسين) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ غبيَّة ؟!.. ولكنها تساند شقيقتها ، التى جرح مطلب (فؤاد) مشاعرها إلى أقصى حدّ .

قالت فى حدَّة :

ـ أية مشاعر ؟!.. إن (شريفة) لم ترتبط بـ (فؤاد) هذا من قبل ، ولاتجمعهما قصة حب أو هيام .. إنه مجرَّد شاب تقدَّم لخطبتها ، ولقد وقع اختياره على شقيقتها ، وهذا حقه .

أجاب فى ضيق :

ـ ربما كان هذا منطق العصر ، ومنطق المدن ، ولكن هذا يختلف فى الأرياف ، فـ (شريفة) هى الأخت الأكبر ، ومن الضرورىّ أن تتزوَّج قبل (ناهد) .

لوَّحت بكفِّها فى حزم :

ـ لاتوجد ضروريات فيما يتعلَّق بالزواج .

بدا الضيق على وجهه ، فمالت نحوه ، وأبدلت لهجتها بأخرى ناعمة دافئة ، وهى تقول :

ـ ولكن دعنا من هذا .. سأشتاق إليك كثيرًا فى (باريس) .

قال وهو يرنو إليها فى حبّ جارف :

ـ سأشتاق أنا إليك أكثر هنا ..

ثم ضغط كفها بأصابعه فى حرارة ، مستطردًا :

ـ أرسلى لى برقية فور وصولك إلى (باريس) يا (عايدة) .. أرجوك .

ابتسمت ابتسامة ساحرة ، وهى تقول :

ـ اطمئن ياحبيبى .. سأفعل بكل سرور .

قال فى لهفة .

وعودى بسرعة .

أطلقت ضحكة عالية ، وأشاحت بوجهها عنه ، وتطلَّعت إلى المطار الذى يقترب فى سرعة ، وقالت :

— سأحاول يا (حسين) .. سأحاول .
ولكن لهجتها كانت تحمل شيئًا لم يرق له ..
شيئًا غامضًا ..
ومخيفًا ..

* * *

احتضنت (ناهد) شقيقتها (شريفة) فى قوّة ، وهى تهتف مخلصة :
— لن أقبل يا (شريفة) .. لن أقبل هذا الزواج أبدًا .
أزاحتها (شريفة) ، وقالت فى مرارة :
— لماذا يا (ناهد)؟.. إنه يطلبك أنت لا أنا ، وهذا حقه .
صاحت (ناهد) :

— لعنة الله عليه .. إنه لن يفرّق بيننا ، لن أتزوّجه مادام يرفضك .
انحدرت دمعة من عينى (شريفة) ، وهى تقول :
— لن يسمح (حسين) بهذا .
قالت فى عناد :
— إنه لم يوافق بعد .
— ولكنه سيفعل .

من المستحيل . أن يسمح له (حسين) بإيذائك .
— أنت تجهلين طبيعة (حسين) إذن .. إنه لن يخاطر برفض شقيق أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة .
— ولكننى أرفضه .
— لن يعنيه هذا كثيرًا .
— مستحيل يا (شريفة) .. مستحيل !.
— لماذا يا (ناهد) ؟.. إنه مجرّد زواج تقليدى .. إننى لم أرتبط مع هذا الضابط بقصة حب ، حتى أنهار لمجرّد زواجك منه .
— ولكن ..
— تزوجيه يا (ناهد) .
نطقت (شريفة) العبارة الأخيرة فى صرامة وحزم ، وكأنها قد حسمت رأيها ، واتخذت قرارها فى هذا الشأن ، فتطلّعت إليها (ناهد) فى حيرة ، ورأت كيف أن دموع شقيقتها قد جفّت أو نفدت ، فتمتمت :
— (شريفة) .. صدقينى .. إننى ..
قاطعتها (شريفة) فى حزم :
— (فؤاد) شاب جيّد يا (ناهد) ، ومن الخطأ ألّا تصاهره أسرتنا ، ثم إن مصاهرتنا له ستمنحنا القوّة ، التى حلم بها والدنا (رحمه الله) طيلة عمره ، ولن أسمح لنفسى بأن أكون السبب فى عدم تحقيق حلم أبى .
تطلّعت إليها (ناهد) فى حَيْرة ، ثم خفضت عينيها مغمغمة :
— سيفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير حتمًا ..
وغادرت الحجرة فى خطوات بطيئة ، ولم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى انهار قناع التماسك على وجه (شريفة) ، وانفجرت باكية ..
كانت أوّل صفعة لأنوثتها ..
وأقسى صفعة ..

* * *

ابتسم (إبراهيم مكى) ، وهو يدلف إلى حجرة (حسين) ، الذى نهض واقفًا ، وقال فى لهجة لاتحمل أية مشاعر :

ــ مرحبًا بك فى مكتبى .

جلس (إبراهيم) على أقرب مقعد إلى مكتب (حسين) ، وقال بلهجته الغامضة المقلقة :

ــ لقد رأيت أن أقضى معك بعض الوقت .. هل يضايقك هذا ؟

كان (حسين) يضيق بالجلوس مع (إبراهيم مكّى) بالفعل ، إلا أنه جلس فى بساطة ، وهو يقول :

ــ مطلقًا .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكلاهما يتطلّع إلى الآخر ، وكأنما ينتظر منه بدء الحديث ، ثم لم يلبث (إبراهيم) أن قال فى هدوء ، وبابتسامة لم ترق لـ (حسين) أبدًا :

ــ لقد سافرت الأميرة (عايدة) .. أليس كذلك ؟

بدا الضيق على وجه (حسين) ، وهو يقول :

ــ نعم .. لقد سافرت هذا الصباح .

لم ترق له لهجة (إبراهيم) هذه المرّة أيضًا ، وهو يقول :

ــ وهل ستعود ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ بالطبع .

أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة ساخرة خبيثة ، جعلت (حسين) يقول فى توتر :

ــ ما الذى تسعى إليه بالضبط ؟

أجابه (إبراهيم) :

ــ إننى أشفق عليك فى الواقع .

قال (حسين) فى عصبيّة :

ــ ومن قال إننى أحتاج إلى شفقتك ؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وقال فى بطء وبرود :

ــ لو أنك لاتحتاج إليها الآن ، فستسعى إليها غدًا .

قال (حسين) فى حِدّة :

ــ أتحدّاك .

تراجع (إبراهيم) ، هاتفًا فى سخرية :

ــ تتحدّانى ؟!

ثم أطلق ضحكة تهكميّة مجلجلة ، انتزعت (حسين) من خلف مكتبه ، وجعلته يهتف فى غضب :

ــ لماذا تتعمّد إثارتى ؟

ألقى عليه (إبراهيم) نظرة مستهترة ، مردّدًا :

ــ إثارتك ؟

ثم عاد يميل نحوه ، مستطردًا :

ــ لاتكن كالزوج ، آخر من يعلم يافتى ، إن (عايدة) لن تعود إلى (مصر) أبدًا .

تقافزت شياطين الغضب من وجه (حسين) ، وهو يهتف :

ــ أى قول أحمق هذا ؟

أجابه (إبراهيم) فى سخرية :

ــ القول الحق ، الذى لم تشعر به أبدًا أيها الغِرّ الساذَج ، والذى شعرنا به كلنا .. لقد كانت (عايدة) تلعب بك ، وتتخذك وسيلة للحصول على تصريح بالسفر إلى (باريس) ، حيث الأموال التى هرّبتها إلى هناك ، والمجوهرات التى تكفل لها العيش فى المستوى الذى ألفته .

شحب وجه (حسين) ، وهو يجلس على مقعده فى بطء ، مغمغمًا :

ــ وسيلة ؟!

تابع (إبراهيم) فى تهكّم :

ـــ كلنا كنا نعلم هذا .. أنا و (رفعت) بك .. وحتى القادة الكبار ، ولكننا رأينا أنك تحتاج إلى درس قوى ، لتتعلّم كيفية التعامل مع هذا العهد الجديد ، ووجدنا أنه لن يضيرنا كثيرًا أن نسمح لـ (عايدة) بالفرار ، لنربح ضابطًا قويًا فى هذا المجال الجديد .

ردَّد (حسين) فى شحوب :

ـــ مستحيل !

ثم اعتدل بغتة ، مستطردًا فى حِدَّة :

ـــ إنها خدعة جديدة .. أليس كذلك ؟

هزَّ (إبراهيم) رأسه ، وقال :

ـــ مطلقًا .

والتقط من جيبه برقية مطوِيَّة ، ناولها إلى (حسين) ، قائلًا :

ـــ وهذا هو الدليل .

مدَّ (حسين) أصابعه المرتجفة نحو البرقيَّة ، والتقطها من بين أصابع (إبراهيم) ، وبذل جهدًا لفضّها ، مع ارتجافة أصابعه الشديد ، ولم يكد يقرأ الكلمات القليلة المسطورة عليها ، حتى هوى قلبه بين قدميه ، وتوقَّف عن النبض تمامًا ..

كانت الكلمات بالإنجليزية ، تقول :

ـــ « اذهب أنت وثورتك إلى الجحيم .. » .

وأسفلها اسم (عايدة) ..

وانهار (حسين) ..

انهار عاطفيًا ومعنويًا ..

لقد خدعته (عايدة) بالفعل ..

صفعته صفعة لن يحتملها ..

صفعة كالقنبلة ..

وفى انهيار ألقى البرقية ، وتركها تتراقص فى الهواء ، قبل أن تستقر بين قدميه أرضًا ..

وفى هدوء نهض (إبراهيم مكّى) ، والتقط البرقية ، وطواها مرّة أخرى ، ووضعها فى جيبه ، قائلا فى لهجة واضحة الشماتة :

— إنه فشل ذريع يا رجل .

تطلّع إليه (حسين) منهارًا مستجديًا مستنجدًا وهو يغمغم :

— ماذا أفعل ؟.. سيحطّم هذا مستقبلى تمامًا .

ابتسم (إبراهيم) فى ظفر ، وكأنما راق له أن يلجأ (حسين) إليه على هذا النحو ، أو كأنه كان يسعى إلى هذا بالذات ، وقال فى هدوء :

— هل تريد رأيى حقًّا ؟

تمتم (حسين) :

أرجوك .

اعتدل (إبراهيم) ، وبدت قامته أكثر طولًا ، وهو يقول :

— سارع بإتمام زواج شقيقتك (ناهد) من (فؤاد) .

تطلّع إليه (حسين) فى دهشة وحيْرة ، فابتسم (إبراهيم) فى خبث ، وقال :

— سيضمن لك هذا حماية كافية .

وبدت له الفكرة منطقيّة ومقبولة ..

إنه بإتمام الزواج سيصبح صهرًا لواحد من أقوى رجال مجلس قيادة الثورة .. وسيحصل على الحماية ..

كل الحماية ..

وفى نفس اللحظة التى راح عقله يدرس فيها الفكرة ، استرجعت ذاكرته عبارة قديمة قالتها (عايدة) عن (إبراهيم مكى) ..

« إنه لايسعى لهزيمتك ، وإنما لفرض سيطرته عليك .. »

وأدرك لحظتها أنها كانت على حق ..

على حق تمامًا ..

❊ ❊ ❊

٣٢ — الخسارة ..

أقيم حفل زفاف (ناهد) و (فؤاد) فى أحد الفنادق الفاخرة ، فى قلب (القاهرة) ، وشعر (حسين) بالارتياح يغمر قلبه ، عندما حضر معظم مجلس قيادة الثورة الحفل ، وبدوا كرمز للقوّة والسطوة ، بأزيائهم الرسمية ذات الأزرار اللامعة ، وهم ينتشرون داخل الحفل ، بعد ساعات من إعلان الجمهوريّة ، وإلغاء الملكية ..

وعلى الرغم من ابتسامة (شريفة) ، التى لم تفارق شفتيها طيلة الحفل ، كان قلبها يشعر بشيء من الخوف ؛ لأن شقيقتها الصغرى قد سبقتها إلى الزواج ..

أما (ناهد) نفسها فقد أنساها ثوب الزفاف ، وأنستها مظاهر الفرح موقفها المساند لشقيقتها ، فأينع وجهها بابتسامة فرح وزهو ، وهى تجلس إلى جوار عريسها الوسيم ، وسط باقات الزهور ، ورجال السلطة فى البلاد ..

ولم يحضر (عمر) الحفل كالمعتاد ، وإن لم يمنع زوجه من حضوره ، على الرغم من أنه يقام فى (القاهرة) ، بخلاف كل حفلات الزفاف السابقة فى الأسرة ، وحضر (عبد الحكيم) وزوجه (توحيدة) ، وقد شملهما تحفّظهما التقليدى ، فاكتفيا بالابتسام ، ومتابعة الحفل فى رصانة ، فى حين انتحى (مفيد) ركنًا قصيًّا فى صمت ، يراقب رجال مجلس قيادة الثورة ، بأكثر مما يراقب العروسين ، إلى أن ربّت (رفعت كسّاب) على كتفه ، وهو يجلس على المقعد المجاور له ، قائلًا :

— كيف حالك يا (مفيد) بك ؟.. هل ستكتفى بالمشاهدة فحسب ؟

أجبر (مفيد) نفسه على الابتسامة ، وهو يقول :

— نظام حفلات الزفاف فى الفنادق الكبرى ، لايسمح لأقارب العروس بغير هذا .

ضحك (رفعت)، وهو يقول :

ــ هذا أفضل .. أليس كذلك ؟

ودون أن ينتظر جوابًا من (مفيد)، مال نحوه مستطردًا :

ــ ولكن لماذا تبدو قلقًا ؟

ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة ، وقال :

ــ يبدو أنك شديد الملاحظة .

أجابه (رفعت) فى زهو :

ــ إنه عملى .

ثم أضاف فى اهتمام :

ــ ولكنك لم تجب عن سؤالى بعد .. لماذا تبدو قلقًا ؟

شرد (مفيد) ببصره لحظات ، وهو يتساءل عما إذا كان من اللائق أن يخبره بسبب قلقه الحقيقى أم لا ..

لقد كان الموقف كله يقلقه ..

رجال الثورة بأناقتهم المفرطة ، وزهوهم الواضح ..

سعادة (ناهد) الجمّة ، وهى تزف إلى الرجل الذى جاء يخطب شقيقتها فى البداية ..

الحزن الكامن فى أعماق (شريفة) ، والذى تخفيه ابتسامتها الشاحبة ..

عدم حضور (فاطمة) و (حافظ) الحفل ..

كل هذا يحنقه ويقلقه ، ولكن سبب قلقه الفعلى كان يختصّ بـ (ماهر) و (زينب)، ولقد أفصح عن هذا السبب الأخير لـ (رفعت)، قائلاً :

ــ الواقع أن تأخر (ماهر) و (زينب) يقلقنى ، فلقد ابتاع (ماهر) سيارة جديدة ، وأصرّ على الحضور بوساطتها إلى (القاهرة)، وهو لم يجد قيادة السيارات بعد ، و.....

قاطعه (رفعت) متبسمًا :

ــ لا تجعل هذا يقلقك .. سأرسل دوريّة للبحث عنهما على الطريق ، ربّما أصيبت سيارة (ماهر) بعطب أو خلل ما .. اطمئن .

تركه وذهب ليلقى أوامره بإرسال الدوريّة ، فى حين راح (مفيد) يتطلّع إلى الحفل مرّة أخرى ، وهو يتذكّر (مديحة)، التى لم يرها منذ أكثر من شهر ، والتى لم يستطع دعوتها مع والدها لحضور حفل زفاف شقيقته ..

وتساءل فى أعماقه : هل يوافق (حسين) على زواجه من (مديحة)، كما وافق على زواج (حافظ) من (فاطمة) ؟..

لم يستطع إيجاد جواب حاسم منطقى ، لعجزه عن استنتاج مواقف وقرارات (حسين) ، التى تتناسب دومًا مع حالته النفسية .

وحالة (حسين) النفسية تبدو له غامضة هذه الأيام ..

إنه يبدو أشدّ صرامة وقسوة ، على الرغم من حزن دفين فى أعماقه ، تفصح عنه عيناه فى وضوح ..

ثم إنه لم يعد يتحدّث عن زواجه بتلك الأميرة السابقة ..

لقد تشاجر حتى مع (شريفة)، ومنعها من ذكر الأمر ، عندما سألته عنها ..

لا ريب أنهما قد انفصلا ..

أو اختلفا ..

بحث ببصره عن (حسين)، حتى رآه يجلس عن ركن القاعة ، حول منضدة واحدة مع (إبراهيم مكّى) ، ولم يتصوّر لحظتها أنهما يتحدّثان عن نفس المرأة .

عن الأميرة (عايدة) ..

كان (إبراهيم) يقول :

ــ هل علمت أن (عايدة) قد افتتحت متجرًا فاخرًا للأزياء فى (باريس)؟

أشاح (حسين) بوجهه ، وهو يجيب :

ــ نعم .. لقد أخبرنى مندوبنا هناك .

نفث (إبراهيم) دخان سيجارته ، وهو يقول :

— يلوح لى أن هذا العمل يناسبها كثيرًا ، فهو يعتمد على المظاهر الخدّاعة ، والبراعة فى إقناع العملاء .

تمتم (حسين) فى اقتضاب ، وكأنما يرغب فى إنهاء الحديث حول هذه النقطة :

— هذا صحيح .

ابتسم (إبراهيم) فى خبث ، وكأنما أدرك غرض (حسين) ، والتفت يتابع فقرات الحفل ، قبل أن يسأل (حسين) فى هدوء :

— هل علمت بالخلاف بين (محمد نجيب) ، وأعضاء مجلس قيادة الثورة ؟

التفت إليه (حسين) فى دهشة :

— أى خلاف ؟!.. لقد أعلنوا إلغاء الملكية وقيام الجمهورية اليوم فحسب !

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) ، وكأنما راق له أن يدهش الخبر (حسين) ، وقال :

— إنه خلاف قديم ، فلقد وضعوه على رأسهم ، على الرغم من أنه يقد الثورة فعليًا ، ولكنه يرفض الاعتراف بهذا ، ويصرّ على الظهور بمظهر الزعيم ، وهذا لايروق لهم طبعًا ، وبخاصّة لـ (جمال عبد الناصر) ، القائد الحقيقى للثورة .

سأله (حسين) فى اهتمام :

— وهل تتوقَّع أن يتطوَّر هذا الخلاف ؟

التفت إليه (إبراهيم) ، وأجاب فى حسم :

— بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

— وأظننا سنضطر قريبًا إلى تحديد موقفنا فى حسم ، ما بين تأييد (جمال) أو (نجيب) .

ازدرد (حسين) لعابه فى توتُّر وسأله :

— ومن تختار فى هذه الحالة ؟

أجابه فى حسم :

— (جمال عبد الناصر) ، وبلاتردّد .

سأله (حسين) فى دهشة :

— أتثق فى قدراته إلى هذا الحد ؟

ابتسم (إبراهيم) فى خبث ، وهو يقول :

— تستطيع أن تقول إننى أمتلك حاسّة خاصة ، تقودنى دائمًا إلى أصحاب القوّة .

كانت هذه آخر عبارة تبادلاها خلال الحفل ، وإن راح (حسين) يسترجعها ، ويقلّبها على كل الوجوه ، حتى حانت زفة العروس ، وانتقلت (ناهد) مع عريسها إلى حجرتهما ، فى الفندق نفسه ، وهدأت الأمور نسبيًّا ، وراح (حسين) يصافح المهنئين ، ويشكر رجال مجلس قيادة الثورة فى أثناء انصرافهم ، ثم التفت إلى شقيقه (مفيد) ، يسأله فى ابتهاج :

— ما رأيك ؟.. كان حفلًا رائعًا .. أليس كذلك ؟!

بدا له (مفيد) واجمًا متوترًا ، مكرِّر سؤاله الأخير فى جِدَّة :

— أليس كذلك يا (مفيد) ؟

رفع (مفيد) إليه عينين شاردتين ، وبدا وكأنه ينتبه إلى وجوده بغتة ، وهو يتمتم :

— معذرة يا (حسين) .. لم أنتبه إليك .. كنت أفكِّر فى أمر (زينب) و (ماهر) .

سأله فى توتُّر :

— ماذا عنهما ؟

قال (مفيد) فى قلق واضح :

— إنهما لم يحضرا الحفل ، ولقد أرسل (رفعت كسّاب) دوريّة خاصة للبحث عنهما ، و.....

بتر عبارته بغتة ، وهو يشير إلى ما خلف (حسين) ، هاتفًا :

— هاهو ذا .. لقد عاد .

التفت (حسين) إلى (رفعت كسّاب)، الذى تقدّم نحوهما بخطوات سريعة ، وبدا جامدًا ، وكأنما يحاول إخفاء أمر ما ، فسأله (حسين) فى قلق :

— هل عثرت على شقيقتى وزوجها يا (رفعت) بك ؟

تماسك يا (حسين) .. أنت رجل، والرجال يحتملون أشدّ المواقف، و.....

صاح (مفيد) فى هلَع :

— ماذا حدث يا (رفعت) بك ؟.. ماذا حدث ؟

خفض (رفعت) عينيه ، وهو يقول :

— لقد تعرَّضت سيارة (ماهر) لحادث سير ، و.....

قاطعه (مفيد) صارخًا :

— وماذا ؟..

ران الصمت لحظة واحدة ، بلغ خلالها شحوب وجه (حسين) أقصى مداه ، وخفق فيا قلب (مفيد) ألف خفقة على الأقل ، قبل أن يقول (رفعت) :

— البقية فى حياتكما .. لقد لقيا مصرعهما معًا .

وخيِّل لـ (مفيد) لحظتها أن قلبه قد توقَّف عن الخفقان .. إلى الأبد ..

٣٣ ـ الحـــزن ..

تسلَّلت (مديحة) عبر أعواد القطن ، إلى جذع الشجرة الكُبيرة ، وارتفع حاجباها فى حنان وإشفاق ، وهى تتطلَّع إلى (مفيد)، الذى ارتكن إلى جذع الشجرة بظهره ، وضمّ ركبتيه إلى صدره ، وشرد ببصره بعيدًا ، وقد اتّمحت عيناه بدموع حبيسة ، تأبى كرامته السماح لها بالانطلاق معلنة حزنه ..

ودون أن تتفوّه بحرف واحد، جلست (مديحة) إلى جواره ، وتسلَّلت يدها الرقيقة تتحسَّس كفّه ، وتربِّت عليها فى تعاطف ، فمنحها نظرة امتنان ، وهو يغمغم فى خفوت :

— كنت أعلم أنك ستأتين يا (مديحة) .

قالت فى حنان :

— ما كنت لأتركك وحدك ، مع كل هذا الحزن .

تنهَّد فى حرارة ، وقال :

— لقد أحاط بنا حزن هائل ، منذ بلغنا الأمر يا (مديحة)، فلقد كانت (زينب) زهرة أسرتنا ، واللمسة الرقيقة لحياتنا ، وبالنسبة لى بالذات لم تكن مجرَّد شقيقة ، وإنما كانت أمًّا أيضًا ، بعد أن فقدت أمِّى مع مولدى كما تعلمين .

فرَّت دمعة من عينيه دون أن يدرى ، وسالت على وجنتيه ، وانفطر لها قلب (مديحة)، فشاركتها بدمعة حزن من عينيها ، وهى تقول :

— إنه القدر يا (مفيد)، وأنت رجل مؤمن .

تمتم :

— نعم .. إنه القدر ..

وشرد ببصره لحظات أخرى ، سال فيها الدمع على وجهه دافئًا ، فربَّتت (مديحة) على كفه مرة أخرى فى حنان ، وسمعته يقول فى حزن :

ــ أوّل مرّة أرى فيها (حسين) يبكى فى حرارة .. لقد كانت صدمة قاسية له ، ولـ (ناهد) ، التى علمت الخبر صباح زفافها ، و (شريفة) لاتزال تبكى حتى هذه اللحظة ، على الرغم من مرور أسبوع كامل على وفاة (زينب) و (ماهر) ..

وصمت لحظات ، قبل أن يضيف :

ــ ولكن (عمر) زوج (نعيمة) لم يأت لتعزيتنا .. لقد أرسل برقية عزاء فقط ، مثلما يفعل الغرباء ، فى حين وقف (عبد الحكيم) زوج (توحيدة) إلى جوارنا وقفة فارس .. حقًّا .. المصائب تُبرز الرجال .

غمغمت :

ــ أنت تعلم موقف (عمر) من أسرتكم ، منذ حادثة (حسين) وقضية الميراث .

هزّ رأسه ، وقال :

ــ الموت أجلّ من أن تعترضه مثل هذه الخلافات .

تنهّدت وقالت :

ــ ليت الجميع مثلك .

ثم سألته فى اهتمام :

ــ وهل عاد (حسين) إلى شقته فى (القاهرة) ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ من العسير على رجل فى وضع (حسين) أن يبتعد عن مكان عمله طويلًا .

ربّتت على كفه مرّة أخرى ، فالتفت إليها ، وقال فى حزن :

ــ لست أدرى لماذا يفعل بنا القدر هذا يا (مديحة) ؟.. كلما اقترب موعد لقائنا باعدت بيننا أحداث مؤلمة .

تمتمت :

ــ لكل شىء موعده يا (مفيد) .

أراح رأسه على جذع الشجرة ، وهو يتمتم :

ــ نعم .. لكل شىء موعده ..

ولكن القدر كان يخفى لهما الكثير .. الكثير جدًّا ..

* * *

اندفع العمدة داخل حجرة الضيافة بمنزله ، وهو يهتف فى قلق :

ــ خيرًا ياسعادة البك المأمور .. أخبرونى أنك تطلب رؤيتى على وجه السرعة .. ماذا حدث ؟!

أجابه المأمور فى انفعال واضح :

ــ لقد استقال (محمد نجيب) .

هتف العمدة فى دهشة :

ــ استقال ؟!

وألقى جسده على أريكة قريبة ، وعقد حاجبيه فى شدّة ، وهو يكرّر :

ــ استقال ؟!.. كيف ؟.. لماذا ؟

لوّح المأمور بكفّه ، قائلًا :

ــ لاأحد يدرى .. لقد نُشِرَ بيان استقالته فى صحف الصباح .

غمغم العمدة ذاهلًا :

ــ يالها من مفاجأة !

مال المأمور نحوه ، وقال :

ــ هناك مفاجأة أخرى تثير القلق .

رفع العمدة عينيه إليه ، وسأله :

ــ أية مفاجأة ؟

اعتدل المأمور ، وتلفّت حوله فى قلق ، ثم عاد يميل على أذن العمدة ، قائلًا :

— (حسين البنهاوى) هنا فى القرية ، وهو يعلن تأييده لاستقالة (محمد نجيب) ، ويصرّ على أن (جمال عبد النصر) أحقّ منه بالرياسة ..

عقد العمدة حاجبيه فى شدّة ، وهو يقول :

— عجبًا !!.. من المؤكّد أن لديه مايدفعه لهذا التأييد ، فهو أحد رجال السلطة ، ويعلم حتمًا مايخفى عنا نحن .

هزّ المأمور رأسه نفيًا ، وقال :

— كلّا .. يبدو لى أنه مجرّد انفعال عاطفىّ ، فلقد اتصلت بابن شقيقتى فى (القاهرة) ، وعلمت منه أن الشعب كله ثائر لاستقالة (نجيب) ، وأنه سيعود إلى موقعه حتمًا .

برقت عينا العمدة ، وهو يقول :

— أتعنى أنه فى حالة عودته يكون ابن (البنهاوى) قد ..

قاطعه المأمور فى لهفة :

— وقع .. نعم ياعمدة .. لو عاد (محمد نجيب) إلى الحكم ، بعد مايفعله (حسين البنهاوى) ، فسيعنى هذا أن ابن (البنهاوى) قد وقعَ شهادة وفاته بنفسه .

ازداد بريق عينى العمدة ، وهو يقول :

— وأن ماننتظره قد حان ..

وفى صوت واحد ، أكمل الاثنان :

— بداية نهاية عائلة (البنهاوى) .

وعلى شفتيهما ، ارتسمت ابتسامة ..

ابتسامة ظفر ..

وشرّ ..

* * *

« خطأ .. »

نطق (إبراهيم مكّى) الكلمة فى غضب صارم ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته كلها ، فغمغم (حسين) فى توتّر :

— لماذا ؟.. لقد فعلت نفس ما أشرت أنت إليه .. لقد قمت بتأييد (جمال عبد الناصر) بلاتردّد ، فور نشوب الخلاف بينه وبين (نجيب) .

صاح (إبراهيم) ، وهو يلوّح بكفه :

— افعل هذا فى أعماقك ، ولاتعلنه على هذا النحو .

سأله (حسين) :

— لماذا ؟.. لقد انتصر (عبد الناصر) بالفعل .

صاح (إبراهيم) :

— ليس بعد .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى حدّة :

— ألم تصلك أخبار المظاهرات فى كل مكان ؟.. ألم تعلم أن الشعب كله يطالب بعودة (محمد نجيب) ؟.. ألم تدرك أنه أوّل احتجاج شعبىّ جارف ، على أحد قرارات الثورة ؟

شحب وجه (حسين) ، وهو يتمتم :

— ياإلهى !!.. هل يعنى هذا ..؟

لوّح (إبراهيم) بكفه ، وقال :

— إنه لايعنى شيئًا .. أو بمعنى أدق ، لم يعن شيئًا بعد ، ولكن توقّف عن الخوض فى لعبة السياسة ، ولتكتف مثلى بطاعة الأوامر ، والانتماء إلى من يحكم .. أيًا كان .

ران عليهما الصمت لحظة ، ثم سأله (حسين) فى قلق :

— هل تتوقّع عودة (نجيب) ؟

أجابه فى حزم :

ـ بالتأكيد .
عاد وجه (حسين) إلى شحوبه ، وهو يتمتم :
ـ يا إلهى !
مطّ (إبراهيم) شفتيه ، وقال فى صرامة :
ـ ولكن هذا لن يستمر طويلًا .
سأله (حسين) فى لهفة :
ـ ولماذا تؤكّد هذا ؟
صمت (إبراهيم) لحظات ، ثم قال :
ـ دراستى لشخصية (جمال عبد الناصر) تؤكّد أنه محب للسلطة والزعامة ، وأن هذا يجرى فى عروقه مجرى الدم ، ولن يسمح أبدًا بأن يرأسه (محمد نجيب) ، بل سيفسح له فى المجال قليلًا ، حتى يجد الوسيلة المثلى للتخلّص منه ، دون أن يؤذيه هذا .
سأله (حسين) :
ـ ومتى سيفعل ؟
شرد (إبراهيم) ببصره ، وقال :
ـ قريبًا .. قريبًا جدًّا .
ثم عاد يرمق (حسين) بنظرة صارمة ، مستطردًا :
ـ المهم أن تطيع ما أشير به عليك دوْمًا ، ودون مناقشة .
انكمش (حسين) دون أن يدرى ، وهو يغمغم :
ـ سأفعل يا (إبراهيم) بك .. سأفعل .
ولم يدرك لحظتها أن نبوءة (عايدة) قد تحقّقت ، وأن (إبراهيم مكّى) قد سيطر عليه ..
تمامًا ..

* * *

٣٤ ـ تمــرّد ..

شردت (شريفة) بأفكارها طويلًا هذه المرة ، وهى تقف فى مطبخ السراى مع (فاطمة) ، وقفزت بها أفكارها إلى عدة أشهر مضت ..
إلى يوم زفاف (ناهد) إلى (فؤاد) ..
نفس اليوم الذى اختطف فيه القدر سعادتها وزهو أنوثتها ، واختطف فيه الموت أحبَّ شقيقاتها إليها ..
وفى تلك اللحظة بالذات استعادت حديثًا قديمًا ، دار بينها وبين شقيقتها الراحلة (زينب) ، وانتهى بأن تمنت كل منهما أمنية ..
تمنّت (زينب) أن تتزوّج (ماهر) ، وأن تحيا معه ألف عام ..
وتمنّت هى أن تتزوّج أى رجل ، وأن تنجب منه ألف طفل ..
وتزوّجت (زينب) (ماهر) ، ولكنها لم تحيا معه حتى ألف يوم ..
ولم تتزوّج هى حتى الآن ..
أى قدر هذا ؟..
بل أى مصير ؟..
ومن عينيها انحدرت دموع ساخنة ، لمحتها (فاطمة) ، فربّتت على كتفها فى حنان ، وغمغمت متعاطفة :
ـ لاتبكى يا (شريفة) .
أزاحت (شريفة) يد (فاطمة) عن كتفها فى عنف ، وصاحت بها وهى تمسح دموعها :
ـ لاتنطقى اسمى مجرّدًا هكذا يا ابنة (عبد الحميد) .. لاتخاطبينى إلّا باسم سيّدتى (شريفة) .

تراجعت (فاطمة) ، وهى تهتف مستنكرة :
ــ سيِّدتى ؟!.. لماذا ؟! إننى لست خادمتكم ، بل أنا زوجة شقيقكم .
صرخت بها (شريفة) فى ثورة ، وكأنها تفرغ فى (فاطمة) كل ماتجيش به نفسها من انفعالات :
ــ وبئس الزوجة !
صاحت (فاطمة) :
ــ المهم أننى زوجته ، ولم أعد أحتمل أسلوبكم هذا فى التعامل معى .
كانت أوّل مرّة تواجه (فاطمة) الثورة بالثورة ؛ لذا فقد حدّقت فيها (شريفة) فى دهشة لبضع دقائق ، قبل أن تهتف بها فى غضب :
ــ كيف تجرئين ؟
صاحت (فاطمة) :
ــ ولِمَ لا أجرؤ .. إننا نتساوى هنا ..
ثم رفعت أحد حاجبيها ، مستطردة فى شماتة :
ــ بل أنا أفوقك الآن .
امتقع وجه (شريفة) ، وخيِّل إليها أن (فاطمة) تشير إلى عدم زواجها ، فغمغمت فى مرارة غاضبة :
ــ أيتها الحقيرة .. كيف ..؟
قاطعها صوت (مفيد) ، وهو يقول فى حدّة :
ــ ماذا حدث هذه المرّة ؟.. ألا يمكن ترككما وحدكما ، دون أن تندلع الحرب بينكما ؟
صاحت (شريفة) فى غضب :
ــ هذه الحقيرة تعيِّرنى بعدم الزواج .
التفت (مفيد) إلى (فاطمة) ، وسألها فى صرامة :
ــ أهذا صحيح ؟

هزّت كتفيها ، وقالت :

ـ أنا لم أقل هذا .

صاحت (شريفة) :

ـ ولكنك أشرت إليه .

قالت (فاطمة) فى خبث :

ـ كل يتحسّس كدمة رأسه .

صرخت (شريفة) :

ـ أرأيت ؟

قال (مفيد) فى حدّة :

ـ لست أسمح بهذا يا (فاطمة) ، صحيح أنك زوجة شقيقى ، ولكن ..

ولأوّل مرّة فى حياتها ، قاطعته (فاطمة) فى غلظة :

ـ ليس لك الحق فى أن تسمح أو لا تسمح .. إن لى زوجًا .

أدهش موقفها (مفيد) فى شدة ، فتمتم :

ـ ولكننى ..

قاطعته مرّة أخرى هاتفة :

ـ قلت ليس لك الحق .

ثم اندفعت تغادر المطبخ ، إلى حجرة (حافظ) ، فالتفت (مفيد) إلى (شريفة) ، يسألها فى دهشة :

ـ ماذا أصابها ؟

عقدت حاجبيها فى غضب ، وهى تقول :

ـ يبدو أنها قد أصيبت بالجنون .

لم تكد تتمّ عبارتها حتى برز (حافظ) خارج الحجرة ، وخلفه (فاطمة) تبكى ، وقال (حافظ) لـ (مفيد) فى توتّر :

ـ لماذا تؤذى مشاعر زوجتى ؟

بدا ذلك الموقف عجيبًا بحق ، فقد كانت المرّة الأولى التى يتخذ فيها (حافظ) موقفًا إيجابيًا ، منذ وفاة والده ..

بل منذ مولده ..

وبارتباك أحدثته المفاجأة ، غمغم (مفيد) :

ـ لم يؤذ أحد مشاعرها يا (حافظ) .. إنه مجرّد نقاش عادىّ بينها وبين (شريفة) ، و.....

قاطعه (حافظ) فى توتّر زائد :

ـ لن أسمح لأحد بإيذائها بعد هذه اللحظة .

حدّقت (شريفة) فى وجه شقيقها فى ذهول ، ثم نقلت بصرها إلى (فاطمة) ، التى وقفت خلفه تبتسم فى خبث وشماتة ، وسألتها :

ـ كيف فعلت هذا ؟

داعبت (فاطمة) خصلة من شعرها الخشن وارتفع حاجباها فى زهو ، ثم ألقت قنبلة من جملة واحدة :

ـ أنا حامل .

واتضحت صورة المعجزة ..

* * *

برقت عينا المأمور ، وهو يمسك سمّاعة الهاتف فى قوّة ، صائحًا فى انفعال :

ـ هل أنت واثق من هذا ؟.. هل عاد (محمد نجيب) حقًا ؟

دفعه الانفعال إلى إطلاق ضحكة مجلجلة ، وهو يعيد سمّاعة الهاتف ، ويلتفت إلى العمدة قائلًا :

ـ أرأيت يا عمدة ؟.. أرأيت ؟.. لقد عاد (محمد نجيب) إلى الحكم فى يومين فحسب .. ألم أقل لك ؟.. لقد خسر ابن (البنهاوى) كل ما ربحه منذ قيام الثورة .

قال العمدة فى لهفة :

— أتظنه قد خسر اللعبة بالفعل ؟

قهقة المأمور ضاحكًا مرّة أخرى ، وقال :

— ماذا تفعل أنت به ، لو أنك فى موضع (محمد نجيب) ، بعد أن وقف هو يؤيّد (جمال عبد الناصر) علنًا ؟

برقت عينا العمدة بدوْرِه ، وهو يقول :

— صدقت .

ثم سأله فى اهتمام :

— والآن ماذا سنفعل به ؟

لوّح المأمور بكفه ، وقال بابتسامة عريضة ، كادت تلتهم وجهه كله :

— سننتظر حتى يأتى إلى القرية .

هتف العمدة :

— ثم ماذا ؟

أطلق المأمور تنهيدة قويّة ، ثم عاد يبتسم تلك الابتسامة العريضة ، ويجيب :

— ثم نعيده إلى حجمه الحقيقى ..

وأدنى سبّابته وإبهامه من بعضهما البعض ، وأضاف فى غطرسة :

— حجم الحشرة ..

* * *

بدا (حسين) شديد التوتُّر ، وهو يجلس إلى جوار (إبراهيم مكّى) ، فى مكتب هذا الأخير ، وراح يفرك كفيه فى قلق ، وهو يسأله :

— ماذا سيحدث الآن ؟

أجابه (إبراهيم) :

— لاشىء .. لست أظن أن (محمد نجيب) سيذكر تأييدك لـ (عبد الناصر) من عدمه .

قال (حسين) فى قلقٍ شديد :

— وماذا لو فعل ؟

تنهّد (إبراهيم) ، واتجه إلى النافذة ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتطلّع منها ، مغمغمًا :

— لست أدرى .

ران عليهما الصمت لحظة ، ثم التفت (إبراهيم) إلى (حسين) ، وقال فى صرامة مباغتة :

— ابتعد .

سأله (حسين) فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

أجابه فى حزم :

— أعنى أن أفضل ماتفعله الآن هو أن تبتعد عن مسرح الأحداث .. اذهب إلى قريتك ، واقض بضعة أشهر هناك ، حتى تهدأ الأمور .

غمغم (حسين) فى حيْرة :

— وماذا عن العمل هنا ؟

قال (إبراهيم) :

— اترك لى هذا .

ارتفع فجأة صوت (رفعت كسّاب) ، يقول فى ضيق :

— لن يكون ذلك عسيرًا .

التفت إليه الاثنان فى سرعة ، وهبّ (حسين) واقفًا فى احترام ، فأشار إليه (رفعت) بالجلوس مرّة أخرى ، وهو يقول :

— يبدو أنك قد وقعت أخيرًا فى الخطأ يا (حسين) .

امتقع وجه (حسين) فى شدّة ، وهو يتمتم :

— الخطأ ؟!

جلس (رفعت) خلف مكتب (إبراهيم) ، وزفر فى حرارة ، وهو يضرب سطح المكتب براحته المفتوحة ، ويقول :

— لقد تسرَّعت بتأييد (عبد الناصر) علنًا ، قبل أن تتضح الأمور .

لم يدر (حسين) لماذا فشل أسلوبه هذه المرَّة ..

لقد أيد قيام الثورة علنًا ، قبل أن تتضح الأمور ، فقادته هذه المبادرة إلى قمة السلطة ..

وعندما كرَّر اللعبة خسر ..

خسر كثيرًا ..

وبحروف مرتجفة ، وقلب مرتعد ، تمتم (حسين) :

— وماذا حدث بسبب هذا ياسيِّدى ؟

زفر (رفعت) مرَّة أخرى فى حِدَّة ، وقال :

— حدث أن (محمد نجيب) قد أصدر قرارًا بإيقافك عن العمل .

خيِّل لـ (حسين) أن قلبه قد توقَّف عن الخفقان ، وأنه سيسقط جثة هامدة ، حتى لقد أدهشه أن هذا لم يحدث ، وهو يتمتم منهارًا :

— إيقاف ؟!.. إلى متى ؟!

ربَّت (رفعت) على كتفه ، وقال فى ضيق :

— من يدرى إلى متى ؟.. هيَّا .. اذهب إلى سراى والدك ، كما اقترح (إبراهيم) ، فأظنها أفضل خطوة الآن .

وأدرك (حسين) أن لحظات الخسارة قد حانت ..

وأن الدنيا تدير وجهها إليه ..

وطوال الطريق من (القاهرة) إلى قريته ، ترك دموعه تسيل على وجنتيه فى صمت ..

كيف يواجه أشقَّاءه وشقيقاته ، بعد أن فقد كل شىء ؟..

بل كيف يواجه خصومه ؟..

انطلق بسيارته فى بطء ، وكأنما يخشى العودة إلى القرية ، إلَّا أنه لم يكد يقترب من مدخلها ، حتى لمح المأمور على صهوة جواده ، يشير إليه بالتوقُّف ، فأوقف سيارته ، وهو يجفف دموعه فى سرعة ، وقال للمأمور فى صرامة ، بذل جهدًا يمنح صوته إيَّاها :

— ماذا تريد أيُّها المأمور ؟

أدهشه أن قال المأمور فى غطرسة :

— بل ماذا تريد أنت ؟

ثم مال نحوه مستطردًا فى ازدراء :

— إن قريتنا ترفض استقبال الخونة ، فكلنا نؤيد الرئيس الشرعىّ للبلاد .

وركل المأمور مقدمة سيارة (حسين) ، ثم ألقى نظرة صارخة على هذا الأخير ، وابتعد بجواده فى خيلاء ..

لحظتها فقط تأكَّدت الصورة ..

لقد أدارت الدنيا وجهها ..

أدارته بعيدًا .

* * *

٣٥ ـ العدم ..

هبَّ (عمر) من مقعده ، ومال برأسه نحو زوجته ، وبدا وكأنما يطلق زغرودة فرح ، وهو يهتف :

ـ أوقفوه عن العمل ؟!.. هل أوقفوا (حسين) شقيقك عن العمل حقًّا ؟!

جفَّفت (نعيمة) دموعها ، وهى تقول :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر ما أصابه من جرَّاء هذا .. لقد نحل كثيرًا ، و......

قاطعتها ضحكة مرحة أطلقها (عمر) ، وأذهلها أن يكون هذا هو انطباعه عن الموقف ، فحدَّقت فى وجهه مستنكرة ، فى حين هتف هو :

ـ لقد نال ما يستحقه ، ذلك الظالم المفترى .

صاحت به :

ـ (عمر) .. كيف تقول هذا عن شقيقى الـ ......؟

قاطعها صارخًا فى صرامة هذه المرَّة :

ـ اخرسى .

حدَّقت فى وجهه ذاهلة ، فأمسك كتفيها فى عنف ، وبدا لها كوحش شرس ، وهو يهزّها فى قوَّة ، صائحًا :

ـ لعنة الله عليك وعلى شقيقك السارق النصَّاب ، الذى استباح لنفسه أرضكم وأموالكم ، بعد أن منحه والدكم الظالم هذا الحق بعد وفاته .. لقد احتملت كل ما فعله بى ، ولزمت الصمت طيلة الوقت ، انتظارًا لهذا اليوم .. والآن فقط أستطيع أن أفرغ كل الغضب الكامن فى أعماق .

ودفعها فى قسوة ، مستطردًا فى ثورة :

ـ اذهبى .. أنت طالق .. طالق .. طالق ..

ولم تحتمل (نعيمة) صدمة الموقف ..

ومن أعماقها انطلقت صرخة ارتياع ..

وسقطت فاقدة الوعى ..

* * *

« طلَّقك ؟! » .

هتف (مفيد) فى ذعر ، قبل أن يستطرد :

ـ ولكن لماذا ؟.. لماذا فعل هذا ؟

بكت فى انهيار ، وضمَّت طفلتها الصغيرة إلى صدرها ، وهى تقول :

ـ يقول إنه يتمنى هذا منذ زمن طويل ، ولكنه كان ينتظر خروج (حسين) من السلطة .. وهو لم يكتف بتطليقى فحسب ، وإنما راح يوزِّع أكواب الشراب على الجميع ، احتفالًا بإيقاف (حسين) عن العمل ، وأقسم أن يتزوَّج بأخرى ، قبل أن ينصرم الأسبوع .

تمتم (حسين) فى مرارة :

ـ ياللوغد !!

التفت إليه (مفيد) محنقًا ، وهو يقول :

ـ أنت المسئول عن كل هذا .. أنت الـ ......

قاطعه (حسين) فى ثورة :

ـ كفى .. لست أحتمل حرفًا واحدًا ..

وابتعد بخطوات سريعة إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه فى إحكام ، فزفر (مفيد) فى توتُّر ، وغمغم :

ـ إنها اللعنة تحلّ علينا .. لعنة الظلم ..

ظلَّ يشعر بالمرارة فى حلقه وقلبه ، حتى التقى بـ (مديحة) عند جذع الشجرة الكبيرة كعادتهما ، وانتبهت هى إلى آلامه ، فربَّتت على كفه ، وهمست فى حنان :

— أمن المحتم أن تحمل دَوْمًا كل هموم الدنيا على كتفيك ؟

زفر مغمغمًا :

— كم أتمنى ألا أفعل ، ولكن يبدو أن هذا قدرى .. أن أحمل دَوْمًا مشاكل الآخرين .

تردَّدت لحظة ، ثم سألته فى خفوت :

— وماذا عن مشكلتنا نحن ؟

استدار يتطلَّع إليها طويلا ، حتى أن دماء الخجل قد تصاعدت إلى وجنتيها ، وهى تتمتم :

— لم أقصد هذا ، وإنما ..

جاء دَوْره هذه المرَّة ليربِّت على كتفيها ، ويقول فى حنان :

— يبدو أننى أظلمك كثيرًا معى ياحبيبتى .

رفعت عينيها إليه ، وهى تهمس :

— أنت لاتظلم أبدًا .

تطلَّع إليها بامتنان ، وامتدَّت أصابعه تداعب شعرها الأسود الناعم ، قبل أن يقول فى حزم :

— لابأس يا (مديحة) .. لقد انتظرت طويلًا ، وسأطالبك بالانتظار لآخر مرة ، حتى نهاية أكتوبر القادم ، وعندئذ سأعمل على أن يتمّ زواجنا ، مهما كانت الظروف والملابسات .

ابتسمت فى سعادة ، وهى تسأله فى دلال :

— ولماذا أكتوبر ؟

شرد ببصره لحظة ، ثم أجاب :

— سأكون قد بلغت الحادية والعشرين حينذاك .

لم تفهم ما الذى يعنيه ذلك ، إلا أنها غمغمت فى حب :

— حسنًا ياحبيبى .. سأنتظر .

وكانت مخلصة فى قولها ، ولكن القدر لايعترف بالاخلاص والحب والعواطف ..

إنه القدر ..

وهذا يكفى ..

* * *

لم يدر أحد ، ولاحتى (حسين) نفسه ، كيف مرَّت الأشهر التالية .. بالذات (حسين) لم يشعر بمرورها ، على الرغم من كونه المصاب الأوَّل فيها .

لقد بدت له أيامه كالعدم ..

وتقوقع فى حجرته ، مبتعدًا عن أسرته ، ومشاكلها وحتى أفراحها ..

وترك أمواج الحياة تحمله إلى أى شاطئ تشاء ..

وراح يجترّ مرارته وأحزانه لما أصابه ، والحياة من حوله تمضى بلاتوقّف ..

لقد تزوَّج (عمر) ، من فتاة جميلة ، ابنة عمدة قرية مجاورة ، وأقام لها حفل زفاف رائع ، تحدَّثت عنه المنطقة كلها ، وبدا هو خلاله أشبه بالسعادة نفسها ، وإن حملت عيناه شماتة لاحصر لها ..

وانهارت (نعيمة) ليلة زواجه ، وفاضت عيناها بدموع القهر ، وهى التى ظلت تحمل فى قلبها الكثير من الحب لزوجها السابق ، والكثير من الأمل لعودتها إليه ..

والطريف أن (عمر) قد أرسل دعوة زفاف أنيقة إلى سراى (البنهاوى) ، يدعو فيها الأسرة كلها لحضور حفل زفافه ، وكأنما يتشفَّى فيما أصاب (حسين) علانية ..

وراح شعور (حسين) بالمرارة والغضب والحنق يتضاعف ..

وراحت بطن (فاطمة) تتكوَّر وتبرز ، معلنة قرب قدوم الضيف الجديد ، ابن (حافظ) ، وحفيد (البنهاوى) ..

ونافستها بطن (ناهد) ، فيما راحت (شريفة) تراقب هذه المنافسة فى مرارة وألم ، وعبارة (فاطمة) تتردَّد فى أذنيها ، مذكِّرة إياها أنها لم تتزوَّج بعد ..

وبدا لها الزواج أملًا بعيد المنال ..

وخاصَّة بعد أن فقد (حسين) بريق السلطة وزهوها ..

أمَّا (مديحة) ، فقد انصاعت لمطلب (مفيد) ، واكتفت بوعده لها ، وباتت تحلم باقتراب نهاية أكتوبر ؛ لتلتقى بمن وهبته قلبها وحبها ..

والتحق (مفيد) بكلية التجارة فى (القاهرة) ، وفقدت (فاطمة) بابتعاده الصوت الوحيد الذى يرتفع للزود عنها وحمايتها من لسان (شريفة) ، الذى انتهز بدوره فرصة إقامة (مفيد) فى (القاهرة) ، لينهال على (فاطمة) بكل ماتعافه النفس من شر الألفاظ والنعوت ، مفرغة فى سلاطتها ماتجيش به نفسها من إحباط ومرارة وغيرة وحقد ..

ولم يعد (حسين) يعلم شيئًا عن (رفعت كسَّاب) أو رجال الثورة ..

الخبر الوحيد الذى بلغه هو أن (إبراهيم مكِّى) قد استولى على تلك الشقة الفاخرة ، التى كان يقيم فيها هو فى (جاردن سيتى) ، وأنه قد انتزع اللافتة الأنيقة ، التى تحمل اسم (حسين البنهاوى) ، ووضع بدلًا منها لافتة تحمل اسمه هو ..

ولهذا الخبر بالذات بكى (حسين) طويلًا فى حجرته ..

لقد انتزع منه الخبر آخر أمل فى العودة إلى السلطة والقوة ، فاحتلال (إبراهيم مكِّى) لشقته يعنى أن (رفعت كسَّاب) قد تخلَّى عنه ..

وأن الزمن قد أولاه ظهره تمامًا ..

وبينما كان غارقًا فى آلامه وأفكاره ودموعه ، انطلقت فى السراى صرخة قوية ..

ولأوَّل مرة منذ زمن طويل ، لم تكن صرخة حزن أو موت ..

كانت صرخة فاطمة ، التى أعلن رحمها تأهُّبه للفظ جنينها إلى الدنيا ..

كانت صرخة ميلاد ..

* * *

انتزعت الصرخة (حسين) من فراشه ..

بل من نفسه ، بكل أحزانها وآلامها ومرارتها ..

انتزعته المعجزة الربَّانية ، التى تحدث كل يوم من حولنا ، دون أن نشعر بعظمتها وقيمتها وإعجازها ..

معجزة الميلاد ..

وكأنما ألقى الأشهر الأخيرة كلها خلف ظهره ، انطلق (حسين) من حجرته ، وراح يعدو هابطًا إلى حجرة (حافظ) و (فاطمة) ، فى الطابق السفلى ، واستقبلته (شريفة) ، وهى تعدو خارج حجرة (حافظ) ، فهتف بها :

— ماذا حدث ؟

تعالى من داخل الحجرة صراخ (فاطمة) ، و (شريفة) تقول فى اضطراب :

— إنها (فاطمة) .. يبدو أن جنينها سيأتى إلى الحياة ، قبل خمسة عشر يومًا من موعده ..

سألها مرتبكًا :

— وماذا ينبغى أن نفعل ؟

صاحت وهى تعدو نحو باب السراى :

— لاشىء .. سأرسل (عبد الحميد) ؛ لإحضار القابلة .

فتحت باب السراى ، وراحت تهتف :

— (عبد الحميد) .. (عبد الحميد) .

أسرع إليها الرجل متوترًا ، ولم يكد صراخ ابنته يبلغ مسامعه ، حتى فهم الموقف كله على الفور ، وخفق قلبه بين ضلوعه ، وشحب وجهه فى شدَّة ، فى حين صاحت به (شريفة) فى اضطراب شديد :

— استدع القابلة (الداية) يا (عبد الحميد) .. ابنتك تلد .

ازداد شحوب وجه الرجل ، وبدا وكأنه سينفجر باكيًا ، وهو يقول :

— ولكن القابلة (أم سرحان) ليست هنا .. لقد سافرت إلى ابنها فى (طنطا)

صاحت فى ذعر :

ــ استدع طبيب الوحدة الصحية إذن .

كاد (عبد الحميد) يسقط فاقد الوعى ، وهو يقول فى انهيار :

ــ الطبيب لايقيم بالوحدة الصحيَّة .. إنه أحد أبناء (سمنّود) ، وهو يسافر إليها كل مساء ، و.....

قاطعه (حسين) فى انفعال :

ــ لابأس .. سأستدعى أحد أطباء المدينة هاتفيًا .

انطلق نحو الهاتف ، و (عبد الحميد) يحدِّق فيه ذاهلا ؛ فلم يكن المسكين يتخيَّل يومًا أن يهرع ضابط مهيب مثل (حسين البنهاوى)، لإسعاف ابنته هو ..

ولم يكد (حسين) يضع سمَّاعة الهاتف على أذنه ، حتى عقد حاجبيه ، وصاح فى توتُّر :

ــ الهاتف اللعين لايعمل .

وألقى السمَّاعة فوق الهاتف ، وهو يلتفت إلى (عبد الحميد) ، ويسأله :

ــ أين يمكننى أن أجد هاتفًا آخر ؟

تردَّد (عبد الحميد) لحظة ، ثم قال :

ــ عند العمدة .

أجاب (حسين) فى حزم :

ــ سأذهب إليه .

التقى فى أثناء عدوه نحو الباب بـ (نعيمة) ، التى أيقظها صراخ (فاطمة) ، وارتباك الآخرين ، فسألته حائرة قلقة :

ــ ماذا هناك ؟

هتف بها وهو يغادر السراى :

ــ (فاطمة) تلد .

ضربت صدرها بكفها ، وهى تهتف فى استنكار :

ــ تلد ؟!

نطقتها وكأنها لاتتصوَّر أن تلد (فاطمة) ، على الرغم من حملها .. لم تكن تتصوَّر أن يكون لشقيقها ابن من تلك الغليظة ، ابنة (عبد الحميد) ..

ولكن (حسين) لم يكن يفكِّر فى هذا ..

لقد استقلَّ سيارته ، وانطلق بها نحو دار العمدة ، وهو يدعو الله أن تعبر (فاطمة) وابنها هذا الموقف فى سلام ، ولم يكد يبلغ الدار ، حتى أوقف سيارته ، وقفز منها ، وراح يدقّ باب العمدة فى توتُّر ، حتى فتح العمدة بابه ، وقال فى حدَّة :

ــ ماذا هناك ؟

هتف به (حسين) فى لهفة :

ــ (فاطمة) تلد ياعمدة ، ونحتاج إلى هاتفك ، الـ .....

قاطعه العمدة فى صرامة :

ــ آسف .

حدَّق (حسين) فى وجهه بدهشة ، وقال محنقًا :

ــ ماذا تقول ياعمدة ؟ إننا نحتاج إلى الهاتف ؛ لاستدعاء طبيب ، و.....

قاطعه العمدة مرَّة أخرى :

ــ قلت آسف .

تراجع (حسين) فى ذهول ، فى حين استطرد العمدة فى لهجة لم تخل من الشماتة :

ــ هذا الهاتف حكومى يابن (البنهاوى) ، ولايصح أن يستخدمه إلا رجال الحكومة ، أو من يؤيدونهم ، والحكومة يرأسها رجل نحترمه جميعًا ، وندين له بالولاء .. اسمه (محمد نجيب) .

ثم مال نحو (حسين) ، مستطردًا فى سخرية :

ــ هل تعرفه ؟

انعقد حاجبا (حسين) فى غضب ، وقال :

ــ ستدفع ثمن هذا يا عمدة .

قال العمدة فى سخرية أشد :

ــ نقدا أم بالتقسيط المريح ؟!

وانطلق يقهقه ضاحكًا فى سخرية وشماتة ، فى حين انطلق (حسين) نحو سيارته ، وأدار محركها ؛ ليبتعد عن المكان بأقصى سرعة ، وضحكات العمدة تلاحقه ، وتنكأ جراحه ، وتسيل دماء كرامته الجريحة ..

وبكل مايملأ نفسه من غضب ومرارة صرخ :

ــ ستدفع الثمن ياعمدة .. ستدفع الثمن

وردد ليل القرية كلها صدى صرخته ووعيده ..

* * *

٣٦ ــ استدعاء ..

هبط (مفيد) من السيارة ، التى أقلته حتى باب السراى ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يتطلع إلى المكان الذى شهد طفولته وصباه وشبابه ، وأغلق عينيه وهو يملأ صدره بشهيق عميق من الهواء ..

هواء القرية النقى ..

هواء الأرض التى يعشقها ..

ثم فتح عينيه ؛ ليجول ببصره فى الحقول ، ومنازل صغار الفلاحين ، المنتشرة بينها وحولها ..

وتوقفت عيناه طويلًا عند الشجرة الكبيرة ..

وخفق قلبه فى حنان وحب ..

إنها المكان الذى شهد حبه وذكريات قلبه النابض ..

وطافت صورة (مديحة) بذهنه ، فاكتست ابتسامته بهيام وود ، جعلاه يغمغم :

ــ كم أشتاق إليك ياحبيبتى !!

ثم صعد فى درجات سلم السراى ، وهو يتوقع أن يفاجئ الجميع بعودته من (القاهرة) فى هذه الساعة المبكرة ..

ولكن المفاجأة كانت من نصيبه هو ..

لقد كان كل من فى السراى مستيقظًا ..

حتى (حسين) ..

وكان الإرهاق يملأ وجوههم ، حتى أن هتف بهم منزعجًا :

ــ ماذا أصابكم ؟.. ماذا حدث هنا ؟

ابتسم (حسين) ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :
خيرًا .. لقد أنجبت (فاطمة) فجر اليوم .
هتف فى فرح :
ـــ أنجبت ؟!.. ياله من خبر !.. كيف حالها وحال طفلها أو طفلتها ؟ أذكر هو أم أنثى ؟
أجابته (شريفة) ، فى صوت لم يخف غيرتها :
ـــ إنها بخير .. هكذا تكون تلك الفئة الوضيعة من القوم .. إنهم ينجبون كالأرانب ، دون تعب أو متاعب .
رمقها بنظرة عتاب ، وهو يكرّر سؤاله الثانى :
ـــ أطفلًا أنجبت أم طفلة ؟
أجابه (حسين) هذه المرّة :
ـــ أنجبت طفلًا .. ذكرًا .. ولقد طلبت منها أن تطلق عليه اسم والدنا ، ولكن (شريفة) ترفض فى شدّة .
التفت إلى (شريفة) ، يسألها فى دهشة :
ـــ لماذا ترفضين ؟
أجابته فى حدّة :
ـــ لن يحمل ابن (فاطمة عبد الحميد) اسم والدنا الراحل .. أبدًا .
ابتسم (مفيد) فى إشفاق ، وهو يغمغم :
ـــ إنه سيحمل اسمه على أية حال .
ثم زفر فى قوة ، مستطردًا :
ـــ فليكن .. سنمنحه اسمًا جديدًا .. ما رأيكم فى (طارق) مثلًا ؟
قال (حسين) :
ـــ (طارق البنهاوى) .. لا بأس .. إنه اسم طريف .
ثم أشار إلى (مفيد) بالجلوس إلى جواره ، وهو يسأله :

ـــ ولكن ما سر عودتك المفاجئة هذه ؟.. هل نفدت نقودك ؟
ابتسم (مفيد) ، وقال :
ـــ لا .. ولكن اليوم يوافق عيد مولدى ، الذى سيشاركنى فيه (طارق) .
هتفت (شريفة) :
ـــ يا إلهى !.. كيف نسيت هذا ؟.. إنك ستتم واحدًا وعشرين عامًا اليوم يا (مفيد) .. أليس كذلك ؟.. إنه الخامس والعشرون من أكتوبر ..
أومأ (مفيد) برأسه إيجابًا ، وهو يبتسم ، ثم التفت إلى (حسين) ، الذى ابتسم بدوْره ابتسامة باهتة ، وقال :
ـــ هذا يعنى أنك قد أصبحت راشدًا .
قال (مفيد) فى مرح :
ـــ بالطبع .
ثم مال نحو شقيقه ، واكتست ملامحه بجدّيّة مباغتة ، وهو يستطرد :
ـــ وهذا يشجّعنى على أن أطلب منك الموافقة على أمر هام .
سأله (حسين) فى اهتمام :
ـــ ما هو ؟
مال على أذنه ، مجيبًا فى همس :
ـــ زواجى .
تراجع (حسين) فى دهشة ، وحدّق فى وجه شقيقه لحظة ، ثم نهض قائلًا فى حزم :
ـــ تعال .
تبعه (مفيد) إلى حجرته ، و (شريفة) تتابعهما ببصرها فى لهفة ، والفضول يقتلها لمعرفة حديثهما ، حتى أغلق (حسين) الباب خلفهما ، والتفت يتطلّع إلى (مفيد) ، قائلًا :
ـــ إذن فأنت تريد أن تتزوّج !
أومأ (مفيد) برأسه إيجابًا ، فمال (حسين) نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ــ أهى واحدة من فتيات (القاهرة) ؟
أجابه (مفيد) ، ووجهه يتهلّل بشرًا :
ــ لا .. إنها واحدة من هنا .. (مديحة) .. ابنة عم (إسماعيل) .
تراجع (حسين) فى حركة حادّة عنيفة ، وهتف فى قوّة كالمصعوق :
ــ (مديحة) ؟
ثم هتف محنقًا :
ــ هل تريد الزواج من ابنة عامل فى أرضنا ؟
كان (مفيد) مستعدًا لذلك التراشق الكلامى ؛ لذا فقد قال فى سرعة :
ــ وماذا فى هذا ؟.. (فاطمة) أيضًا ابنة عامل فى أرضنا .
قال (حسين) فى غضب :
ــ لاينبغى أن نكرّر الخطأ نفسه مرتين .
صاح (مفيد) :
ــ أى خطإ ؟
همّ (حسين) بإلقاء الجواب ، لولا أن ارتفعت بغتة طرقات قويّة على باب الحجرة ، مصحوبة بصوت (نعيمة) ، تقول فى توتر :
ــ هناك رجلان يطلبان مقابلتك يا (حسين) .
خفق قلب (حسين) فى قوّة ، وهو يسألها :
ــ أهما من الجيش ؟
أجابته فى قلق واضح :
ــ لست أدرى .. إنهما يرتديان ثيابًا مدنية ، ولم أر أحدهما من قبل .
عقد حاجبيه فى توتُّر ، ولم يستطع كتمان اضطرابه ، وهو يلتفت إلى (مفيد) ، قائلًا :
ــ حسنًا .. سنتمّ حديثنا فيما بعد .

أراد (مفيد) أن يعترض ، ولكن (حسين) لم يمنحه الفرصة لذلك ، فقد اندفع يغادر الحجرة فى توتر ، فلم يكن من (مفيد) إلا أن قلب كفيه ، وزفر فى قوة ، مغمغمًا :

ــ لا بأس .. إن غدا لناظره قريب .

وكانت الحكمة صحيحة ..

لو أتى الغد ..

* * *

صافح (حسين) الرجلين ، اللذين لم يرهما فى حياته كلها ، وقال أحدهما فى هدوء ، وهو يشدّ على يد (حسين) :

ــ الملازم (حسين البنهاوى) .. أليس كذلك ؟

غمغم (حسين) فى حَيرة وتوتُّر :

ــ بلى .. هو أنا .

قال الآخر فى هدوء ، لا يخلو من الحزم :

ــ معذرة ياسيِّدى ، ولكن لدينا أوامر بأن نصحبك إلى حيث تستقبلك شخصية هامة .

هبط قلبه بين ضلوعه ، وهو يقول :

ــ شخصية هامة ؟! من ؟

قال الأوَّل فى حزم :

ــ ستعلم فيما بعد .. والآن هيَّا بنا .

ارتبك (حسين) فى شدَّة ، وهو يقول :

ــ هل .. هل سنتغيَّب كثيرًا ؟.. أعنى .. هل أعدّ حقيبتى ؟

أجابه الآخر :

ــ لا داعى .. ستجد كل ما يلزمك لدينا .

وقال الأوَّل فى لهجة لا تقبل النقاش :

ــ دعنا لا نضيع الوقت ياسيِّدى ، فالأوامر تقتضى ألا نضيع لحظة واحدة .. هيَّا بنا .

قال وقد ساد الشحوب وجهه تمامًا :

ــ سأبلغ شقيقى إذن .

قال الثانى فى حزم :

ــ سنبلغه نحن .

قاداه من حجرة استقبال الضيوف إلى باب السراى ، وهو يتبعهما عاجزًا مستسلمًا ، لا يجرؤ على التفوه بحرف واحد ..

وكانت هناك سيارة تنتظر أمام باب السراى ، وبداخلها سائق واحد ، لم يكد يطمئن إلى ركوب (حسين) والرجلين ، حتى انطلق بالسيارة على الفور ..

وانكمش (حسين) فى مقعده ، وقد بلغ به الرعب مبلغه ..

إنهم يعتقلونه ولا شك ..

إنه خبير بمثل هذه الأمور ..

وخبير بما يحدث بعد الاعتقال ..

وارتجف جسده فى شدَّة ..

ولم يجرؤ على إلقاء سؤال واحد على الرجلين ..

وكان يعلم أنه ما من جدوى من إلقائه ..

لن يجيب أحدهما بحرف واحد ..

إنها لمهنتهما ..

وهو أدرى الناس بها ..

وانطلقت به السيارة فى طريقها إلى (القاهرة) ، ومع كل كيلو متر تقطعه كان يزداد انكماشًا وشحوبًا ..

وراح عقله يستنتج الأمور ، والنتائج ، ولكنه عجز عن استنتاج شخصية هذا المسئول الكبير ..

أهو (رفعت كسَّاب) :

أم (إبراهيم مكّى) ؟.

جال بخاطره لحظة أن يكون (محمد نجيب) نفسه ، إلّا أنه لم يلبث أن استبعد هذا الخاطر ؛ لمرور ثمانية أشهر كاملة على إقالته ..

وما هى إلّا ساعة وبضع دقائق ، حتى توقّفت السيارة أمام منزل صغير ، فى حىّ (مصر الجديدة) ، وهبط منها الرجلان ، ليقول أحدهما :

ـ تفضّل يا (حسين) بك .

لم يدر سر لقب البكاوية هذا ، الذى منحه إيّاه الرجل جزافًا !.

أهو نوع من الاحترام الزائد ؟

أم هى سخرية ؟..

أو شماتة ؟..

وسار بين الرجلين وجسده كله ينتفض ، نحو ذلك المنزل الصغير ، الذى يقودانه إليه ..

وداخل المنزل ، اصطحبه أحد الرجلين إلى حجرة مكتب أنيقة ، وقال فى هدوء :

ـ معذرة .. سيحضر السيّد بعد قليل .

لم يجرؤ (حسين) حتى على الجلوس ، وراح يرتجف وسط تلك الحجرة الأنيقة ، التى احتشدت مكتبتها بعشرات الكتب ، حتى تناهى إلى مسامعه صوت باب الحجرة يُفتح من خلفه ، ثم يغلق فى هدوء :

ـ وبجسد شملته رعدة باردة قويّة ، استدار (حسين) يتطلّع إلى الداخل ..

وكقط مبتل فى يوم عاصف بارد : انتفض جسده كله انتفاضة عنيفة قويّة ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يحدّق فى وجه ذلك الشاب الطويل ، العريض المنكبين ، الذى راح يتطلّع إليه فى هدوء تام ، بعينين شبيهتين بعينى أسد .

كان آخر شخص يتوقّع رؤيته ..

كان (جمال) ..

(جمال عبد الناصر) نفسه ..

* * *

٣٧ ـ انتفاضة ..

مضت لحظات رهيبة من الصمت التام ، والسكون المطبق ، وعينا (عبد الناصر) ، الشبيهتان بعينى أسد هصور تجوبان وجه وجسد (حسين) ، الذى راح ينتفض فى قوّة ، أمام تلك النظرات القويّة الحازمة الصارمة الفاحصة ، عاجزًا من تمالك نفسه ، إلى أن قال (عبد الناصر) فى هدوء مخيف :

ـ كيف حالك يا (حسين) ؟

أتى صوت (حسين) مرتجفًا ، خافتًا ، يحمل رهبة العالم كله ، وهو يجيب :

ـ فى خير حال ياسيّدى .

بدت ابتسامة صغيرة للغاية ، عن طرف فم (جمال) ، وهو يقول :

ـ لقد عزلك (نجيب) من منصبك ، بسبب تأييدك العنى لى .. أليس كذلك

ازدرد (حسين) لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب :

ـ بلى ياسيّدى .

حمل صوت (جمال) من الفضول أكثر مما حمل من الحزم ، وهو يقول :

ـ ألا يبدو لك هذا التأييد العلنى نوعًا من الحماقة ؟

أجاب (حسين) ، وقد بدا له أنه من غير اللائق أن يؤيّد هذا القول :

ـ مطلقًا ياسيّدى .

سأله (جمال) فى اهتمام :

ـ ألا تشعر بالندم إذن ؟

أجاب (حسين) فى ضيق :

ـ محال أن أفعل ياسيّدى .

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتي (عبد الناصر) ، وهو يقول :

— عظيم .. إنك تصرّ على موقفك ، على الرغم من كل ماقاسيته ، ومايبدو واضحا فى نحولك وشحوبك .

واقترب خطوة من (حسين) ، وربّت على كتفه ، مستطردا :

— هذا هو الرجل الذى أحتاج إليه .

— ثم استدار ، واتجه إلى مكتبة صغيرة ، فى ركن حجرة مكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يراجع محتوياتها فى صمت ، مما أورث (حسين) مزيدًا من التوتر والقلق ، وجعله يتساءل فى أعماقه للمرة الألف : فيم ولمَ استدعاه (جمال عبد الناصر) ، ثم انتفض جسده ، عندما التفت إليه (جمال) على نحو مباغت ، وقال فى حزم :

— اسمعنى جيدًا يا (حسين).

أصغى إليه (حسين) بكل حواسه وقلقه وتوتره ، و (جمال) يتابع بنفس اللهجة الحازمة ، التى يشوبها شىء من الصرامة :

— اعتبارًا من الغد ، ستدخل الثورة مرحلة جديدة ، وخطيرة .. مرحلة تحتاج فيها لكل رجل مخلص ، من أجل القضاء على أعدائها ، وتصفيتهم ، ووضع كل رجل من رجالها فى موضعه الصحيح ، تمهيدًا للانطلاق نحو القمة .

ازدرد (حسين) الشىء اليسير من لعابه ، وهو يتمتم :

— القمة ؟!

لوّح (عبد الناصر) بيده ، قائلا :

— نعم يا (حسين) .. إن هذا الشعب ، الذى ننتمى إليه ، لمن أعظم وأعرق الشعوب ، ولاتنقصه سوى القيادة الحازمة المخلصة ، لينطلق إلى قمة الحضارة ، ويتخذ مكانه بين شعوب العالم الأولى .

ثم ضمّ قبضته ، مستطردا :

— وسأبذل عمرى فى سبيل دفعه إلى هذا .

تضاعف توتر (حسين) ، وتزايدت حيرته ، وهو يستمع إلى كلمات (جمال) الحماسية ، حتى أنه غمغم فى تردد :

— وما دورى أنا ياسيدى ؟

ابتسم (عبد الناصر) ، واتجه إليه مرة أخرى ، وربّت على كتفه ، وقال :

— ستكون ذراعى اليمنى يا (حسين).

كانت مفاجأة أعظم من أن يحتملها (حسين) ، الذى هتف فى ذهول :

— أنا ؟!

أجابه (عبد الناصر) فى حزم ، وبلهجة رجل لايحتمل أو ينتوى النقاش :

— نعم .. أنت .. لن أمنحك أية صفة رسمية حاليا ، ولكننى سأمنحك سلطة مطلقة ، اعتبارًا من صباح الغد ، وحتى تنتهى الأزمة ، التى ستبدأ غدا .. والمطلوب منك هو أن تعتقل كل من تتضمّنه قائمة خاصة ، سأمنحك إياها الآن ، وأن تضيف إليها كل من تشكّ فى أمره ، أو فى ولائه للثورة ولى .. وبالسلطة التى أمنحك إياها ، يمكنك أن تنتزع حتى مدير الأمن من موقعه ، وعليك أن تحسن استغلالها جيدًا ، أما بالنسبة لعائلتك ، فقد أرسلت من يبلغهم بعودتك إلى عملك ، ويشيع الأمر فى القرية ، ثم يؤكد لهم أنك هنا فى القيادة ؛ لأمر بالغ الأهمية ، حتى لايقلقهم غيابك ، وستجد هنا كل الملابس والأدوات التى تحتاجها ، حتى نهاية الأزمة .

بلغ انفعال (حسين) ذروته ، وهو يسأل :

— وما نوع تلك الأزمة ياسيّدى ؟

لم ير فى حياته كلها عينين أشدّ غموضًا من عينى (عبد الناصر) ، ولا ابتسامة أكثر إثارة للخوف والقلق من ابتسامته ، وهو يجيب :

— ستعلم غدا يا (حسين) ، وإن غدا لناظره قريب ..

نعم ..

غدًا لناظره قريب ..

قريب جدًا ..

* * *

« لقد أطلقوا النار على (عبد الناصر) فى (المنشية) .. »

هتف المأمور بتلك العبارة ، وهو يلقى نفسه على أريكة واسعة ، فى دار العمدة ، وقد شحب وجهه فى شدّة ، وراح يلهث ويتصبّب عرقًا ، من فرط التوتّر والانفعال ، وشاركه العمدة توتره ، وهو يقول فى صوت مختنق :

ــ كيف ؟.. ولماذا ؟.. و.....

قاطعه المأمور ، وهو يلوّح بذراعيه فى شدّة :

ــ كان يلقى خطابًا ، كما يفعل رجال الثورة عادةً ، فى السادس والعشرين من أكتوبر ، عندما أطلق عليه أحدهم النار ، وراح (عبد الناصر) يهتف مطالبًا الناس بالبقاء فى أماكنهم ، ومتحديًا الرصاصات ، التى تنهال عليه ، وصارخًا بأنه لا يهاب الموت ، وبأنه لو مات (جمال عبد الناصر) ، فكل الشعب (جمال عبد الناصر) ، وبأنه هو الذى علّمنا العزة والكرامة ، و.....

هتف العمدة مستنكرًا :

ــ هو الذى علّمنا العزة والكرامة ؟!.. ألم يملكهما شعبنا من قبل حتى أن يولد (جمال) هذا ؟

أمسك المأمور يد العمدة فى قوة ، وهو يقول فى حِدّة :

ــ دعك الآن من هذه النعرة القومية ، وأخبرنى .. هل تجد رابطًا بين هذا وتلك الشائعة ، التى تتردّد فى القرية منذ مساء أمس ، عن عودة (حسين البنهاوى) إلى عمله .

قال العمدة فى حِدّة :

ــ أنا لم أصدّق هذه الشائعة .

ثم صمت لحظة ، وأضاف فى توتر :

ــ ثم كيف يرتبط هذا بذاك ؟.. إن (عبد الناصر) لم يكن يعلم حتمًا أن أحدهم سيطلق النار عليه فى (المنشية) .. أليس كذلك ؟

ازداد المأمور شحوبًا ، وتراجع فى الأريكة ، وعاد وجهه يتصبّب عرقًا ، وهو يتمتم :

ــ من يدرى يا رجل ؟.. من يدرى ؟

* * *

حثّت (مديحة) الخطا ، وهى تعبر الحقل ، فى طريقها إلى جذع الشجرة الكبيرة ، ولم تكد تلمح (مفيد) ، وهو يستند بظهره إلى الجذع القديم كعادته ، حتى زادت من سرعة خطواتها ، وغمغمت فى حب ، وهى تجلس إلى جواره :

ــ مساء الخير يا (مفيد) .

انتزع نفسه من شروده ، وامتلأ وجهه بابتسامة حب حانية ، وهو يلتفت إليها ، مغمغمًا :

ــ مساء الخير يا (مديحة) .. كيف حالك ؟

تجرّأت على مداعبة خصلة من خصلات شعره بأناملها ، وهى تهمس :

ــ فى خير حال ، مادمت إلى جوارك يا (مفيد) .

تسلّلت يده تحتضن كفها ، وهو يقول :

ــ كم أحبك يا (مديحة) :

ــ أطرقت فى حياء ، وتضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تهمس :

ــ هل .. هل تحدّثت إلى (حسين) ؟

ضغط كفها فى رفق ، مجيبًا :

ــ نعم .. لقد فعلت .

رفعت عينيها إليه ، تسأله فى لهفة :

ــ وبم أجاب ؟

تنهّد فى عمق ، وقال :

ــ لم يجد الوقت ليفعل .

انقبض قلبها ، وهى تسأله فى قلق :

ــ ماذا تعنى ؟

قصّ عليها ما حدث فى كلمات موجزة ، فانكمشت فى موضعها ، وغمغمت :

ــ هل تظنه يوافق ؟

أجابها فى حزم :

ــ ليس أمامه سوى أن يفعل .

ازداد انكماشها ، وهى تتمتم :

ــ قد يرفض ؛ لأن والدى ..

قاطعها فى حزم :

ــ لن أمنحه الحق فى هذا .

رفعت عينيها إليه فى حَيْرة ، فأضاف :

ــ يبدو أنك لم تدركى لماذا انتظرت ، حتى أبلغ الحادية والعشرين .. لقد فعلت لأضمن قدرتى على القتال من أجلك يا (مديحة) .. إننى أسأل (حسين) رأيه من الناحية الأدبية فحسب ، بصفته شقيقى الأكبر ، أما من ناحية الحقوق فسأتزوَّجك ، شاء هو أم أبى ، ولن أسمح لمخلوق واحد بفرض وصايته على عواطفى .

ترقرقت عيناها بالدموع ، وهى تتمتم :

ــ حقًا يا (مفيد) ؟

ربَّت على كتفها ، وضمّ كفها إلى صدره فى حرارة وحب ، وهو يقول :

ــ لن يفرِّقنا مخلوق يا (مديحة) .. صدقينى .

كانت تبغى تصديقه حقًا ، ولكن شيئًا ما فى أعماقها كان يرتجف .. ويبكى ..

* * *

لم تشهد (مصر) كلها ، حتى هذا التاريخ ، حملة اعتقالات واسعة ، كتلك التى حدثت ، بعد واقعة إطلاق النار على (جمال عبد الناصر) فى المنشية ..

كل الإخوان المسلمين ..

كل السياسيين ، من عهد ما قبل الثورة ..

كل زعماء الأحزاب ..

كل خصوم الثورة ..

بل بعض أبنائها ..

التهمت النيران الجميع ..

حتى أصحابها ..

هكذا شعر (رفعت كسَّاب) ، بعد أسبوعين كاملين من بداية حملة الاعتقالات ، عندما وجه (حسين البهاوى) أمامه فى مكتبه ، فهتف والقلق يملأ نفسه :

ــ (حسين) .. كيف حالك يا رجل ؟.. لقد علمت من (إبراهيم مكّى) خبر عودتك إلى العمل ، وخروجك على رأس حملة اعتقال أعداء الثورة ، و.....

قاطعه (حسين) فى برود :

ــ معذرة يا (رفعت) بك ، ولكننى لست هنا لزيارة عاديَّة .. إن لدىَّ أوامر خاصة ومحدودة .

هوى قلب (رفعت) بين قدميه، وخيِّل إليه أن مخاوفه كلها تتخذ صورة واضحة ملموسة، وهو يحدِّق فى وجه (حسين)، هاتفًا بصوت متحشرج مختنق:

ــ أوامر محدودة ؟!

أجاب (حسين) بنفس البرود ، وبشىء من الصرامة :

ــ نعم يا (رفعت) بك .. معذرة .. إننى أنفذ واجبى .

ردَّد (رفعت) مرَّة أخرى :

ــ واجبك ؟!

لم يشأ (حسين) إضاعة المزيد من الوقت ، فى شرح ما لديه ، فقال فى حزم :

ــ إن لدىَّ أمرًا باعتقالك ، وتحديد إقامتك فى منزلك ، تحت حراسة الـ .....

قاطعه (رفعت) صارخًا :

— إعتقالى ؟!.. تحديد إقامتى ؟!.. هل جننت ؟

قال (حسين)، فى مزيج من الحزم والصرامة :

— أرجو ألا أضطر للجوء إلى القوّة ، و.....

قاطعه (رفعت) صارخًا :

— القوة ؟!.. هل بلغ الأمر هذا الحد ؟.. هل نسيت من أنا ومن أنت يا رجل ؟.. إننى أحد رجال هذه الثورة !.. أنا الذى بنيت هذا الجهاز السرّى كله .. أنا الذى صنعت أمن الثورة منذ بدايتها ، أنسيت أنك كنت مجرّد طالب مجهول ، من طلاب الكلية الحربية ، وأنك ما كنت لتحلم ببلوغ مابلغت لولاى .. أنا الذى جذبك إلى هنا .. وأنا الذى ..

قاطعه (حسين) هذه المرة :

— إننى أنفذ الأوامر .

صرخ (رفعت) :

— أوامر من ؟

أجابه فى حزم :

— أوامر (جمال عبد الناصر) .

لوّح (رفعت) بذراعيه ، وهو يصرخ :

— ومن أعطى (عبد الناصر) حق إصدار الأوامر .. إن (محمد نجيب) لا يزال الرئيس الرسمىّ للبلاد ، وليس من حقّ مخلوق غيره إصدار مثل هذا الأمر .

مطّ (حسين) شفتيه ، وقال :

— إنك لم تترك لى الخيار إذن يا سيّدى .

ثم انتزع مسدّسه فى حركة مباغتة ، وألصقه بجبهة (رفعت)، وهو يستطرد :

— فأوامرى تقتضى قتلك ، فى حال مقاومتك لأمر الاعتقال .

شحب وجه (رفعت)، وجحظت عيناه فى رعب وذهول ، ثم لم يلبث أن انهار ، وأخفى وجهه بكفيه ، وهو يهتف :

— أنا لم .. لم أقاوم .

ثم رفع عينين مغرورقتين بالدموع إلى (حسين)، واستطرد :

— ولكن اكرامًا لصداقتنا السابقة ، ورعايتى لك ، أرجوك أن تأمر الجنود بحسن معاملتى .

ربّت (حسين) على كتفه ، وقال :

— اطمئن .

وعندما ابتعد الجنود بـ (رفعت كسّاب) ، كانت عبارة من عبارات الأميرة (عايدة) تتردّد فى عقل (حسين) ..

« وكما حدث فى الثورة الفرنسية ، ستلتهم هذه الثورة أبناءها .. وبهوى .. »

لقد رأى بنفسه نصف النبوءة يتحقّق ..

لقد بدأت الثورة مرحلة التهام أبنائها ..

ولكن هذا لم يقلقه هو بالذات ، بل منحه شعورًا بالقوّة ..

القوة بلا حدود ..

* * *

٣٨ ـ الحساب ..

كانت ليلة شديدة البرودة ، من ليالى (نوفمبر) ، عندما طرق (حسين) باب شقته القديمة ، فى (جاردن سيتى) ، ووقف ينتظر ، وذكرياته تعود به إلى الماضى ، عندما كان يلتقى فى هذه الشقة بـ (عايدة)، وعندما فاجأه فيها (إبراهيم مكّى) ، و.....

وقطع (إبراهيم مكّى) سيل ذكرياته هذه المرّة ، عندما فتح باب الشقة ، التى استولى عليها ، بعد إقالة (حسين)، وابتسم فى هدوء ، وهو يواجه هذا الأخير ، قائلًا :

ـ مرحبًا يا (حسين).. كنت أنتظرك .

تجاوزه (حسين) إلى داخل الشقة ، وراح يملأ عينيه بمحتوياتها ، التى لم تتغير منها قشة واحدة ، منذ رآها آخر مرة ، ثم التفت إلى (إبراهيم)، وقال فى لهجة تحمل الكثير من الشماتة :

ـ أكنت تنتظرنى حقًّا ؟

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ماكرة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. إننى أعلم كيف تسير مثل هذه الأمور ، ومنذ اعتقال (رفعت كسّاب) أمس ، أعددْتُ حقيبتى ، وجلست أنتظر .

شعر (حسين) بدهشة حقيقية ، وهو يواجه (إبراهيم) هذه المرّة .. أدهشه كيف يتقبّل مثل هذه الأمور ، بكل البساطة واللامبالاة ..

وفى شىء من الحِدّة ، سأله :

ـ أتعلم لماذا أنا هنا ؟

هزّ (إبراهيم) كتفيه فى هدوء ، وقال دون أن تفارق ابتسامته شفتيه :

ـ لتعتقلنى بالطبع .

أغاظه أن يعلم (إبراهيم) هذا ، وأن يتقبّله بكل هذه البساطة ، إلى الحد الذى يُفقده هو لذّة التّشفّى والظفر ، فعقد حاجبيه ، وقال :

ـ هذا يعنى أننى ربحت المعركة ..

أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة ، وقال :

ـ بل ربحت هذه الجولة .

احتدّ (حسين)، وهو يقول :

ـ ومن أدراك أنها ليست الجولة الأخيرة ؟

ابتسم (إبراهيم) فى سخرية ، وأشعل سيجارته فى بطء وهدوء ، ونفث دخانها بعيدًا ، قبل أن يقول :

ـ لاتوجد جولة أخيرة ، فى لعبة الحكم والسياسة يا (حسين).. كل ماتراه عبارة عن مرحلة ، ستمضى إن عاجلًا أو أجلًا ، وتأتى بعدها مرحلة تالية ، ثم مرحلة تالية ، وهكذا .. وفى هذه المرحلة تقوم أنت باعتقالى ، ولكن من يدرى ، ربما أشرف أنا على إعدامك ، فى مرحلة قادمة ..

قالها وأطلق ضحكة ساخرة عالية ، انتفضت لها دماء الغضب فى عروق (حسين)، وهتف :

ـ لن تأتى هذه المرحلة أبدًا .

وانتزع مسدّسه ، وصوّبه إلى (إبراهيم)، مستطردًا فى حِدّة :

ـ أتعلم أننى أستطيع قتلك الآن ، مدّعيًا أنك حاولت الهرب ؟

هزّ (إبراهيم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ بالطبع .. ولن يحاسبك أو يعاقبك مخلوق واحد على هذا .. بل قد تحصل على وسام الشجاعة والفداء .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ ولكنك لن تفعل .

جذب (حسين) إبرة المسدس ، وهو يقول فى غضب :

ـــ لن يمكنك أن تجزم .

عاد (إبراهيم) يهزّ كتفيه ، وينفث دخان سيجارته ، ثم قال :

ـــ ربما أمكننى أن أستنتج ، فأنت تنتمى إلى أصل كريم ، وفى أعماقك تختفى شهامة ريفية ، ستمنعك حتما من قتلى غيلة .

ران عليهما الصمت لحظات ، ومسدّس (حسين) مصوّب إلى رأس (إبراهيم) ، ثم أعاد (حسين) إبرة مسدّسه إلى موضعها ، وأعاد المسدّس نفسه إلى جيبه ، وهو يقول :

ـــ لا بأس .. سأعفو عنك هذه المرّة ، فالمصير الذى ينتظرك أسوأ من الموت .

ابتسم (إبراهيم) ، وهو يطفئ سيجارته ، ويلتقط حقيبته ، قائلا :

ـــ من يدرى يا صديقى ، أيّنا ينتظره المصير الأسوأ ؟

وعلى الرغم منه ، ارتجف جسد (حسين) ، وانحفرت العبارة فى أعمق أعماقه ، وهو يقود (إبراهيم مكّى) إلى سيارة الجيش ، التى تنتظر لتقوده إلى المعتقل ، وتابع السيارة ببصره وهى تبتعد ، وعبارة (إبراهيم) تنازع لذة الظفر فى أعماقه ..

لقد تخلّص من أقوى خصومه ..

ولكن المعركة لم تنته بعد ..

وانتقامه لم يتحقق إلى الآن ..

ولن يهدأ حتى يكتب له النصر ..

كل النصر ..

* * *

اندفعت (شريفة) فى السراى ، تلقى نفسها بين ذراعى شقيقها (حسين) ، وهى تهتف :

ـــ (حسين) .. شقيقى الحبيب .. كم اشتقنا إليك .

طبع على وجنتها قبلة روتينية ، ثم أزاحها جانبًا ، وأشار إلى سيارتى الشرطة العسكرية ، اللتين تقفان إلى جوار سيارته ، وهو يقول فى لهجة آمرة :

ـــ أريد مأمور الناحية هنا ، بعد نصف الساعة فقط .. هيّا .

انطلقت واحدة من السيارتين ؛ لتنفيذ الأمر ، فى حين بقيت الثانية أمام السراى ، وخطا هو داخل المكان فى خطوات سريعة ، وهو يسأل (شريفة) :

ـــ أين (مفيد) و (نعيمة) ؟

أجابته وهى تسرع خلفه :

ـــ (مفيد) فى الخارج ، و (نعيمة) مع ابنتها فى حجرتها .

سألها وهو يجلس فوق مقعد والده ، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى :

ـــ أما زالت (نعيمة) ترغب فى العودة إلى زوجها ؟

تنهّدت ، وجلست على المقعد المجاور له ، قائلة :

ـــ إنها تحبه كما تعلم .

ابتسم وهو يقول :

ـــ لابدّ من إعادته إليها إذن .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اندفعت (فاطمة) إلى المكان ، وهتفت بصوتها الأجش ، الشبيه بأصوات الرجال :

ـــ مرحبًا يا (حسين) بك .. مرحبًا .. أضاءت السراى بقدومك ..

قاطعها فى صرامة :

ـــ كفى .. لست أحب هذه الأساليب المبتذلة .

رمقتها (شريفة) بنظرة شامتة ، فى حين انكمشت هى فى انكسار ، وغمغمت فى خفوت واستكانة :

ـــ هل تحبّ أن أعدّ لك شيئًا من الطعام ، أو......

قاطعها فى ازدراء :

— لا .. ليس أنت .

ازدادت انكسارًا ، وهى تقول :

— هل أخبر (حافظ) بقدومك ، أو أتيك بـ (طارق) ؟

قال فى صرامة :

— ليس الآن .. اغربى عن وجهى فى هذه اللحظة .. هيَّا .

تراجعت فى خِزْى ، وانسحبت فى صمت ، فهتفت (شريفة) فى شماتة :

— أحسنت الفعل .. هذا النوع من الغوغاء يحتاج إلى الحزم والصرامة .

ابتسم فى زهو ظافر ، وربَّت على كتف شقيقته ، ثم نهض قائلًا :

— أخبرى (نعيمة) أن تستعد .

سألته فى دهشة :

— تستعد لماذا ؟

أجابها وهو يسرع إلى الخارج :

— للعودة إلى زوجها بالطبع .

حدَّقت فيه غير مصدِّقة ، وهو يغادر السراى ، ويقول لأحد جنود سيارة الشرطة العسكرية :

— انتظر هنا يارجل ، وأحضر المأمور إلى دار العمدة ، عندما يأتى به زملاؤك .

ضرب الجندى كعبيه بعضهما ببعض ، وأدَّى التحيَّة العسكرية فى حماس ، وهو يقول :

— كما تأمر ياسيِّدى .

أمَّا (حسين) ، فقد انطلق بسيَّارته ، ولحقت به سيارة الشرطة العسكرية ، وراح هو يقود سيَّارته عبر طرقات القرية الضيِّقة ، فى زهوٍ واضح ، والجميع يتطلَّعون إلى موكبه وهيبته ، حتى بلغ منزل (عمر) ، زوج (نعيمة) ، فأوقف السيارة ، وغادرها وهو يقول لجنود الشرطة العسكرية :

— لاتسمحوا لمخلوق بالاقتراب :

قفز الجنود من السيَّارة ، وشهروا أسلحتهم ، وهم يحيطون بباب المنزل ، فى عنف ، حتى فتح (عمر) الباب ، ووقف يحدِّق فى وجه (حسين) فى شحوب ورعب ، فدفعه هذا الأخير جانبًا ، وخطا داخل المنزل ، وأغلق الباب خلفه ، وهو يقول :

— أهلًا يا (عمر) .. كيف حالك وحال زوجتك الجديدة ؟

لم ينبس (عمر) ببنت شفة ، وهو يزداد شحوبًا ، فى حين اتخذ (حسين) مجلسه فى هدوء ، واستطرد فى شماتة ساخرة :

— هل بلغتك الأخبار الجديدة ؟.. لقد تم اعتقال (محمد نجيب) ، وتحديد إقامته فى فيلَّا (المرج) ، وعزله من منصب رئيس الجمهورية ، و(جمال عبد الناصر) الآن هو الرجل الأوَّل فى (مصر) ..

ازدرد (عمر) لعابه الجاف فى صعوبة ، وارتجف جسده فى رعب هائل ، وهو يستعيد مافعله به (رفعت كسَّاب) ورجاله من قبل ، فى حين تابع (حسين) :

— ولقد أسند إلىَّ (جمال عبد الناصر) مهمة اعتقال أعداء وخصوم الثورة ، دون أن يقيِّدنى بأعداد خاصَّة ، مما يتيح لى اعتقال أنَّى كان أشاء .

انهار (عمر) تمامًا ، وترقرقت الدموع من عينيه ، حتى قال (حسين) :

— ولكننى لاأستطيع اعتقال زوج شقيقتى بالطبع .

ارتجف جسد (عمر) ، وهو يقول بصوت شاحب واهن :

— سأعيد (نعيمة) إلى عصمتى بالطبع .. الآن لو أردت .

مطَّ (حسين) شفتيه ، وقال :

— كنت أتمنَّى هذا ، ولكننى أرفض تمامًا أن تكون شقيقتى زوجة ثانية .

انهار (عمر) أكثر ، وهو يقول :

— ولكن زوجتى حامل ، و.....

قاطعه (حسين) بصوت هادر :

ــ لست أقبل الأعذار يا رجل .. أنت تفهم ما أقول تمامًا .. لقد أرسلت فى طلب مأذون القرية ، وسيكون عليك أن تطلّق زوجتك طلقة بائنة أوّلا ، ثم تعقد قرانك على شقيقتى ، وتقيم لذلك حفلا فاخرًا كبيرًا ، يفوق حفل زواجك الثانى ، وإلّا فسأعود لاصطحابك الليلة .. هل تفهم ؟

بكى (عمر) بدموع حقيقية ، وهو يقول :

ــ فهمت يا (حسين) بك .. فهمت .

وعندما غادر (حسين) منزل (عمر) ، كان شعوره بالظفر يتضاعف .. ويكبر ..

* * *

انتفض جسد العمدة ، عندما توقّفت سيارة (حسين) أمام داره ، وهبط منها هذا الأخير ، وخلفه عدد من جنود الشرطة العسكرية ، ولكنّ انتفاضة العمدة لم تمنعه من فتح ذراعيه عن آخرهما ، وهو يندفع نحو (حسين) ، هاتفًا :

ــ مرحبًا بالكريم ابن الكريم .. مرحبًا يا (حسين) بك ..

استقبله (حسين) بنظرة باردة ، وهو يقول :

ــ أهلًا ياعمدة .

ثم تجاوز الذراعين المفتوحين ، وجلس على أريكه مجاورة للباب ، وقال فى لهجة تحمل رائحة ساخرة :

ــ سنستعير حجرة الضيافة لديك ، لأداء عمل ما ياعمدة .

هتف العمدة ، وهو يدفع فى صوته أكبر قدر ممكن من الحماس :

ــ على الرُّحب والسَّعة يا (حسين) بك .

ابتسم (حسين) فى سخرية ، ثم أشار إلى الجنود ، فأسرع أحدهم إلى الخارج ، ثم عاد بصحبة المأمور ، الذى لم يكد يلمح (حسين) حتى اندفع نحوه هاتفًا :

ــ (حسين) بك .. مرحبًا بك فى ..

قاطعه (حسين) فى صرامة :

ــ أتعلم أننى قد اقتنعت بمبدئك أيها المأمور ؟

توقّف المأمور مبهوتًا ، وهو يقول :

ــ أى مبدإ يا (حسين) بك ؟

قال (حسين) فى برود :

ــ مبدأ أن القرية لاتحتمل وجود خائن داخلها .

استعاد ذهن المأمور على الفور موقفه السابق مع (حسين) عند مدخل القرية ، فتفجرّت الدموع من عينيه بغتة ، وهتف :

ــ الرحمة يا (حسين) بك !! الرحمة !

تجاهل (حسين) دموع الرجل ، وهو يقول :

ــ لقد استصدرت قرارًا بإحالتك إلى التقاعد أيها المأمور .

بكى المأمور فى حرارة ، و (حسين) يستطرد فى شماتة :

ــ ولقد تم نقلك أوّلا إلى (كوم أمبو) ، فى محافظة (أسوان) ، وعليك أن تعدّ العدة للانتقال مع أسرتك إلى هناك ، قبل أن يصلك قرار الإحالة إلى التقاعد ، وأنصحك ألا تحاول العودة منها ، خشية أن يصدر قرار باعتقالك .. هل تفهم ؟

بكى الرجل أكثر ، وهو يقول :

ــ أفهم يا (حسين) بك .. أفهم ..

قال (حسين) فى صرامة :

ــ حسنًا .. والآن هيًّا .. انصرف .

انصرف المأمور منهارًا ، ودموعه تسيل فى حرارة ، فى حين شحب العمدة شحوبًا شديدًا ، وانكمش فى مقعده ، وهو يتابع ماحدث فى رعب ، إلى أن التفت إليه (حسين) ، قائلًا :

ـ هل توافقنى فيما فعلت يا عمدة ؟

احتبس صوت العمدة فى حلقه لحظات ، ثم غمغم فى صوت متحشرج :

ـ أنت صاحب الأمر يا (حسين) بك .

ابتسم (حسين) فى سخرية ، وقال :

ـ أحقًا يا عمدة ؟

خفت صوت العمدة ، وشحب وجهه أكثر ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا (حسين) بك .

مال (حسين) نحوه ، وسأله :

ـ لماذا رفضت أن أتحدث من هاتفك إذن ؟

لم يجب العمدة ، وإن شفّ اتساع عينيه عن إدراكه ، أن الدور قد حان ، ليلعب هو دور الضحية ، فى حين اعتدل (حسين) ، مستطردًا :

ـ لقد آلمنى ذلك كثيرًا يا عمدة ، حتى أننى قررت أن أحرمك من هذا الهاتف .

ارتجف قلب العمدة ، وهو يقول فى ذعر :

ـ تحرمنى منه ؟!

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا فى هدوء ، وقال :

ـ نعم يا عمدة .. سأنقله إلى دار رجل آخر .

ثم أردف ، وهو يبتسم فى شماتة :

ـ إلى دار (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ..

* * *

٣٩ ـ الانتقال ..

حدّق العمدة فى وجه (حسين) فى ذهول ورعب ..

إنه سينتزع منه الهاتف الحكومى ..

والهاتف الحكومى ، فى منزل العمدة ، هو هيبته وكرامته ، ورمز سطوته ، فى ريف (مصر) كله ..

ثم لمن سيمنح (حسين) الهاتف ؟..

لـ (عبد الحميد) ، العامل الأجير فى أرض (البنهاوى) !!

وبكل الانفعال فى أعماقه ، هتف العمدة :

ـ لمن يا (حسين) بك ؟

أجابه (حسين) فى تشفّ :

ـ لـ (عبد الحميد) والد (فاطمة) ، زوجة أخى يا عمدة ..

هتف العمدة فى انهيار :

ـ ولكن منصب العمدة لم يخرج من عائلتى ، منذ مائتى عام أو يزيد .

ابتسم (حسين) فى شماتة ، وهو يقول :

ـ وآن له أن يخرج يا عمدة .

كانت هذه هى الصدمة التى لا يحتملها العمدة ..

ولا أى عمدة ..

لقد انهار المسكين ، وهو يردّد :

ـ ولكن لماذا يا (حسين) بك ؟.. لماذا ؟

هزّ (حسين) كتفيه ، وقال :

ـ إنها ضربة مزدوجة ياعمدة ، فانتخابات العُمَد ستحين بعد أيام ، ولو فاز (عبد الحميد) بالمنصب ، فسأكون قد رفعت من شأن زوجة أخى ، فبدلًا من أن تكون ابنة عامل أجير ، ستصبح ابنة العمدة ، ويصبح من اللائق أن يتزوَّجها أخى ، وفى الوقت نفسه أضمن وجود هاتف حكومى ، إذا ماأتت ولادة مبكِّرة .

قالها ونهض مستطردًا فى حزم :

ـ أعِدّ الهاتف ياعمدة ، فسيتمّ نقله إلى دار العمدة الجديد بعد أيام .

انقبض صدر العمدة ، وراحت أنفاسه تتلاحق فى ألم ، وشعر بنيران تستعر فى صدره الصدرىّ ، و (حسين) يقول :

ـ الوداع ياعمدة .

انتقل الألم إلى كتف العمدة ، وذراعه اليسرى ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل !!

وعندما ابتعدت سيارة (حسين) ، وخلفها سيّارتا الشرطة العسكرية ، كانت زوجة العمدة تصرخ ..

وكانت رائحة الموت تفوح فى المكان ..

* * *

« لقد قتلته »

هتف (مفيد) بالعبارة فى وجه شقيقه (حسين) ، الذى استقبل ثورته بصرامة ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا (مفيد) .. لقد أصيب العمدة بأزمة قلبية أودت بحياته ، ولست مسئولًا عن كل من يموت .

صاح (مفيد) :

ـ ولكنك أنت قتلته .. إنه لم يحتمل انتزاع السلطة منه .

أشاح (حسين) بوجهه ، وكأنه ينهى الحديث ، قائلًا :

ـ كانت الظروف تختلف .

ـ وهذا لن يمنعنى من الزواج ، من الفتاة التى أحبّها .

ـ كف عن تهوّرك وعنادك يا (مفيد) .. إننى الآن فى موقع الصدارة ، ويمكننى أن أزوّجك ابنة وزير ، وأن أمنح (شريفة) زوجًا تحلم به أية فتاة فى (مصر) كلها .

ـ لو ظلّ الأمر على ماهو عليه ، فلن تتزوّج (شريفة) أبدا .

وهل يعنى ذلك أن تتزوّج أنت ابنة عامل حقير ؟

تراجع (مفيد) ، وتطلّع إلى شقيقه فى تحد ، قائلا :

ـ هذا هو الشيء الوحيد ، الذى لايمكنك الحيلولة بينى وبينه يانصف الإله .. إننى فى الحادية والعشرين من عمرى الآن ، وسأتزوّج (مديحة) ، شئت هذا أم أبيت ، ولتنعم وحدك بأموال أبى ، فلست أريد منها شيئا .

قالها واندفع خارج المكان فى ثورة ، وانقبض قلب (شريفة) ، التى تستمع إلى الحوار منذ بدايته ، وخرجت من حيث تختبئ ، وربّتت على كتف (حسين) ، وهى تقول :

ـ لاتجعل عناد هذا الأخرق يُفسد شهيّتك يا (حسين) .

قال فى غضب :

ـ إنه غبىّ .

ربّتت على كتفه مرّة أخرى ، دون أن تضيف كلمة واحدة ، فأزاح يدها فى حنق ، ثم جلس ، وضمّ كفيه أمام وجهه ، وبدا أنه قد استغرق فى تفكير عميق ، فسألته فى تردّد :

ـ هل أعدّ الطعام الآن ؟

التفت إليها فى شرود ، ثم تألّقت عيناه بغتة ، وهبّ من مقعده ، وهو يهتف :

ـ لا .. ليس الآن .

ثم أسرع إلى حيث يقف أحد جنود الشرطة العسكرية ، وألقى على أذنه بعض أوامره ، فى صوت خافت ، أنهاه بأن أضاف فى صوت مرتفع بعض الشيء :

ـ انقلهما إلى مكتبى فى (القاهرة) على الفور .. هل تفهم ؟

أدّى الجندى التحية العسكرية فى قوّة ، وقال :

ـ كما تأمر ياسيّدى .

سألته (شريفة) فى قلق :

ـ بم أمرته ؟

ابتسم فى ظفر ، وهو يقول :

ـ بما سيحلّ المشكلة كلها .

ثم التقط قبعته الرسمية ، وأسرع إلى الخارج ، فلحقت به هاتفة :

ـ إلى أين ؟.. ألن تتناول طعام الغذاء ؟

أجابها وهو يقفز داخل سيّارته ، ويدير محرّكها :

ـ سأتناول فى مكتبى فى (القاهرة) .

وابتعد بالسيارة ، وخلفه واحدة من سيارتى الشرطة العسكرية ، تاركًا (شريفة) خلفه ، وهى تتساءل : عمّا يخفيه القدر .. وترتجف ..

* * *

لم تشعر (مديحة) ، فى حياتها كلها بالخوف ، مثلما شعرت به تلك اللحظة ، وهى تقف مع والدها ، بين صفين من جنود الشرطة العسكرية ، داخل ممر مبنى حديث التشييد ، فى قلب (القاهرة) ..

لقد انتزعها الجنود مع والدها ، من دارهما الصغيرة ، ونقلوهما إلى تلك السيّارة ، التى نقلتهما إلى (القاهرة) ، دون أن يسمحوا لهما بمجرّد السؤال ..

وكان الرعب يملأ نفسها ونفس والدها ، مع مزيج من الحَيْرة والتشاؤم ..

ولم تنجح هى أبدًا فى استنتاج سبب مايحدث ، وإن لم يبد لها الأمر خيرًا ، حتى قادها أحد الجنود مع والدها إلى حجرة واسعة ، فاخرة الأثاث ، يتصدّرها مكتب فاخر كبير ، لم تكد تلمح وجه الجالس خلفه ، حتى هتفت :

— (حسين) بك ؟!

كان المفروض أن ينتزع منها وجوده قلقها ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقها ضاعف هذا القلق ، وحوّله إلى خوف وارتياع ، فى حين شقّ صوت والدها عن فرحة الخلاص ، وهو يتقدّم نحو مكتب (حسين) ، صائحًا :

— (حسين) بك ؟!.. حمدًا لله .. لقد تصوّرنا أن .

أوقفه جندى الشرطة العسكرية ، وهو يقول فى صرامة :

— قف يا رجل ، وإلا أطلقت عليك النار .

تجمّد (إسماعيل) فى مكانه ، وتطلّع إلى (حسين) فى حَيْرة ، وأدهشته حقًّا تلك الابتسامة المزهوّة ، التى ارتسمت على وجه هذا الأخير ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ويتجه نحوه ، ثم يتطلّع إلى عينيه مباشرةً ، ويقول :

— لماذا تعادى الثورة يا عم (إسماعيل) ؟

انتفضت كل خلية فى جسد الرجل ..

جفّت كل قطرة دم فى عروقه ..

وبكل الرعب ، راح يحدّق فى وجه (حسين) ، وقد اختنقت الكلمات فى حلقه وعلى لسانه ، فى حين تراجعت (مديحة) كالمصعوقة ، وهتفت :

— يعادى الثورة ؟!.. ماذا تقول يا (حسين) بك ؟

التفت إليها (حسين) ، وملامحه تحمل كل الغلظة والقسوة ، وقال :

— أقول إن أمامى قائمة ، تحمل اسم أبيك ، ضمن أسماء أعداء الثورة ، المطلوب اعتقالهم ، وإلقاؤهم فى السجون ، وانتزاع الإعترافات منهم بالقوّة ، قبل محاكمتهم ، و.....

وأدار عينيه إلى (إسماعيل) ، مستطردًا فى صرامة :

— وإعدامهم .

جحظت عينا الرجل فى رعب هائل ، وخيّل إليه أن قدميه تعجزان عن حمله ، فترنحّ فى قوّة ، وكاد يسقط أرضًا ، لولا أن أسرعت (مديحة) تسنده بذراعيها ، وهى تهتف :

— ولكن هذا مستحيل !.. أنت تعرف أبى منذ مولدك يا (حسين) بك ، وتعلم أنه لا شأن له قط بالسّاسة أو السياسة ، ثم إنه كان من أسعد أهل الأرض بقيام الثورة ، فكيف يعاديها ؟ وكيف ..؟

زمجر (حسين) فى صرامة ، وهتف :

— لا أريد مناقشة :

— ثم صاح بالجندىّ :

— خذه إلى المعتقل .

لم يكد الجندىّ يطبق يده على (إسماعيل) ، حتى إنهار المسكين تمامًا ، وصرخ :

— الرحمة !! الرحمة !

وهنا ابتسم (حسين) فى ظفر ، وأشار إلى الجندى ، قائلًا :

— انتظر .

تراخت قبضة الجندىّ ، وانفجر (إسماعيل) باكيًا ، فى مشهد انفطر له قلب ابنته ، ففاضت الدموع من عينيها بدَوْرها ، وهى تقول :

— لماذا تفعل بنا هذا ؟.. لماذا ؟

أجاب (حسين) فى قسوة وصرامة :

— هناك بديل واحد لاعتقاله .

سألته فى لهفة :

— ما هو ؟

أجابها فى حزم :

— أن تغادر أسرتكم كلها القرية ، ولا تعود إليها أبدًا .

لحظتها فقط أدركت المغزى وراء كل هذا ..

لحظتها فقط فهمت اللُّعبة ..

ولدقائق ، راحت تتطلّع فى ألم ومرارة إلى عينى (حسين) ، وبدا لها أنها تقرأ فيهما هدفه ..

إنه يمنعها من الزواج من (مفيد) ..

ينتزع حبها من قلبها انتزاعًا ..

يا للقسوة !!

يا للعار !!..

ولكن نظرة واحدة لأبيها المنهار الشاحب الباكى ، كانت تكفى لتحسم رأيها ، وتُخفض عينيها ، متمتمة فى حزن الدنيا كلها :

ــ سنفعل .. سنفعل يا (حسين) بك .

تألقت عيناه ببريق ظافر ، وهو يقول :

ــ بقى أمر واحد .

سألته فى ذُلّ وانكسار :

ــ ما هو ؟!

كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها ، أو يتوقَّف عن الخفقان فى صدرها ، عندما أجاب فى قسوة صارمة :

ــ أن تتزوَّجى من أحد أبناء عمومتك .. الليلة ..

وهوى قلبها ذبيحًا ..

* * *

٤٠ ــ النهاية ..

شرد (مفيد) بأفكاره طويلًا ، وهو يجلس عند الشجرة القديمة ، ويرتكن بظهره إلى جذعها الكبير ..

كان كان يفكِّر فى (مديحة) ..

فى حبهما .. وعشقهما .. .

ويفكِّر فى (مصر) ..

إنه قلبه يمتلئ بالخوف ، منذ رأى ما يفعله شقيقه باسم الثورة ..

بل ما تفعله الثورة بنفسها ..

أى مستقبل ينتظر هذا البلد ؟..

أى مصير ؟..

أرخى رأسه مستندًا إلى الجذع ، وترك ذكرياته تسبح مع أيام حبِّه لـ (مديحة) ، حتى وجد نفسه يهتف :

ــ سأتزوَّجها .. سأتزوَّجها مهما كان الثمن .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى لاح له ظل أنثوى يعدو نحوه من بعيد ، فهتف وقلبه يخفق فى قلق مبهم ، لم يدر لحظتها مغزاه :

ــ (مديحة) ؟!..

ولكن لا .. إن صاحبة الظل أكبر حجمًا ..

إنها لا تحمل رقة (مديحة) وحنانها ..

وفجأة اتضحت الصورة ، ووجد نفسه يهتف فى دهشة بالغة ، وقد تضاعف القلق فى أعماقه أضعافًا :

ــ (فاطمة) ؟!.. ماذا حدث ؟.

نهض يستقبلها وهى تلهث فى شدَّة ، وتهتف به فى انفعال :

ـ (مديحة) يا (مفيد) .. (مديحة) !

انتفض قلبه بين ضلوعه ، وبدا له صوتها الأجشّ أشبه بنعيق البوم ، وهو يمسك كتفيها فى قوَّة ، ويهتف بها :

ـ ماذا أصابها ؟.. انطقى .. ماذا حدث ؟

حاولت أن تلتقط أنفاسها ، وهى تقول فى انفعال :

ـ لقد عادت سيارة من سيارات الجيش ، وحملت أمها وأشقَّاءها ، ورحل الجميع من القرية ، تحت حراسة مشدَّدة .

صرخ بكل الفزع واللوعة فى أعماقه :

ـ متى ؟.. وكيف ؟.. وماذا فعلوا بـ (مديحة) ؟

أجابت لاهثة :

ـ لقد أخذوا (مديحة) وعم (إسماعيل) منذ الظهر ، ثم عادوا لإلقاء القبض على الآخرين فى المساء .

صرخ :

ـ عند الظهر ؟!.. ولماذا لم يخبرنى أحد ؟.. لماذا ؟

أجابته بصوتها الأجش :

ـ أنت تجلس هنا منعزلًا ، منذ شجارك مع (حسين)، ولقد خشيت إبلاغك لحظتها ، و.....

لم ينتظر ليسمع حديثها ، بل دفعها بعيدًا ، وراح يعدو نحو دار (إسماعيل) ، ولم يكد يبلغها حتى صرخ فى لوْعة ...

كان كل شىء محطَّمًا منهارًا ، وكأنما دكَّته قدم عملاقة ..

وكان المكان خاليًا ..

لم يلتف حتى أهل القرية حوله ، كما يحدث عادة ، وكأنما بات الجميع يخشون مجرَّد الوقوف فى مكان وَطِئته قدم البطش ..

وبكل لوعته صرخ :

ـ (مديحة) .

ثم عاد يعدو نحو السراى ..

إنه يعلم من فعل بها هذا ..

يعلمه .. ولن يغفر له أبدًا ..

ولم يكد يقتحم السراى ، حتى رآه أمامه ..

رأى (حسين) يجلس هادئًا متبسمًا ، ويتطلَّع إليه فى ظفر واضح ..

وبكل الغضب والثورة ، انقضّ عليه ، وصرخ :

ـ ماذا فعلت بـ (مديحة) ؟

قبل أن يبلغه ، فوجئ بجنديَّين يكبِّلان ذراعيه ، ويمنعانه من الانقضاض على شقيقه الأكبر ، وسمع هذا الأخير يقول فى صرامة :

ـ اهدأ أيها الغبى .. لقد أنقذتك من نفسك .

راح (مفيد) يقاوم الجنديَّين فى استماتة ، وهو يصرخ :

ـ لست إلهًا يا (حسين).. إنك لاتملك الحق فى تصريف الأمور كما تشاء .. أعِدْ إلَىَّ (مديحة).. أعِدْ إلَىَّ مَنْ أحب .

عقد (حسين) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـ لم تعد هناك فائدة .

ثم أردف فى قسوة حازمة :

ـ لقد تزوَّجتْ (مديحة) .

هبط الجزء الأخير على (مفيد) هبوط الصاعقة ، فتزلزل له كيانه ، وارتجف له قلبه ، وانهارت أعماقه وهو يتمتم :

ـ تزوَّجت ؟

وفى عينيه تجمَّعت قطرة دمع ، حملت كل مرارته وعذابه وألمه ، وتراخت عضلاته ، وانهارت مقاومته تمامًا ، و (حسين) ينهض قائلًا فى صرامة :

ــ انسها تمامًا .. لقد تزوَّجت ابن عمها ، ورحلت ، ولن تعود إلى القرية أبدًا .

ترك الجنديان (مفيد) ، الذى انهار مع قلبه ، وسقط على أقرب مقعد إليه ، وشقيقه يغادر السراى ، وخلفه الجنديان ..

كيف ؟..

كيف خسر (مديحة) ؟..

لم يكن يصدِّق ..

من المستحيل أن يفعل ..

وتناهى إلى مسامعه صوت محرِّك سيارة (حسين) تبتعد ، معلنة نهاية قصة حبه ، وبداية عهد جديد ..

عهد بلا حب ..

وبكل الثورة فى أعماقه ، صرخ (مفيد) :

ــ لايا (مديحة) .. لا .. لا.

ولكن صرخته ضاعت فى فراغ هائل ..

وتلاشت وسط ظلام طويل ..

وليل بلا أمل ..

* * *

[نهاية الجزء الأوَّل]

أرزاق

رواية اجتماعية طويلة

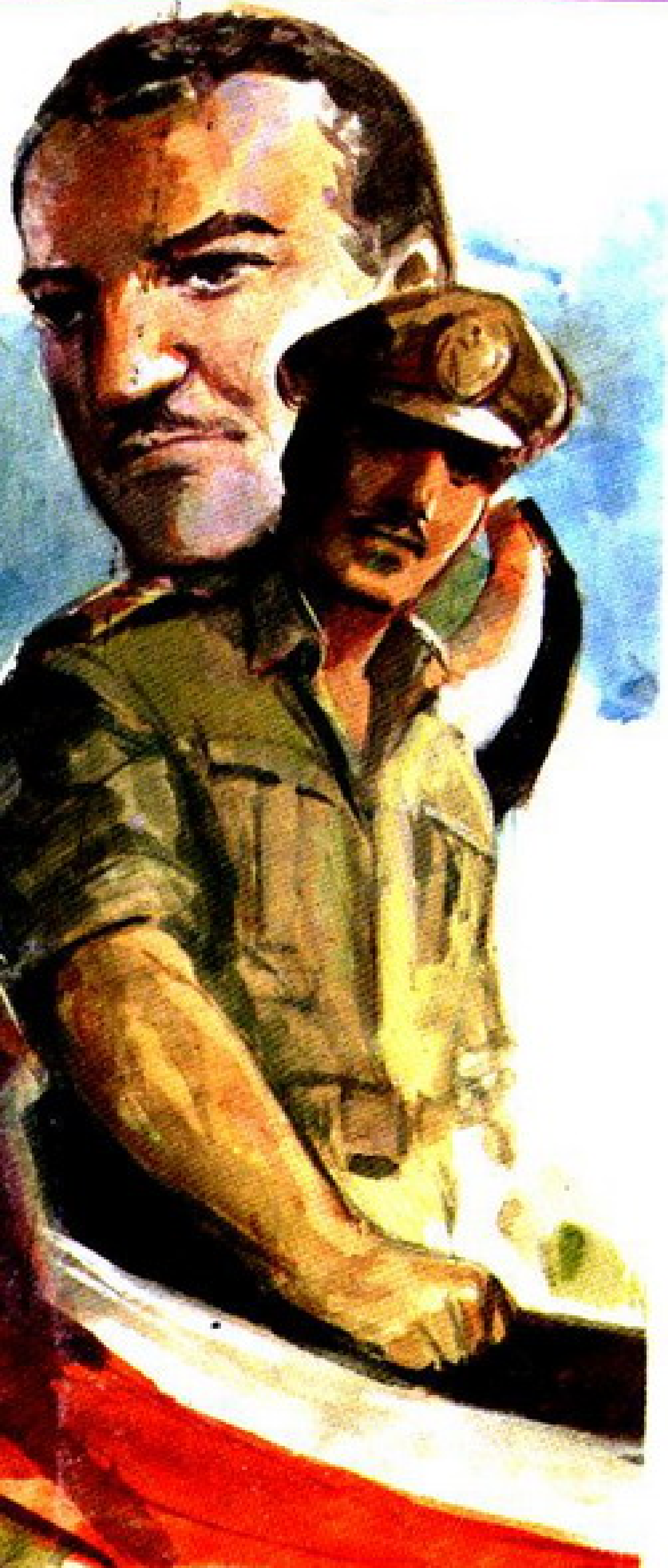

رواية اجتماعية طويلة ، تبدأ أحداثها مع البدايات الأولى لثورة الثالث والعشرين من يوليو ، عام ١٩٥٢م ، وتحكى قصة أسرة ريفية ، ارتبط قدرها ، كما ارتبط قدر مصر كلها ، فى تلك الأيام ، بالثورة وأبنائها ، وجرت بها الأحداث مثيرة ، عنيفة ، يتصارع فيها القديم مع الجديد ، والعدل مع القوة ، والحب مع المطامع ..

وفى خضمّ الأحداث تولد قصص الحب وتموت ، وتتضح صورة التغيير الاجتماعى المصاحب للثورة ، وتنمو أجيال جديدة ، تطأ بأقدامها القديم .. كل قديم .

د. نبيل فاروق

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم